التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة يوسف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر / قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي
التفسير المحرر - سورة يوسف - المجلد الحادي عشر/ مؤسسة الدرر
السنية - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٨هـ
٣٨٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٦-٤٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/٨٠٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٨٠٤٩
ردمك: ٦-٤٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٦٩٨٠٢٨٠
ت ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُوسُف

سُورةُ يُوسُفَ

أَسماءُ السُّورَةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورَةُ بسورَةِ (يُوسُفَ)(١):

فعن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قُلتُ يا رَسولَ الله، أَقرِئني سُورةَ هودٍ، وسُورةَ يُوسُفَ...)) الحديثَ(٢).

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: (كنتُ بحمصَ فقال لي بعضُ القوم: اقرأ علينا. فقرأتُ عليهم سورةَ يُوسفَ)(٣).

وعن عمرِو بنِ ميمونٍ، في قصةِ مقتلِ عمرَ رضي الله عنه، قال: (وكان [أي: عُمَر] إذا مَرَّ بين الصَّفَّيْنِ قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهنَّ خللًا تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورةَ يوسفَ، أو النَّحلِ، أو نحوَ ذلك في الركعةِ الأُولَى)(٤).

فضائلُ السورةِ وخَصائصُها:

١ - أنَّها السُّورةُ الوَحيدَةُ التي أُفرِدَت لِقِصَّةِ نَبيِّ الله يُوسُفَ عليه السلامُ، ولم تُذكَرْ قِصَّتُه في غَيرِها(٥).

---

(١) وجهُ تسميةِ هذه السورةِ بسورةِ (يوسف): اشتمالُها على قصَّتِه كلِّها، ولم تُذكَرْ قصَّتُه في غيرِها، ولم يُذكَرِ اسمُه في غيرِها إلَّا في سورةِ (الأنعام) و(غافر).
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٥٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (٩٥٣) وأحمد (١٧٤١٨) وابن حبان (١٨٤٢) والحاكم (٣٩٨٨).
صحَّح إسنادَه الحاكم (٣٩٨٨)، وجوَّد إسنادَه ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٥٤٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٠١)، ومسلم (٨٠١) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).

(٥) ينظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧).
قال سيد قطب: (والسُّورةُ ذاتُ طابعٍ مُتفرِّدٍ في احتوائِها على قصَّةِ يوسفَ كاملةً. فالقصصُ =

٢- لم تُذكَرْ قِصَّةُ نَبيٍّ فِي القرآنِ بمثلِ هذا الإطْنابِ كما ذُكِرَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورَة، فهي أطوَلُ قِصَّةٍ في القُرآنِ(١).

بيانُ المَكيِّ والمَدَنيِّ:

سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّةٌ(٢)، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِد مِن أهلِ العِلْم(٣).

= القرآنيُّ- غيرُ قصَّةِ يوسفَ- يَرِدُ حلقاتٍ، تُناسِبُ كلُّ حلقةٍ منها أو مجموعةُ حلقاتٍ موضوعَ السُّورةِ واتِّجاهَها وجَوَّها، وحتَّى القصص الذي وَرَدَ كاملًا في سورةٍ واحدةٍ- كقصص هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ- ورَد مختصرًا مجملًا. أمَّا قصَّةُ يوسفَ فوردَت بتمامِها وبطولِها في سورةٍ واحدةٍ، وهو طابعٌ مُتفَرِّدٌ في السورِ القرآنيةِ جميعًا). ((في ظلال القرآن)) (٤/ ١٩٥١).

وإذا قيل: ما الحكمةُ في عدمِ تكريرِ قِصَّةِ يُوسُفَ، وسَوقِها مَساقًا واحِدًا في موضعٍ واحدٍ دُونَ غيرِها مِنَ القصصِ؟

فالجوابُ: أنَّ قَصصَ الأنبياءِ إنَّما كُرِّرَتْ؛ لأنَّ المقصودَ بها إفادَةُ إهلاكِ مَن كذَّبوا رُسُلَهم، والحاجةُ دَاعِيَةٌ إلى ذلك؛ لتكريرِ تكذيبِ الكفارِ لرسولِ الله، فكلَّما كذَّبوا أُنزلت قِصَّةٌ مُنذِرةٌ بحلولِ العذابِ كما حلَّ على المكذِّبينَ، ولهذا قال تعالى فِي آياتٍ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]، وقِصَّةُ يُوسُفَ لم يُقْصَدْ منها ذلك، وقيل: لأنَّها اختصَّتْ بحصولِ الفرجِ بعدَ الشِّدَّةِ بخلافِ غيرِها مِن القَصصِ، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٧).

قال محمد رشيد رضا: (وهي أطولُ قِصَّةٍ في القرآنِ افتُتِحت بثلاثِ آياتٍ تمهيدِيَّةٍ في ذكرِ القرآنِ وحسنِ قَصَصِه، ثُمَّ كانت إلى تمامِ المائةِ في تاريخِ يُوسفَ، وخُتِمت بإحدَى عشرةَ آيَةً في الاستدلالِ بها على ما أنزلَها الله لأجلِه مِن إثباتِ رسالةِ خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإعجازِ كتابِه، والعبرةِ العامَّةِ بقَصَصِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٠٧).

(٢) قال سيد قطب: (والسورةُ كلُّها لُحْمَةٌ واحدةٌ عليها الطابعُ المَكِّيُّ واضحًا في موضوعِها، وفي جَوِّها، وفي ظلالِها، وفي إيحاءاتِها). ((في ظلال القرآن)) (٤/ ١٩٥٠).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الخازنُ، ومجدُ الدينِ الفيروزابادي، والبقاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥١٠)، ((بصائر ذوي التميز)) للفيروزابادي (١/ ٢٥٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٨٤).

وقيل: سورةُ يوسفَ مكِّيَّةٌ إلا الثلاثَ الأُوَل منها، قال السُّيوطي: (وهو واهٍ جدًّا لا يُلتفت إليه). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٥٩).

وقال محمد رشيد رضا: (وما قِيل مِن أنَّ الثَّلاثَ منها مدنيَّاتٌ فلا تصحُّ روايتُه، ولا يظهرُ له =

مَقاصِد السُّورَة:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورَةِ يُوسُفَ:

١- بَيانُ أنَّ العاقِبَةَ للمُؤمِنينَ المُتَّقِينَ الصَّابِرينَ رُغْمَ الابْتِلاءاتِ والمِحَنِ(١).

٢- تَسْلِيَةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه، وتَطْمِينُ نُفوسِهم(٢).

مَوْضوعات السُّورَة:

ذُكِرَت قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ مُفَصَّلَةً في مكانٍ واحِدٍ، دونَ غَيرِها مِن قَصَصِ الأنبياءِ، ومِن أبرَزِ ما اشتملتْ عليه هذه السورةُ مِن تفاصيلِ هذه القِصَّةِ وغيرِها مِن موضوعاتٍ:

١- ذِكْرُ جانبٍ مِن فَضائِلِ القُرآن الكَريم، وإعْجازِه في أُسلوب القَصَص وعَرْضِها.

٢- رُؤْيا يُوسُف عليه السَّلامُ، ومَكْرُ إِخْوَتِه به، وحَسَدُهُم له وتَآمُرُهم عليه.

٣- انْتِشالُ السَّيَّارَةِ ليُوسُفَ مِن الجُبِّ، وبَيْعُهم له، ومِحْنَتُه في قَصْرِ العَزيز، ومُراوَدَة امْرأَةِ العَزيز له، وشُيوعُ خَبَرِها، وما فعلتْه امرأةُ العزيزِ مع النِّسوةِ اللاتي تكلمْنَ بذلك.

٤- حادِثَة دُخولِ يوسفَ السِّجْنَ بعدَ ظُهورِ بَراءَتِه، ودَعْوَتُه إلى الله فيه.

= وجهٌ، وهو يُخِلُّ بنَظْمِ الكلامِ. ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٠٦)، وزاد بعضُهم الآيةَ السَّابعةَ من هذه السورةِ.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٠)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((البرهان في تناسب سور القرآن)) للغرناطي (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ٣١١).

٥- الرُّؤيا التي رَآها المَلِكُ، وتَفْسيرُ يُوسُف لها، وثُبوتُ بَراءَةِ يُوسُفَ، وخُروجُه مِن السِّجْنِ، واسْتِلامُه للمُلْكِ والوِزارَةِ، وظُهورُ شَأْنِه.

٦- لِقاءُ يُوسُف بإخْوَتِه دونَ أن يَعْرِفوهُ، وطَلَبُه حُضورَ أَخيهِم معهم في المَرَّةِ القادِمَة، ثم اختِجازُه عنده بِحيلَةٍ دَبَّرَها بإلهامٍ مِن الله، وما حَصَل لِأَبيهِم بعدَ ذلك مِن الحُزْنِ.

٧- لِقاءُ يُوسُف بإخْوَتِه مَرَّةً ثانِيَة، وكَشْفُه عن نَفسِه، وتَذْكيرُهم بما فعلوا به، وعَفْوُه عنهم، ثم أَمْرُهم بالعَوْدَةِ إلى أَبيهم، وإلْقاءِ قَميصِه على وَجْهِه؛ ليرجعَ بَصَرُه إليه.

٨- حُضورُهُم بعدَ ذلك إلى يُوسُف، واجْتِماعُه بِأَبَوَيْهِ وأَهلِه في مِصْرَ، وإكْرامُه لهم.

٩- تَعْقيباتٌ على ما وَرَدَ في قِصَّة يُوسُف، فذكَر تعالى ما يَدُلُّ على أنَّ القُرآن مِن عند الله، وما يَشهَد بِصِدْقِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّه، وبيَّن وَظيفَةَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ومَوْقِف المُشركين مِن دَعْوَتِه، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ليس بِدْعًا مِن الرُّسُل، وأنَّ العاقِبَة له ولِأَتْباعِه مِن المُؤْمِنين.

الآيات (١-٣)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ
(٢) نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ
مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (٣)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿نَقُصُّ﴾: أي: نُخبِرُ ونبيِّنُ، والقصصُ: الأثرُ والأخبارُ المتتَبَّعةُ، وأصلُ (القصِّ): تتبُّعُ الأثرِ أو الشيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَحَ الله سبحانه هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحُروفِ المُقطَّعةِ، ثم أخبَرَ تعالى أنَّ هذه آياتُ القُرآنِ الواضِحِ من جهةِ أحكامِه، وألفاظِه، وسائرِ ما حَواهُ مِنْ صُنوفِ مَعانيه، البَيِّنِ صِدقُه، الذي يُفصِحُ عمَّا أُبهِم ويُبيِّنُه، وأنَّه سُبحانَه أنزلَ هذا القُرآنَ بلُغةِ العَرَبِ؛ لعلَّهم يَعقِلونَ معانيَه ويفهَمونَها، ويَعمَلونَ بهَديِه، ثمَّ توجَّه بالخِطابِ لِنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَصِ بوَحينا إليك هذا القُرآنَ، وإن كُنتَ قبل إنزالِه عليك لَمِنَ الغافلينَ عن هذه الأخبارِ، لا تدري عنها شيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (١)﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أُنزِلَ القرآنُ على رسولِ اللهِ

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٧١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، فأنزل الله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسُف: ١] إلى قولِه تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسُف: ٣] فتلاها عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، لو حَدَّثتَنا، فأنزل الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، كلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ))(١).

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ١﴾.

﴿الٓر﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ(٢).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

أي: هذه آياتُ القُرآنِ الواضِحِ مِن جهةِ أحكامِه، وألفاظِه، وسائِرِ ما حَواهُ مِنْ صُنوفِ مَعانيه، البَيِّنِ صِدقُه، الذي يُفصِحُ عمَّا أُبهِم ويُبَيِّنُه(٣).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾.

أي: إنَّا أنزَلْناه كِتابًا يُقرَأُ بلُغَتِكم - أيُّها العربُ - كي تعلَموا وتفهَموا مَعانيَه(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((المذكر والتذكير)) (ص١٠٣)، والبزار (١١٥٣)، وأبو يعلى (٧٤٠) واللفظ له.

حسَّن إسنادَه ابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وحسَّنه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٢٢)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وصححه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التفسير المحرَّر)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣].

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

أي: نحن نقُصُّ عليك- يا محمَّدُ- أحسَنَ أخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ[1]؛ بإيحائِنا

= (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

[1] قال القُرطبي: (الحُسْنُ يَعودُ إلى القَصَصِ لا إلى القِصَّةِ. يُقال: فُلانٌ حَسَنُ الاقْتِصاصِ للحَديثِ؛ أي جَيِّدُ السِّياقَةِ له. وقِيلَ: القَصَصُ ليس مصدرًا؛ بل هو في معنَى الاسْمِ، كما يُقالُ: الله رَجاؤُنا، أي مَرْجُوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نُخبِرُك بِأَحسَنِ الأَخبارِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٩).

وقال ابنُ تَيمية: (المَقصودُ هنا أنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قد قِيلَ: إنَّه مَصدَرٌ. وقيلَ: إنَّه مَفعولٌ به. والقَولان مُتَلازِمان؛ لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ القَصَصَ مَفعولٌ به، وإن كان أَصلُه مَصدرًا فقد غَلَبَ استِعمالُه في المَقْصُوصِ،كما في لَفْظِ الخَبَرِ والنَّبأ ،والاستِعمالُ يَدُلُّ على ذلك ... وقد اعْتَرَف بذلك أهلُ اللُّغةِ، قال الجَوهري: وقد قَصَّ عليه الخَبَرَ قَصَصًا، والاسْمُ أيضًا القَصَصُ بالفَتحِ، وُضِعَ مَوضِعَ المَصدَرِ حَتَّى صار أَغْلَب عليه، فقولُه: أَحسَنَ القَصَصِ كقَولِه: نُخبِرُك أَحسَنَ الخَبَرِ، ونُنَبِئُك أَحسَنَ النَّبأِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٢).

وقال أيضًا: (المُرادُ الكلامُ الذي هو أَحسَنَ القَصَص، وهو عامٌّ في كُلِّ ما قَصَّهُ الله، لم يَخُصَّ به سُورةَ يُوسُف؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ولم يَقُل: بما أَوحَينا إليك هذه السُّورَة... فسواء كان ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ مَصدَرًا أو مَفعولًا أو جامِعًا للأَمرَينِ، فهو يَدُلُّ على أنَّ القُرآنَ وما في القُرآنِ مِن القَصَص أَحسَنُ مِن غَيرِه، فإنَّا قد ذَكَرنا أنَّهما مُتَلازِمان، فأيُّهما كان أَحسَنَ كان الآخَر أَحسَن، فتَبَيَّنَ أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ كقولِه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٩).

وقال أيضًا: (رَوَى ابنُ أبي حاتِم، عن قَتادَة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: مِن الكُتُبِ الماضِيَةِ وأُمورِ الله السَّالِفَةِ في الأُمم ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. وهذا يدُلُّ على أنَّ أحسَنَ القَصَصِ يَعُمُّ هذا كلَّه؛ بل لفظُ «القَصَص» يَتناوَل ما قَصَّهُ الأنبياءُ مِن آياتِ الله غيرَ أخبارِ الأمم، كقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٢). =

إليك هذا القرآنَ(١).

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

أي: والشَّأنُ أنَّك كنتَ- يا محمَّدُ- من قبلِ أن نوحيَ إليك هذا القُرآنَ، مِن جملةِ قَومِك الذين لا عِلْمَ لهم بما في القُرآنِ؛ من الإيمانِ والهُدَى، وأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضيةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

= وقال أيضًا: (ليس المُراد بقَولِه: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قِصَّةَ يُوسُف وَحْدَها؛ بل هي ممَّا قَصَّهُ الله وممَّا يَدخُل في أحسَن القَصَص... مِن المَعلُوم أنَّ قِصَّةَ موسى وما جَرَى له مع فِرعَون وغَيرِه أَعظَم وأَشرَف مِن قِصَّة يُوسُف بِكَثيرٍ كَثير؛ ولهذا هي أَعظَم قَصَص الأنبياء التي تُذكَر في القُرآن ثنَّاها اللهُ أكثرَ مِن غَيرِها، وبَسَطَها وطَوَّلَها أكثرَ مِن غَيرِها؛ بل قَصَص سائِر الأَنبياء- كنُوح وهُود وصالِح وشُعَيب وغَيرِهم مِن المُرسَلين- أَعظَم مِن قِصَّة يُوسُف؛ ولهذا ثَنَّى اللهُ تلك القَصَص في القُرآن ولم يُثَنِّ قِصَّة يُوسُف، وذلك لأنَّ الذين عادوا يُوسُف لم يُعادُوه على الدِّين بل عادُوه عَداوَةً دُنْيَويَّة، وحَسَدوه على مَحَبَّةِ أَبيهِ له، وظَلَموه فصَبَرَ واتَّقى الله، وابْتُلِيَ صَلوات الله عليه بِمَن ظَلَمَه وبِمَن دَعاهُ إلى الفاحِشَة فصَبَرَ واتَّقى الله في هذا وفي هذا، وابْتُلِيَ أيضًا بالمُلْكِ، فابْتُلِيَ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ فصَبَرَ واتَّقى الله في هذا وهذا، فكانت قِصَّتُه مِن أَحسَن القَصَص وهي أَحسَن مِن القَصَص التي لم تُقَصَّ في القُرآن، فإنَّ النَّاس قد يُظلَمونَ ويُحسَدونَ ويُدْعَونَ إلى الفاحِشَة ويُبْتَلَوْنَ بالمُلْكِ؛ لكن ليس مَن لم يُذكَر في القُرآن ممَّن اتَّقى الله وصَبَرَ مِثلَ يُوسُف، ولا فيهم مَن كانت عاقِبَتُه أَحسَنَ العَواقِب في الدُّنيا والآخِرَة مِثلَ يُوسُف). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٠-٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ضرورةِ العِلمِ بمعاني الكتابِ العزيزِ، ووجهُ ذلك: أنَّه سُبحانه بَيَّنَ أنَّه أنزَلَه عربيًّا كي نعقِلَه، والعقلُ لا يكونُ إلَّا مع العِلمِ بمعانيه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، إنَّما وُصِفَ القرآنُ بكونِه مُبينًا؛ لوجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ القرآنَ مُعجِزةٌ قاهِرةٌ، وآيةٌ بيِّنةٌ لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

الثاني: أنَّه بيَّنَ فيه الهدى والرُّشد، والحلالَ والحرامَ، ولَمَّا بُيِّنَت هذه الأشياءُ فيه، كان الكتابُ مُبينًا لهذه الأشياءِ.

الثَّالث: أنَّه بُيِّنَت فيه قَصصُ الأوَّلينَ، وشُرِحَت فيه أحوالُ المتقَدِّمينَ(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ اللِّسانَ العربيَّ أفصَحُ الألسنةِ وأوسَعُها وأقوَمُها وأعدَلُها؛ لأنَّ مِن المقَرَّرِ أنَّ القولَ- وإن خُصَّ بخِطابِه قومٌ- يكونُ عامًّا لِمَن سِواهم(٣).

٣- قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ هذه الجُملةُ تتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ مَنزلةَ بدَلِ الاشتمالِ؛ لأنَّ أحسَنَ القصَصِ ممَّا يشتَمِلُ عليه إنزالُ القُرآنِ، وكونُ القَصَصِ مِن عند الله يتنزَّلُ منزلةَ الاشتمالِ مِن جملةِ تأكيدِ إنزالِه مِن عندِ الله، وقولُه: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يتضَمَّنُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦).

رابطًا بين جملةِ البدَلِ والجُملةِ المُبدَلِ منها(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنَّ لُغةَ العَربِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأبيَنُها وأوسَعُها، وأكثَرُها تأديةً للمعاني التي تقومُ بالنُّفوسِ؛ فلهذا أُنزِلَ أشرفُ الكُتُبِ بأشرَفِ اللُّغاتِ، على أشرفِ الرُّسُلِ، بسِفارةِ أشرَفِ الملائكةِ، وكان ذلك في أشرَفِ بِقاعِ الأرضِ، وابتُدِئَ إنزالُه في أشرفِ شُهورِ السَّنةِ، وهو رمضانُ، فكمُلَ مِن كُلِّ الوجوهِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ردٌّ على مَن زَعَمَ أنَّ في القُرآنِ ما لا يَفقَهُ ولا يَفهَمُ معناه لا الرَّسولُ ولا المُؤمِنونَ؛ فإنَّ هذا مِن المنكَرِ الذي أنكَرَه العُلَماءُ(٣).

٦- ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه يقُصُّ على رَسولِه أحسَنَ القَصَصِ في هذا الكتابِ؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ثمَّ ذكَرَ هذه القِصَّةَ وبَسَطَها، وذكَرَ ما جرى فيه، فعُلِمَ بذلك أنَّها قِصَّةٌ تامَّةٌ كامِلةٌ حَسَنةٌ، فمن أراد أن يُكمِلَها أو يحَسِّنَها بما يُذكَرُ في الإسرائيليَّاتِ التي لا يُعرَفُ لها سنَدٌ ولا ناقِلٌ، وأغلَبُها كذِبٌ؛ فهو مُستدرِكٌ على اللهِ، ومُكمِلٌ لشيءٍ يزعُمُ أنَّه ناقِصٌ، وحَسبُك بأمرٍ ينتهي إلى هذا الحَدِّ قُبحًا! فإنَّ تضاعيفَ هذه السُّورةِ قد مُلِئَت في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ من الأكاذيبِ والأمورِ الشَّنيعةِ المُناقِضةِ لِما قَصَّه الله تعالى بشيءٍ كثيرٍ، فعلى العبدِ أن يفهَمَ عن الله ما قَصَّه، ويدَعَ ما سِوى ذلك، ممَّا ليس عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُنقَلُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

٧- ذكَرَ اللهُ أقاصيصَ الأنبياءِ في القُرآنِ، وكرَّرَها بمعنًى واحدٍ في وجوهٍ مُختلفةٍ، بألفاظٍ مُتباينةٍ على درجاتِ البلاغةِ، وقد ذكرَ قِصَّةَ يُوسُفَ ولم يكرِّرْها، فلم يَقدِرْ مُخالِفٌ على مُعارضةِ ما تكرَّر، ولا على مُعارضةِ غيرِ المُتكرِّر، والإعجازُ لِمن تأمَّل⁽¹⁾.

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

- قولُه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، وفي سُورةِ (يُونُسَ) وسُورة (لُقمانَ) قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾؛ فوَصَفَ الكِتابَ في سُورةِ (يُوسُف) بالمُبين، وفي السُّورتَينِ بالحَكيم؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكْرَ وَصْفِ إبانتِه هنا أنسَبُ؛ إذ كانت القِصَّةُ التي تَضَمَّنَتها هذه السُّورةُ مُفصَّلةً مُبيِّنةً لأهمِّ ما جَرَى في مدَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ بمِصْرَ⁽²⁾؛ فسورةُ (يُوسُفَ) عليه السَّلامُ لم تَنطوِ على غيرِ قِصَّتِه وبسْطِ التعريفِ بقَضيَّتِه، وبيانِ ما جرَى له مع أبيه وإخوتِه، وامتحانِه وتخلُّصِه بسابقِ اصطفائِه ممَّا كِيدَ به، وجَمْعِه بأخيه، ثُمَّ بأبيه وإخوتِه؛ فلهذا أُتْبِع الكتابُ بالوصفِ بـ ﴿الْمُبِينِ﴾، وأمَّا سُورتَا (يُونُسَ) و(لُقمانَ) فقدْ تَرَدَّد فيهما من الآياتِ المُعتبَرِ بها، المطْلِعةِ على عَظيمِ حِكمتِه تعالى وإتْقانِه للأشياءِ ما لم يَرِدْ في سُورةِ (يُوسُفَ)، كخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِ الشَّمسِ ضِياءً والقَمرِ نُورًا، واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما خَلَق اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في ذلك مِن عِبَرٍ وآياتٍ، وكذلك ما في سُورة (لُقمان) في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٠).

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١٠ - ١١]، وما ذَكَره فيها أيضًا عن لُقمانَ وما آتاهُ من الحِكمةِ، وما انطوتْ عليه قِصَّتُه مِن حِكمةٍ، وما صُدِّرَ عنه في وَصيَّتِه؛ فهذا وجهُ وصْفِ الكِتابِ في هاتَينِ السُّورتَينِ بالحَكيمِ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ تَعليلَ الإبانةِ مِن جِهَتَيْ لَفظِه ومَعناه؛ فإنَّ كونَه قُرآنًا يَدُلُّ على إبانةِ المعاني؛ لأنَّه ما جُعِلَ مَقروءًا إلَّا لِما في تَراكيبِه مِن المعاني المفيدةِ للقارئِ، وكونُه عَربيًّا يُفيدُ إبانةَ ألفاظِه المعانيَ المقصودةَ للَّذين خُوطِبوا به ابتِداءً، وهم العرَبُ⁽²⁾.

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مُتوجِّهٌ إلى خبَرِها، وهو فِعْلُ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ ردًّا على الَّذين أنكَروا أن يَكونَ مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ⁽³⁾.

- وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن العلمِ بالعقلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ دَلالةَ القرآنِ على هذا العِلمِ قد بلَغَت في الوُضوحِ حَدَّ أن يُنزَّلَ مَن لم يَحصُلْ له العِلمُ منها مَنزِلةَ مَن لا عَقْلَ له، وأنَّهم ما داموا مُعْرِضين عنه فهُم في عِدادِ غيرِ العُقَلاءِ⁽⁴⁾.

- وحَذَف مفعولَ ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إنزالَه كذلك هو سبَبٌ لحُصولِ تَعقُّلِ لأشياءَ كثيرةٍ مِن العلومِ مِن إعجازٍ وغيرِه⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٣٧- ٢٣٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (يوسفَ): ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وفي سورةِ (الزُّخرُفِ) قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]؛ فقال هنا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، وقال في (الزخرف): ﴿جَعَلْنَاهُ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ سورةِ (يوسُفَ) لَمَّا كانت توطِئةً لذِكرِ قَصصِه عليه السَّلامُ، ولم تَتضمَّنِ السُّورةُ غيرَ ذلك إلَّا ما أُعقِبَ به في آخِرِها، ممَّا يُعرَفُ بعجيبِ ما تَضمَّنَتْه ما كان غَيبًا عندَ قُريشٍ والعرَبِ، مُستوفِيًا ما كان أهلُ الكتابِ يَظُنُّون أنَّهم انفرَدوا بعِلمِه، فأنزَلَ اللهُ هذه السُّورةَ موفِيَةً مِن ذلك أتَمَّه، ومُعرِّفةً مِن قَصصِه العجيبَ، ومؤدِّيةً أكمَلَه وأعَمَّه، ولا أنسَبَ عِبارةً هنا مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ لِيَعلَمَ العربُ والجميعُ أنَّ نبيَّنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَتلَقَّ ذلك القَصصَ مِن أحَدٍ مِن العرَبِ؛ إذ لم يَكُنْ عِندَهم مِنه نبَأٌ، ولا رحَل في تَعرُّفِه إلى أحَدٍ؛ فالتَّعبيرُ بالإنزالِ هنا بيِّنٌ، وأمَّا آيةُ الزُّخرُفِ فلم تُبنَ على أخبارٍ⁽¹⁾.

٢- قولُه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾: فيه افتِتاحُ الجُملةِ بضَميرِ العظَمةِ ﴿نَحْنُ﴾؛ للتَّنويهِ بالخبَرِ، وتقديمُ ﴿نَحْنُ﴾ على الخبَرِ الفعليِّ ﴿نَقُصُّ﴾ يفيدُ الاختصاصَ، أي: نَحن نقُصُّ لا غيرُنا؛ ردًّا على مَن يَطعُنُ مِن المشركين في القرآنِ بقولِهم: ﴿إِنَّما يُعَلِّمُه بَشَرٌ﴾⁽²⁾ [النحل: ١٠٣].

- قولُه: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فعُبِّرَ بـ ﴿الْغَافِلِينَ﴾ دونَ أن يُوصَفَ وحْدَه بالغَفلةِ؛ ونُكتةُ ذلك الإشارةُ إلى تَفضيلِه بالقرآنِ على كلِّ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٣).

مَن لم يَنتَفِعْ بالقرآنِ؛ فدخَل في هذا الفَضلِ أصحابُه والمسلِمون على تَفاوُتِ مَراتِبِهم في العلمِ، ومَفهومُ قولِه: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ مقصودٌ منه التَّعريضُ بالمشركين المعْرِضين عن هَذِي القرآنِ⁽¹⁾.

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ التَّعبيرُ عن عدَمِ العلمِ بالغفلةِ؛ لإجلالِ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإنْ غفَل عنه بعضُ الغافِلين⁽²⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥١).

الآيات (٤-٦)

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: اذكُرْ- يا محمَّدُ- لقومِك قولَ يوسُفَ لأبيه يعقوبَ عليهما السلام: إنِّي رأيتُ في المنامِ أحدَ عشَرَ كوكبًا، والشَّمسَ والقمَرَ رأيتُهم لي ساجدينَ، فقال يعقوبُ لابنه يوسُفَ: يا بُنيَّ لا تذكُرْ لإخوتك هذه الرُّؤيا فيَحسُدوك ويُعادوك، ويَحتالوا في إنزالِ الضررِ بكَ؛ إنَّ الشَّيطانَ للإنسانِ عدُوٌّ ظاهِرُ العداوةِ. وكما أراك ربُّك هذه الرُّؤيا فكذلك يَصطَفيك للنبُوَّةِ، ويعَلِّمُك من تعبيرِ الرُّؤى التي يراها النَّاسُ في منامِهم، ومِن معاني كتبِ الله وسننِ الأنبياءِ، ويُتِمُّ نِعمتَه عليك وعلى آلِ يَعقوبَ بالنبُوَّةِ والرِّسالة، كما أتمَّها مِن قبلُ على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ بالنبُوَّةِ والرِّسالةِ، إنَّ ربَّك عليمٌ بمن يَصطفيه مِن عبادِه، حَكيمٌ في تدبيرِ أمورِ خَلقِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا مدحَ ما اشتمَلَ عليه هذا القُرآنُ مِن القَصَص، وأنَّها أحسَنُ القَصَصِ

على الإطلاقِ، فلا يُوجَدُ مِن القَصَصِ في شيءٍ مِن الكتُبِ مِثلُ هذا القرآنِ- ذكرَ قِصَّةَ يوسُفَ وأبيه وإخوتِه، القِصَّةَ العجيبةَ الحَسَنةَ[1]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾.

أي: اذكُرْ- يا محمَّدُ- لقَومِك حين قال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ- عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا أبتِ، إنِّي رأيتُ في المنامِ أحَدَ عشَرَ نَجمًا، والشَّمسَ والقمَرَ، رأيتُهم ساجدينَ لي[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلم قال: ((أكرمُ الناسِ يوسُف نبيُّ الله، ابنُ نبيِّ الله، ابنِ نبيِّ الله، ابنِ خليلِ الله))[3].

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (تكلَّمَ المفَسِّرون على تعبيرِ هذا المنامِ: أنَّ الأحدَ عشَرَ كوكبًا عبارةٌ عن إخوتِه، وكانوا أحدَ عشَرَ رجلًا سِواه، والشَّمس والقمَر عِبارةٌ عن أبيه وأمِّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٩).

وقال الشنقيطي: (لم يُبيِّنْ هنا تأويلَ هذه الرُّؤيا، ولكنَّه بيَّنَه في هذه السورة الكريمة في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩- ١٠٠]، ومِن المعلومِ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ وحيٌ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٨).

أي: قال يعقوبُ لابنه يوسُفَ: يا بُنيَّ لا تَقصُصْ هذه الرُّؤيا على إخوتِك، فيَحسُدوك، ويَحتالوا لك حيلةً ليَضُرُّوك⁽¹⁾.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لآدمَ وذريتِه عدوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، يَحمِلُهم على الحسَدِ والكَيدِ⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾.

أي: قال يعقوبُ لابنِه يوسُفَ: وكما أراك ربُّك في منامِك سُجودَ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمَرِ لك، فكذلك يَختارُك ربُّك، ويَصطفيك للنبُوَّةِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٩٥).

قال ابن عاشور: (عقَّبَ كلامَه بقَولِه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ليَعلمَ أنَّه ما حذَّره إلَّا مِن نَزغِ الشَّيطانِ في نفوسِ إخوتِه، وهذا كاعتذارِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرَّجُلَينِ مِن الأنصارِ اللَّذينِ لَقِياه ليلًا وهو يُشَيِّعُ زوجَه أمَّ المؤمنينَ إلى بيتِها، فلما رأياه ولَّيَا، فقال: «على رِسْلِكما، إنَّها صفيَّةُ. فقالا: سبحانَ اللهِ، يا رسولَ الله!! وأكبَرَا ذلك، فقال لهما: إنَّ الشَّيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ، وإني خشيتُ أن يَقذِفَ في نُفوسِكما»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾.

أي: ويُعلِّمُك مِن تعبيرِ الرُّؤى التي يراها النَّاسُ في مَنامِهم، وما يؤولُ أمرُها إليه[1]، ومن معاني كتُبِ الله وسُنَنِ الأنبياءِ[2].

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾.

أي: ويُتِمُّ نِعمَتَه عليك في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى أهلِ مِلَّةِ يعقوبَ مِن ذرِّيَّتِه وغيرِهم، كما أتمَّ نِعمَتَه من قبلِ ذلك على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ بالنِّعَم

---

[1] وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١).
قال السمعاني: (وأكثرُ المُفسِّرينَ على أنَّ المُرادَ مِن هذا علمُ التَّعبير، وما تؤولُ إليه الرُّؤيا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨)، وحكَى القرطبيُّ الإجماعَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٩).

[2] يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣).
وممن جمَع بينَ المعنيينِ المذكورينِ لتأويلِ الأحاديثِ في الجملةِ: السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((المصدران السابقان)).
وعلى المعنَى الأوَّل سُمِّيت أحاديثَ؛ لأنَّها إمَّا حديثُ نَفسٍ، أو مَلَك، أو شيطان، وعلى المعنى الثاني سُمِّيَت أحاديثَ؛ لأنَّها يُحدَّثُ بها عن الله ورُسُلِه، فيُقال: قال الله كذا، وقال رسولُه كذا، ألا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقَولِه: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]؟ يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٣).
وقال ابن عاشور: (التَّأويلُ: إرجاعُ الشَّيءِ إلى حقيقتِه ودَليلِه...والأحاديثِ: يَصِحُّ أنْ يكونَ جمعَ حديثٍ بمعنَى الشَّيءِ الحادثِ، فتأويلُ الأحاديثِ: إرجاعُ الحوادِثِ إلى عِلَلِها وأسبابِها بإدراكِ حقائِقِها على التَّمامِ. وهو المعنيُّ بالحكمةِ، وذلك بالاستدلالِ بأصنافِ الموجوداتِ على قُدرةِ اللَّهِ وحكمتِه، ويَصِحُّ أنْ يكونَ الأحاديثُ جمعَ حديثٍ بمعنَى الخبرِ المتحدَّثِ به، فالتَّأويل: تعبيرُ الرُّؤيا. سُمِّيَتْ أحاديثُ لأنَّ المرائِيَ يتحدثُ بها الراؤون، وعلى هذا المعنَى حَمَلها بعضُ المفسِّرينَ. واستدَلُّوا بقولِه في آخرِ القصَّةِ وقال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولعلَّ كلا المعنيين مرادٌ بناءً على صِحَّةِ استعمالِ المشتركِ في مَعْنَيَيه وهو الأصحُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٦).

العظيمةِ في دِينِهم ودُنياهم(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمن يستحِقُّ إتمامَ النِّعمةِ، حَكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه(٢).

الفوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ في خِطابِ يعقوبَ ليُوسُفَ تنهيةٌ عن أن يقُصَّ على إخوتِه- مَخافةَ كَيدِهم- دَلالةٌ على تحذيرِ المُسلِمِ أخاه المُسلِمَ ممَّن يخافُه عليه، والتَّنبيهِ على بعضِ ما لا يَليقُ، ولا يكونُ ذلك داخِلًا في بابِ الغِيبةِ(٣).

٢- ينبغي البعدُ عن أسبابِ الشَّرِّ، وكِتمانُ ما تُخشى مضَرَّتُه؛ لقولِ يعقوبَ ليُوسفَ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾(٤)، ففيه الحثُّ على التحَرُّزِ ممَّا يُخشَى ضُرُّه؛ فالإنسانُ مأمورٌ بالاحترازِ، فإن نفَعَ فذاك، وإلَّا لم يَلُمِ العبدُ نَفسَه(٥).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يدُلُّ على جوازِ تَركِ إظهارِ النِّعمةِ لِمَن يُخشَى منه حَسَدٌ ومَكرٌ(٦)، فليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

قال تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ وأعظَمُ ذلك نعمةُ النبُوَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢١).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ⁽¹⁾.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيه حُكمٌ بالعادةِ أنَّ الإخوةَ والقَرابةَ يَحسُدونَ⁽²⁾.

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الرُّؤيا لا تُقَصُّ على غيرِ شَفيقٍ ولا ناصِحٍ، ولا على امرئٍ لا يُحسِنُ التَّأويلَ فيها⁽³⁾.

٦- مِن الحَزمِ إذا أراد العَبدُ فِعلًا مِن الأفعالِ أن يَنظُرَ إليه مِن جَميعِ نواحيه، ويُقَدِّرَ كُلَّ احتمالٍ مُمكِنٍ، وأنَّ الاحترازَ بسُوءِ الظَّنِّ لا يَضُرُّ إذا لم يُحقِّق، بل يُحترَزُ مِن كُلِّ احتِمالٍ يُخشى ضَرَرُه، ولو تضَمَّنَ ظَنَّ السُّوءِ بالغَيرِ، إذا كانت القرائِنُ تَدُلُّ عليه وتَقتَضيه، كما في قَولِه تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وكما قَوِيَت القرائِنُ في قَولِه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]؛ فإنَّه سبَقَ لهم في أخيه ما سَبَق، فلا يُلامُ يعقوبُ إذا ظَنَّ بهم هذا الظَّنَّ، وإن كانوا في الأخِ الأخيرِ لم يَجرِ منهم تفريطٌ ولا تَعَدٍّ⁽⁴⁾.

٧- إنَّ نِعمةَ اللهِ على العبدِ نِعمةٌ على من يتعلَّقُ به من أهلِ بَيتِه وأقاربِه وأصحابِه، وأنَّه رُبَّما شَمِلَتهم، وحصل لهم ما حصَلَ له بسَبَبِه، كما قال يعقوبُ في تفسيرِه لرؤيا يوسُفَ: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾، ولَمَّا تمَّت النِّعمةُ على يوسُفَ، حصلَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٢).

لآلِ يعقوبَ مِن العِزِّ والتَّمكينِ في الأرضِ، والسُّرورِ والغِبطةِ ما حصلَ بسبَبِ يوسُفَ(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ جعلَ اللهُ تلك الرُّؤيا تنبيهًا ليُوسُفَ عليه السَّلامُ بعُلُوِّ شأنِه؛ ليتذكَّرَها كلَّما حلَّت به ضائقةٌ، فتَطمئِنَّ بها نَفسُه أنَّ عاقبتَه طَيِّبةٌ، وهكذا إذا أراد اللهُ أمرًا مِن الأمورِ العِظامِ قدَّمَ بين يديه مُقَدِّمةً؛ تَوطئةً له، وتسهيلًا لأمرِه، واستعدادًا لِما يَرِدُ على العبدِ مِن المشاقِّ؛ لُطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، وقد كانت هذه الرُّؤيا مُقَدِّمةً لِما وصَلَ إليه يوسُفُ عليه السَّلامُ مِن الارتفاعِ في الدُّنيا والآخرةِ، وإنَّما أخبَرَ يوسُفُ عليه السَّلامُ أباه بهاتِه الرُّؤيا؛ لأنَّه عَلِمَ بإلهامٍ أو بتعليمٍ سابقٍ مِن أبيه أنَّ للرُّؤيا تعبيرًا(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾ أصلٌ في تعبيرِ الرُّؤيا(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ دليلٌ على مَعرفةِ يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتأويلِ الرُّؤيا؛ فإنَّه عَلِمَ مِن تأويلِها أنَّه سيظهَرُ عليهم(٤)، وأنَّها تقتضي تقدُّمَه فيهم؛ لذا نهَى ابنَه عن ذكرِها، وخاف مِن إخوتِه أن يكيدوا له مِن أجلِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الجَدَّ أبٌ(١)؛ لأنَّ إسحاقَ جدُّ يوسفَ، وإبراهيمَ جدُّ أبيه(٢).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

- النِّداءُ ﴿يَا أَبَتِ﴾ في الآيةِ- مع كَوْنِ المنادَى حاضِرًا- مقصودٌ به الاهتمامُ بالخبَرِ الَّذي سيُلقَى إلى المخاطَبِ، فيُنزَّلُ المخاطَبُ منزِلةَ الغائبِ المطلوبِ حُضورُه، وفيه كِنايةٌ عن الاهتمام(٣).

- قولُه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فيه تأخيرُ الشَّمسِ والقمَرِ؛ لِيَعطِفَهما على الكواكِبِ على طَريقِ الاختصاصِ؛ إثباتًا لِفَضلِهما، واستبدادِهما بالمَزِيَّةِ على غَيرِهما مِن الطَّوالِعِ(٤). وقيل: إنَّ التأخيرَ إنَّما هو مِن بابِ الترقِّي مِن الأدْنَى إلى الأعلَى، وَقُدِّمَتْ الشمسُ على القمرِ؛ لسُطوعِ نُورِها، وكِبَرِ جرمِها، واستمدادِه منها، وعُلُوِّ مكانِها(٥).

- وقولُه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فيه تكرارُ ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ للفِعلِ الأوَّل ﴿رَأَيْتُ﴾؛ لطُولِ الكَلامِ والفَصلِ بَينَ الفِعلِ ﴿رَأَيْتُ﴾ الأوَّل وبين ﴿سَاجِدِينَ﴾؛ فطولُ الفَصلِ بالمفاعيلِ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨).

وقال أبو حيان: (ولم يقعِ التَّرقِّي في الشَّمسِ والقمرِ جَرْيًا على ما استقرَّ في القرآنِ مِنْ أنَّه إذا اجتَمعا قُدِّمَتْ عليه). ((المصدر السابق)).

وَالْقَمَرَ﴾ استدَعَى ذلك؛ فجِيءَ بـ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تَطرِيةً وتَنويعًا للحَديثِ(١). وقيل: إنَّه ليس بتَكرارٍ لـ﴿رَأَيْتُ...﴾، وإنَّما هو كَلامٌ مُستأنَفٌ ببَيانِ حالِهم الَّتي رآهم عليها، على تَقديرِ سُؤالٍ وقَع جوابًا له؛ كأنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ- أو كأنَّ سائلًا سأَلَ- قال له عندَ قولِه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: كيف رأيتَها؟ سائلًا عن حالِ رُؤيتِها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٢)؛ فجُملةُ ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ جيءَ بها على الاستِعْمالِ في حِكايةِ المَرائي الحُلميَّةِ أن يُعادَ فِعلُ الرُّؤيةِ؛ تأكيدًا لَفظيًّا، أو استِئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سامِعَ الرُّؤيا يَستزيدُ الرَّائيَ أخبارًا عمَّا رأى(٣).

– قولُه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فيه إجراءُ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمرِ مجرَى العُقَلاءِ، حَيثُ عبَّر عنها بقولِه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ بضَميرِ جمْعِ المذكَّرِ (هُم) وصِيغتِه ﴿سَاجِدِينَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا وصَفَها بما هو خاصٌّ بالعُقَلاءِ- وهو السُّجودُ- أَجرَى عليها حُكمَهم، وهذا شائعٌ في كلامِ العَرَبِ، وهو أنْ يُعطى الشَّيءُ حُكمَ الشَّيءِ؛ للاشتِراكِ في وَصفٍ ما، أو يُلابِسُه ويُقارِبُه من بعضِ الوُجوهِ، فيُعطَى حُكمًا مِن أحكامِه؛ إظهارًا لأثرِ الملابسةِ والمقاربةِ، وإنْ كان ذلك الوَصفُ أصلُه أنْ يَخُصَّ أحدَهما(٤)، فلمَّا وصَفها صفةَ مَن يَعقِلُ، جمَعها جَمعَ مَن يَعْقِلُ(٥).

– وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾ على عامِلِه ﴿سَاجِدِينَ﴾؛ لإظْهارِ العِنايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٨).

والاهتِمامِ بما هو الأهَمُّ، وهو ذِكرُ يُوسُفَ عليه السَّلامُ، مع ما في ضِمْنِه مِن رِعايةِ الفاصلةِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ جاءتْ هذه الجُملةُ مَفصولةً عنِ الَّتي قَبْلَها- أي: لم تُعْطَفْ عليها- على طَريقةِ المُحاوَراتِ(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ...﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماعِ هذه الرُّؤيا العجيبةِ؟ فقيل: قال:...(٣)، والنِّداءُ فيه مع حُضورِ المخاطَبِ مُستعمَلٌ في طَلَبِ إحضارِ الذِّهنِ؛ اهتِمامًا بالغرَضِ المخاطَبِ فيه(٤).

- و﴿بُنَيَّ﴾ تَصغيرُ (ابن)؛ كنايةً عن تَحبيبٍ وشفقةٍ، وفيه أيضًا كنايةٌ عن إمحاضِ النُّصحِ له(٥).

- قولُه: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيه تنكيرُ ﴿كَيْدًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، زيادةً في تحذيرِه مِن قَصِّ الرُّؤيا عليهم(٦)، وأُكِّد بالمصدَرِ للمبالَغةِ(٧)؛ فهذا الأسلوبُ آكَدُ مِن أن يُقالَ: (فيَكيدوك كيدًا)؛ إذ ليس فيه دَلالةٌ على كَوْنِ نَفْسِ الفِعلِ مقصودَ الإيقاعِ، وقيل: إنَّما جِيءَ باللَّامِ لِتَضمينِه معنى الاحتيالِ المتعدِّي باللَّامِ؛ لِيُفيدَ معنى المضمَّنِ والمضمَّنِ فيه للتَّأكيدِ، أي: فيَحْتالوا لك ولإهلاكِك حيلةً وكيدًا(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٩).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ واقعٌ موقعَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه، وعداوَةُ الشَّيطانِ لجنسِ الإنسانِ تحمِلُه على أَنْ يَدْفَعَهم إلى إضرارِ بعضِهم ببعضٍ⁽¹⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عطَف هذا الكَلامَ على تَحذيرِه مِن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه؛ إعلامًا له بعُلوِّ قَدرِه، ومستقبَلِ كَمالِه؛ كي يَزيدَ تَملِّيًا مِن سُموِّ الأخلاقِ؛ فيتَّسِعَ صدرُه لاحتمالِ أَذَى إخوتِه، وصفحًا عن غيرتِهم منه، وحسَدِهم إيَّاه؛ لِيَتمحَّضَ تحذيرُه للصَّلاحِ، وتَنتفِيَ عنه مفسَدةُ إثارةِ البغضاءِ ونحوِها، حِكْمةً نبويَّةً عظيمةً، وطِبًّا رُوحانيًّا ناجعًا⁽²⁾.

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فيه تشبيهٌ، وهو تشبيهُ تعليلٍ؛ لأنَّه تشبيهُ أحَدِ المعلولَينِ بالآخَرِ؛ لاتِّحادِ العِلَّةِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ بتَمجيدِ هذه النِّعَمِ، وأنَّها كائنةٌ على وَفْقِ عِلمِه وحِكْمتِه، وتصديرُ الجملةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ للاهتمامِ لا للتَّأكيدِ؛ إذْ لا يَشُكُّ يوسفُ عليه السَّلامُ في عِلمِ اللهِ وحِكْمتِه، والاهتمامُ ذَريعةٌ إلى إفادةِ التَّعليلِ، والتَّفريعُ في ذلك تَعريضٌ بالثَّناءِ على يوسُفَ عليه السَّلامُ، وتَأهُّلِه لمثلِ تلك الفضائلِ⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢١٧).

الآيات (٧-١٠)

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٨) ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (١٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عُصْبَةٌ﴾: أي: جَماعةٌ ذَوو عدَدٍ، وعَددُها من العَشرةِ إلى الأربعينَ. وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّيَت بذلك كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ(١).

﴿غَيَابَتِ الجُبِّ﴾: أي: قَعرِ البِئرِ، والغيابةُ: كلُّ ما غاب، أو غيَّب عنك شيئًا، وأصلُ (غيب): يدلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والجبُّ: البئرُ التي ليسَتْ بمطويةٍ(٢)، وأصلُ (جبب): يدلُّ على قَطعٍ، كأنَّها قُطِعت، ولم يحدثْ فيها شيءٌ بعدَ القطعِ(٣).

﴿السَّيَّارَةِ﴾: أي: مارَّةِ الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، وأصلُ (سير): يدلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦). ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤).

(٢) البئرُ المطويةُ هي التي تُبنَى كلُّها بالحجارةِ. يُنظر: ((المنتخب من غريب كلام العرب)) للهنائي (ص: ٤٤٠)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٧/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٤). ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٣) (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(٣/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٧).

مُشكِل الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾

﴿أَرْضًا﴾: مَنصوبةٌ على نزعِ الخافِضِ؛ أي: في أرضٍ، أو ظَرفٌ لـ ﴿اطْرَحُوهُ﴾⁽¹⁾، أو مفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ ﴿اطْرَحُوهُ﴾ معنى: (أنزِلوه)⁽²⁾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه عِبَرٌ، وأدلَّةٌ تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، لِمن يسألُ عن أخبارِهم، ويرغَبُ في مَعرفتِها، إذ قال إخوةُ يوسُفَ مِن أبيه فيما بينهم: إنَّ يُوسُفَ وأخاه الشَّقيقَ أحَبُّ إلى أبينا مِنَّا؛ يُفَضِّلُهما علينا ونحن جماعةٌ ذَوو عَددٍ، إنَّ أبانا لفي خطأٍ بيِّنٍ، اقتُلوا يوسُفَ، أو ألقُوه في أرضٍ مجهولةٍ، بعيدةٍ عن العُمرانِ، يَخلُصْ لكم حُبُّ أبيكم، وإقبالُه عليكم، ولا يلتفِتْ عنكم إلى غيرِكم، وتكونوا مِنْ بعد قَتْلِ يُوسُفَ أو إبعادِه تائبينَ إلى اللهِ، مُستَغفرينَ له مِن بعدِ ذَنبِكم.

قال قائلٌ مِن إخوةِ يوسُفَ: لا تقتُلوا يوسُفَ، وألقوه في جَوفِ البئرِ يلتَقِطْه بعضُ المارَّةِ مِن المُسافرينَ فتَستريحوا منه، ولا حاجةَ إلى قَتلِه، إنْ كنتُم عازمينَ على فِعلِ ما تقولونَ.

---

(١) لأنَّ ﴿أَرْضًا﴾ اسمُ مكانٍ، فلمَّا كان غيرَ محدودٍ، وزاد إبهامًا بالتَّنكيرِ، عُومِلَ معاملةَ الظُّروفِ المُبهَمةِ، وهذا قولُ الزمخشريِّ وتبعه أبو البقاء العكبري؛ ونصُّه في الكشَّاف: (﴿أَرْضًا﴾ أرضًا منكورةً مَجهولةً بعيدةً مِن العُمران، وهو معنى تنكيرِها وإخلائِها من الوَصفِ؛ ولإبهامِها من هذا الوجهِ نُصِبَت نصبَ الظُّروفِ المُبهَمةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٧)، ويُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٧٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٤٣، ٤٤٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ⑦﴾.

أي: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه الأحدَ عشَرَ عِبَرٌ ومواعِظُ ودَلالاتٌ للسَّائلينَ عن خَبَرِهم وقِصَّتِهم⁽¹⁾.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑧﴾.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال إخوةُ يوسُفَ فيما بينهم: واللهِ لَيوسُفُ وشَقيقُه⁽²⁾ أحبُّ إلى أبينا يعقوبَ مِنَّا، والحالُ أنَّا جماعةٌ ذوو عَددٍ، فكيف أحبَّ هذينِ الاثنينِ أكثرَ مِن الجماعةِ⁽³⁾؟!

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنَّ أبانا لَفي خطأٍ واضحٍ، وذَهابٍ عن العِلمِ بالحقيقةِ والصَّوابِ في

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٥٧).

قال ابن جرير: (﴿لِلسَّائِلِينَ﴾: يعني: السَّائلينَ عن أخبارِهم وقِصَصِهم. وإنَّما أراد جلَّ ثناؤه بذلك نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك أنَّه يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إنَّما أنزل هذه السُّورةَ على نبيِّه يُعَلِّمُه فيها ما لَقِيَ يوسُفُ مِن أَدانيه وإخوَتِه مِن الحسَدِ، مع تكرُمةِ اللهِ إيَّاه؛ تسليةً له بذلك ممَّا يلقى من أدانيه وأقاربِه مِن مُشركي قريشٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧).

(2) قال ابنُ كثيرٍ: (يعنونَ بنيامينَ، وكان شقيقَه لأُمِّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وكان بقيَّةُ إخوتِه إخوةً للأبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٠).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

إيثارِه يوسُفَ وشقيقِه علينا بالمحبَّةِ، ونحن العَشرةُ أنفَعُ له منهما(١)!

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعضُهم لبعضٍ: اقتُلوا يوسُفَ أو ألقُوه في أرضٍ بعيدةٍ مِن العُمرانِ، يتفَرَّغْ لكم أبوكم مِن شُغلِه بيوسُفَ، ويُقبِلْ عليكم بكُلِّيَّتِه(٢).

﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾.

أي: وتكونوا مِن بعدِ ما تفعلونَه بيوسُفَ قومًا صالحينَ، تتوبونَ إلى اللهِ مِن ذلك الصَّنيعِ(٣).

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾.

أي: قال قائلٌ مِن إخوةِ يوسُفَ: لا تقتُلوا يوسُفَ؛ فإنَّ قَتلَه أعظَمُ إثمًا(٤).

﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

أي: واطرَحوه وغيِّبوه في قَعرِ البِئرِ، يأخُذْه بعضُ المارَّةِ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، إن كُنتُم فاعلينَ ما أردتُم مِن التَّفريقِ بينه وبين أبيه⁽¹⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فيه أنَّ العَدلَ مَطلوبٌ في كُلِّ الأمورِ؛ في مُعاملةِ السُّلطانِ رَعيَّتَه وفيما دونَه، حتى في مُعاملةِ الوالِدِ لأولادِه- في المحبَّةِ والإيثارِ وغَيرِه- وأنَّ في الإخلالِ بذلك يختَلُّ عليه الأمرُ، وتَفسُدُ الأحوالُ؛ ولهذا لَمَّا قدَّمَ يعقوبُ يوسُفَ- عليهما السَّلامُ- في المحبَّةِ، وآثَرَه على إخوتِه؛ جرى منهم ما جرى على أنفُسِهم، وعلى أبيهم وأخيهم⁽²⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فيه وُجوبُ عِنايةِ الوالِدَينِ بمُداراةِ الأولادِ، وتَربيتِهم على المحبَّةِ والعدلِ، واتِّقاءِ وُقوعِ التَّحاسُدِ والتَّباغُضِ بينهم، ومنه اجتنابُ تَفضيلِ بعضِهم على بعضٍ بما يَعُدُّه المفضولُ إهانةً له، ومُحاباةً لأخيه بالهَوى، ومنه سُلوكُ سَبيلِ الحِكمةِ في تفضيلِ مَن فضَّلَ اللهُ تعالى بالمواهِبِ الفِطريَّةِ، كمكارِمِ الأخلاقِ والتَّقوى، والعِلمِ والذَّكاءِ⁽³⁾.

٣- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١، ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢١٦).

إنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ لَمَّا حَسَدوا يوسُفَ على تقديمِ أبيهم له، لم يرضَ - سُبحانه - حتى أقامَهم بين يدَي يوسُفَ عليه السَّلامُ، وخرُّوا له سُجَّدًا؛ ليعلَموا أنَّ الحَسُود لا يَسُود، ويُقال: أطوَلُ النَّاسِ حُزنًا مَن لاقى النَّاس عن مرارةٍ، وأراد تأخيرَ مَن قدَّمه اللهُ أو تقديمَ مَن أخَّره الله؛ فإخوةُ يوسفَ - عليه السلام - أرادوا أن يجعَلوه في أسفَلِ الجُبِّ، فرَفَعَه اللهُ فوقَ السَّريرِ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ هذه آيةٌ مِن عِبَرِ الأخلاقِ السَّيِّئة، وهي التخَلُّصُ مِن مُزاحمةِ الفاضِلِ بفَضلِه لِمَن هو دونَه فيه أو مساويه، بإعدامِ صاحِبِ الفَضلِ، وهي أكبرُ جريمةٍ؛ لاشتِمالها على الحسَدِ، والإضرارِ بالغيرِ، وانتهاكِ ما أمرَ الله بحِفظِه، وهم قد كانوا أهلَ دينٍ ومِن بيتِ نُبُوَّة، وقد أصلح اللهُ حالَهم من بعدُ(٢).

٥- لا يحِلُّ أن يُواقِعَ العبدُ الذَّنبَ بأيِّ حالةٍ تكونُ، ولو أضمَرَ أنَّه سيتوبُ منه؛ فالذَّنبُ يجِبُ اجتنابُه، فإذا وقَع وجَبَت التوبةُ منه، وقد قال تعالى عن إخوةِ يوسفَ: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبينَ إلى الله مِن هذه الجريمةِ، مُصْلِحينَ لأعمالِكم بما يُكَفِّرُ إثْمَها، وعدمِ التَّصَدِّي لمِثْلِها، فيَرْضَى عنكم أبُوكم، ويَرضَى رَبُّكم، فهم قدَّموا العزمَ على التوبةِ قبلَ صدورِ الذنبِ منهم؛ تسهيلًا لفعلِه، وإزالةً لشناعتِه، وتنشيطًا مِن بعضِهم لبعضٍ، وهكذا يُزَيِّنُ الشَّيطانُ للمؤمنِ المتديِّنِ معصيةَ الله تعالَى، ولا يَزالُ يَنْزَغُ له ويُسَوِّلُ، ويَعِدُ ويُمَنِّي ويُؤَوِّلُ، حتَّى يُرَجِّحَ داعِيَ الإيمانِ، أو يُجيبَ داعِيَ الشَّيطانِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((لطائف الإشارات)) للقشيري (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٤)، ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢١).

الفَوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ قولُه: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ يَقتضي تَخصيصًا للنَّاسِ على تعَلُّمِ هذه الأنباءِ؛ لأنَّ المرادَ آياتٌ للنَّاسِ، فوصَفَهم بالسُّؤالِ؛ إذ كُلُّ واحدٍ ينبغي أن يسألَ عن مِثلِ هذه القصَصِ، إذ هي مقَرُّ العِبَرِ والاتِّعاظِ⁽¹⁾؛ فإنَّ السَّائلين - سواء مَن سأَلَ عنها بلِسانِ الحالِ أو بلِسانِ المَقالِ - همُ الَّذين ينتَفِعونَ بالآياتِ والعِبَرِ، وأمَّا المُعْرِضونَ فلا ينتَفِعون بالآياتِ، ولا بما في القِصَصِ والبيِّناتِ⁽²⁾.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مِن المَعلوم أنَّ تفضيلَ بعضِ الأولادِ على بعضٍ يُورِثُ الحِقدَ والحسَدَ، فلِمَ أقدَمَ يعقوبُ عليه السَّلامُ على ذلك؟

الجوابُ: أنَّه إنَّما فضَّلَهما في المحبَّةِ، والمحبَّةُ ليست في وُسعِ البشَرِ، فكان معذورًا فيها، ولا يلحَقُه في ذلك لَومٌ⁽³⁾.

٣- ظاهِرُ سياقِ قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يدُلُّ على عدمِ نُبوَّةِ إخوةِ يوسف، ولم يقُمْ دَليلٌ على نبُوَّتهم، ومِن النَّاسِ مَن يزعُمُ أنَّهم أُوحيَ إليهم بعدَ ذلك، وفي هذا نظرٌ، ويحتاجُ مُدَّعي ذلك إلى دليلٍ، ولم يذكُروا سوى قَولِه تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتِمالٌ؛ لأنَّ بُطونَ بني إسرائيلَ يُقالُ لهم: الأسباطُ، كما يُقالُ للعَرَبِ: قبائِلُ، وللعَجَمِ: شعوبٌ، يذكُرُ تعالى أنَّه

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤١).

(2) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(3) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩٢).

أوحى إلى الأنبياءِ مِن أسباطِ بني إسرائيلَ، فذكَرَهم إجمالًا؛ لأنَّهم كثيرونَ، ولكِنْ كُلُّ سِبطٍ مِن نَسلِ رَجلٍ مِن إخوةِ يوسُفَ، ولم يقُمْ دليلٌ على أعيانِ هؤلاء أنَّهم أُوحيَ إليهم، والله أعلم⁽¹⁾.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في أحكامِ اللَّقيطِ⁽²⁾.

٥- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ لم يَبُتَّ القولَ عليهم، بل إنَّما عرَض عليهم ذلك تأليفًا لقَلبِهم، وتوجيهًا لهم إلى رأيِه، وحَذرًا من نِسبَتِهم له إلى التَّحكُّم والافتياتِ⁽³⁾، وقيل: فيه تعريضٌ بزيادةِ التَّريُّثِ فيما أضمَروه؛ لعَلَّهم يرَوْن الرُّجوعَ عنه أولى مِن تَنفيذِه⁽⁴⁾.

٦- قال الله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتلِ مقبولةٌ؛ لأنَّ الله تعالى لم ينكرْ هذا القولَ منهم⁽⁵⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ فيه جمعُ الآياتِ، وهو هنا مُراعًى فيه تَعدُّدُها، وتعدُّدُ أنواعِها؛ ففي قصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ دَلائلُ على ما للصَّبرِ وحُسنِ الطَّوِيَّةِ مِن عواقبِ الخيرِ والنَّصرِ، أو على ما للحسَدِ والإضرارِ بالنَّاسِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣١).

الخيبةِ والاندِحارِ والهُبوطِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ أفادَت لامُ الابتداءِ في ﴿لَيُوسُفُ﴾ التَّأكيدَ والتَّحقيقَ لمضمونِ الجملةِ؛ أي: أرادوا أنَّ زِيادةَ مَحبَّتِه وكثرةَ حبِّه لهما ثابتٌ، لا شُبهةَ فيه(٢).

- وخَصُّوا يوسفَ عليه السَّلامُ بالأُخوَّةِ، فقالوا: ﴿وَأَخُوهُ﴾؛ لأنَّه كان شَقيقَه، وكان بقيَّةُ إخوتِه إخوةً للأبِ(٣)، ولم يَذكُروه باسمِه؛ إشعارًا بأنَّ محبةَ يعقوبَ عليه السلامُ له لأجلِ شقيقِه يوسفَ عليه السلامُ، ولذا لم يتعرَّضوه بشيءٍ مما أُوقِع بيوسفَ عليه السلامُ(٤).

- وجملةُ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في موضعِ الحالِ، والمقصودُ مِن هذه الحالِ: التَّعجُّبُ مِن تَفْضيلِهما في الحبِّ في حالِ أنَّ رجاءَ انتِفاعِه مِن إخوَتِهما أشَدُّ مِن رَجائِه مِنهما(٥).

- وجملةُ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تعليلٌ للتَّعجُّبِ المستفادِ مِن جملةِ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، وتفريعٌ عليها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩١).
وهذا الوجهُ هو على القولِ بأنَّ هذه اللَّامَ لامُ الابتداءِ، وأمَّا على القولِ بأنَّ اللَّامَ لامُ قسَمٍ، والتَّقديرُ: واللهِ لَيُوسُفُ؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

- جملةُ: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ المتقدِّمَ يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ السَّامِعين عن غرَضِ القائِلين ممَّا قالوه، فهذا المقصودُ للقائِلين، وإنَّما جعَلوا له الكلامَ السَّابِقَ كالمقدِّمةِ؛ لِتَتأثَّرَ نفوسُ السَّامعينَ، فإذا أُلْقِي إليها المطلوبُ كانت سريعةَ الامتثالِ إليه⁽¹⁾.

- وتنكيرُ ﴿أَرْضًا﴾ وإخلاؤُها مِن الوصفِ يُفيدُ الإبهامَ؛ أي: أرضًا مَنكورةً مجهولةً بعيدةً مِن العُمرانِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا...﴾ فيه إيثارُ الخطابِ في ﴿لَكُمْ﴾ وما بَعدَه؛ للمُبالَغةِ في حَمْلِهم على القَبولِ؛ فإنَّ اعتِناءَ المرءِ بشأنِ نفْسِه، واهتمامَه بتحصيلِ مَنافِعِه أتَمُّ وأكمَلُ⁽³⁾.

- وقولُه: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيه ذِكرُ الوجهِ لِتَصويرِ معنى إقبالِه عليهم؛ لأنَّ مَن أقبَل عليك صرَف وجْهَه إليك، وفيه كِنايةٌ عن خُلوصِ مَحبَّتِه لهم دونَ مُشارِكٍ⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فيه التَّعبيرُ بـ ﴿قَوْمًا﴾ دونَ الاكتفاءِ بـ ﴿صَالِحِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ صَلاحَ الحالِ صِفةٌ متمكِّنةٌ فيهم؛ كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (لا تَقْتُلوه)-؛ استِجلابًا لِشفَقتِهم عليه، أو استِعظامًا لقَتلِه(١).

- قولُهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ في قولِه: ﴿بَعْضُ﴾ مِن الإبهامِ؛ لتحقيقِ ما يتَوخَّاه مِن ترويجِ كَلامِه بموافَقتِه لغرَضِهم الَّذي هو تَنائي يوسُفَ عنهم، بحيث لا يُدرَى أثرُه، ولا يُروَى خبَرُه(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٤)

﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرْتَعْ﴾: أي: يأكلْ ويَنعَمْ، وأصلُ (رتع): يدل على الاتِّساعِ في المأكَلِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن طلبِ إخوةِ يوسُفَ من أبيهم أن يأذنَ في خروجِ يوسفَ معهم، وذلك بعدَ اتِّفاقِهم على إبعادِه، وأنهم قالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمَنُنا على يوسُفَ مع أنَّه أخونا، ونحن نُريدُ له الخيرَ، ونُشفِقُ عليه ونرعاه، ونخُصُّه بخالِصِ النُّصحِ؟ أرسِلْه معنا غدًا يأكُلْ ويَنشَطْ ويَفرحْ، ويلعَبْ بالاستباقِ ونحوِه، وإنَّا لحافِظونَ له من كلِّ ما تخافُ عليه. قال يعقوبُ: إنِّي لَيؤلِمُ نفسي ذهابُكم به، ومُفارقتُه لي، وأخشى أن يأكُلَه الذِّئبُ وأنتم عنه غافِلونَ، فقال إخوةُ يوسُفَ لوالِدِهم: لئنْ أكَلَه الذِّئبُ ونحن جماعةٌ قويَّةٌ، إنَّا إذًا لخاسِرونَ، لا خيرَ فينا، ولا نَفعَ يُرْجَى منَّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١)﴾.

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّرَ في أذهانِ إخوةِ يوسُفَ التَّفريقُ بين يوسُفَ وأبيه، أعمَلوا الحِيلةَ على يعقوبَ، وتلطَّفوا في إخراجِه معهم، وذَكَروا نُصحَهم له، وما في إرسالِه معهم مِن انشراحِ صَدرِه بالارتِعاءِ واللَّعِب، وذكَروا حِفظَهم له ممَّا يَسوءُه(١).

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ عليه السَّلامُ، وقد عزموا على إلقاءِ يوسُفَ في قَعرِ البئرِ: يا أبانا لِمَ تخافُ منَّا على يوسُفَ، فلا تأمَنُنا عليه(٢)؟!

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾.

أي: وإنَّا لناصِحونَ ليوسُفَ بالحِفظِ والرِّعايةِ والنَّفعِ له(٣).

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَوا عن أنفُسِهم التُّهمةَ المانِعةَ مِن عدَمِ إرسالِه معهم، ذَكَروا له مِن مَصلحةِ يوسُفَ وأُنسِه- الذي يُحبُّه أبوه له- ما يقتضي أن يسمَحَ بإرسالِه معهم، فقالوا(٤):

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ﴾ بالنونِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿نَرْتَعِ﴾؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم⁽¹⁾.

٢- قراءةُ ﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿يَرْتَعِ﴾؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ⁽²⁾.

وقراءةُ ﴿نَرْتَعِ﴾ و﴿يَرْتَعِ﴾ بكسرِ العينِ فيهما، مِن الرعيِ، على معنًى: يَرتعِي ماشيتَنا، قيل: ليتدربَ على الرعيِ وحفظِ المالِ، أو مِن الرعايةِ، وهي الحفظُ، على معنًى: نرعَى ويحرسُ بعضُنا بعضًا⁽³⁾.

٣- قراءةُ ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بالنُّونِ فيهما؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ عن أنفُسِهم⁽⁴⁾.

٤- قراءةُ ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما؛ بإسنادِ الفِعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ⁽⁵⁾.

والمعنَى على هاتينِ القراءتينِ: ﴿نَرْتَعْ﴾ و﴿يَرْتَعْ﴾ بسكونِ العينِ فيهما- هو: اللهوُ والاتساعُ في أكلِ الفواكهِ وغيرِها⁽⁶⁾.

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ ونافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).

(٤) قرأ بها أبو عمرو وابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٣).

(٦) يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾.

أي: ابعَثْه معَنا غدًا يأكُلْ ويَلْهُ، ويتنَزَّهْ في البرِّيَّة، وينشَطْ ويلعَبْ(١).

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

أي: وإنَّا لحافِظونَ ليوسُفَ، وسنَحميه من أن ينالَه مَكروهٌ أو أذًى(٢).

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ (١٣) ﴾.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: إنِّي ليَحزُنُني ذَهابُكم بيوسُفَ إلى البَرِّيَّة، ويشُقُّ عليَّ غيابُه عنِّي(٣).

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾.

أي: وأخافُ أن يأكُلَه الذِّئبُ، وأنتم مَشغولونَ عنه، لا تَشعرونَ بذلك(٤).

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) ﴾.

أي: قالوا لأبيهم: لَئِن أكلَ الذِّئبُ يوسُفَ، والحالُ أنَّنا جماعةٌ معه، ولم نستَطِعْ حِفظَه من الذِّئبِ- إنَّا إذًا لعَجَزةٌ هالِكونَ، لا خيرَ فينا، ولا نفعَ منَّا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ إنَّما ذكَرَ يعقوبُ عليه السَّلامُ أنَّ ذَهابَهم به غدًا يُحدِثُ به حُزنًا مُستقبلًا؛ ليصرِفَهم عن الإلحاحِ في طلَبِ الخُروجِ به؛ لأنَّ شأنَ الابنِ البارِّ أن يتَّقيَ ما يَحزُنُ أباه⁽¹⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ في هذا القَولِ الذي تواطَؤوا عليه عند أبيهم عبرةٌ مِن تواطُؤِ أهلِ الغرَضِ الواحِدِ على التحَيُّلِ لنَصبِ الأحابيلِ لتَحصيلِ غرَضٍ دَنيءٍ⁽²⁾.

٢- في قَولِهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ دليلٌ على أنَّهم تقدَّمَ منهم سؤالٌ في أن يَخرُجَ معهم، وذكروا سبَبَ الأمنِ وهو النُّصحُ، أي: لمَ لا تأمَنُنا عليه، وحالتُنا هذه؟ والنُّصحُ دليلٌ على الأمانة؛ ولهذا قُرِنَا في قَولِه: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكان قد أحَسَّ منهم قبلُ ما أوجبَ ألَّا يأمَنَهم عليه⁽³⁾.

٣- قولُهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ في لَفظةِ: ﴿أَرْسِلْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ يعقوبَ عليه السلامُ كان يُمسِكُه، ويَصحَبُه دائمًا⁽⁴⁾.

٤- قال تعالى حكايةً لِقَولِ إخوةِ يوسُفَ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فعَلَّلوا طَلَبَه، والخروجَ به، بما يمكِنُ أن يستهويَ يوسُفَ لِصِباه؛ من الرُّتوعِ، واللَّعِب، والنَّشاطِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٤).

٥- قيل: قد صدَّقَت هذه القِصَّةُ المَثَلَ السَّائرَ، وهو قولُهم: (البَلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنطِقِ)؛ فإنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ قال في حقِّ يوسُفَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾، فابْتُلِيَ مِن ناحيةِ هذا القولِ؛ لأنَّهم لم يَعْتَلُّوا على أبيهم إلا بالشيءِ نفسِه الذي سمِعوه يَنطِقُ به، لا غيرِه(١).

٦- اقتَصَر إخوةُ يوسفَ على جوابِ خوفِ يعقوبَ عليه السَّلامُ مِن أكلِ الذِّئبِ بقولِهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾؛ لأنَّه السَّببُ القويُّ في المنعِ، دونَ الحزنِ؛ لِقِصَرِ مُدَّتِه، بناءً على أنَّهم يأتون به عن قريبٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ سَوْقَ القِصَّةِ يَستدعي تَساؤُلَ السَّامعِ عمَّا جَرى بعدَ إشارةِ أخيهم عليهم، وهل رجَعوا عمَّا بيَّتوا، وصمَّموا على ما أشار به أخوهم(٣).

- قولُه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ فيه الخطابُ بنَسَبِ الأُبوَّةِ؛ تحريكًا لِسلسلةِ النَّسَبِ بينَه وبينَهم، وتذكيرًا لِرابطةِ الأُخوَّةِ بينَهم وبينَ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيَتَسبَّبوا بذلك إلى استنزالِه عليه السَّلامُ عن رأيِه في حِفْظِه منهم، لَمَّا أحَسَّ منهم بأماراتِ الحسَدِ والبغيِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ الاستفهامُ في ﴿مَا لَكَ﴾ مُستعمَلٌ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).

في الإنكارِ على نفْيِ الائتمانِ(١).

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُ﴾ على المبتَدَأِ ﴿لَنَاصِحُونَ﴾؛ للقَصْرِ الادِّعائيِّ؛ جعَلوا أنفُسَهم لِفَرْطِ عِنايتِهم به بمَنزِلةِ مَن لا يَحفَظُ غيرَه، ولا يَنصَحُ غيرَه(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فيه التَّأكيدُ بإيرادِ الجملةِ اسميَّةً، وتَحليتِها بـ (إنَّ) واللَّامِ، وإسنادُ الحفظِ إلى كلِّهم، وتقديمُ ﴿لَهُ﴾ على الخبَرِ؛ احتِيالًا في تَحصيلِ مَقصِدِهم(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ فيه التَّأكيدُ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛ لِقَطعِ إلحاحِهم بتَحقيقِ أنَّ حُزنَه لِفراقِه ثابتٌ؛ تَنزيلًا لهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ ذلك، إذ رأى إلحاحَهم(٤).

- قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ خصَّ الذِّئبَ؛ لأنَّه كان السَّبُعَ الغالِبَ على قُطْرِه، أو لصِغَرِ يُوسُفَ؛ فخاف عليه هذا السَّبُعَ الحقيرَ(٥).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ فيه التَّأكيدُ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿لَئِنْ﴾، و(إنَّ) ولامِ الابتداءِ، و(إذًا) الجوابيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٦).

في ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾؛ تحقيقًا لِحُصولِ خُسرانِهم على تقديرِ حُصولِ الشَّرطِ، والمرادُ: الكنايةُ عن عدَمِ تَفريطِهم فيه، وعن حِفظِهم إيَّاه؛ لأنَّ المرء لا يَرضى أن يوصَفَ بالخُسرانِ(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٢).

الآيات (١٥-١٨)

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ
هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَأَجْمَعُوا﴾: أي: عَزَموا، وصمَّموا، يقالُ: أجْمَعتُ على كذا، بمعنَى: عزمتُ عليه، وأجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصلُ (جمع): يدلُّ على تضامِّ الشيءِ[١].

﴿نَسْتَبِقُ﴾: أي: يسابقُ بعضُنا بعضًا في الرَّمْيِ، وقيل: نشتدُّ ونَعْدو؛ ليتبيَّنَ أيُّنا أسرعُ عَدْوًا، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ، وأصلُ (السبق): التقدُّمُ في السيرِ[٢].

﴿سَوَّلَتْ﴾: أي: زيَّنَت وسَهَّلَت، والتَّسويلُ: تفعيلٌ مِن (السُّول)، وهو أمنيَّةُ الإنسانِ يتمنَّاها، فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ وغَيرَه مِن غرورِ الدُّنيا[٣].

---

[١] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣).

[٢] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١).

[٣] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ٢٣٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا ذهبَ إخوةُ يوسُفَ به، وأجمَعوا على إلقائِه في جَوفِ البِئرِ، فعَلوا به ما فعلوا من الأذى، ونفَّذوا ما يُريدونَ تنفيذَه بدونِ رَحمةٍ أو شفَقةٍ، وأوحَينا إلى يوسُفَ لتُخبِرَنَّ إخوتَك مُستقبَلًا بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه بك، وهم لا يَعلَمونَ أنَّك أخوهم يوسُفُ، وجاء إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم في وقتِ العِشاءِ يَبكونَ، ويُظهِرونَ الأسفَ والجَزعَ، قالوا: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ، وترَكْنا يوسُفَ عند زادِنا وثيابِنا فأكَلَه الذِّئبُ، وما أنت بمُقِرٍّ ومُصَدِّقٍ لنا ولو كنَّا موصوفينَ بالصِّدقِ؛ لتُهمتِكَ لنا، وجاؤوا بقميصِه مُلطَّخًا بدَمٍ غيرِ دَمِ يوسُفَ؛ ليشهَدَ على صِدقِهم، فكان دليلًا على كَذِبِهم، فقال لهم أبوهم يعقوبُ عليه السَّلامُ: ما الأمرُ كما تقولونَ، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم الأمَّارةُ بالسُّوءِ أمرًا قبيحًا في يوسُفَ، فرأيتُموه حسَنًا وفعَلتُموه، فصبري صبرٌ جميلٌ لا شكوى معه لأحدٍ مِن الخَلقِ، وأستعينُ باللهِ على احتمالِ ما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ، لا على حَولي وقوَّتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

أي: فلما ذهب إخوةُ يوسُفَ به من عندِ أبيه، وأجمعوا رأيَهم وعزَموا على أن يُلقوه في قَعرِ البئرِ، قاموا بفعلِ ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤).

قال ابن عاشور: (جوابُ «لَمَّا» محذوفٌ دلَّ عليه ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾، التقديرُ: جعلوه في الجُبِّ، ومِثلُه كثيرٌ في القرآن، وهو من الإيجازِ الخاصِّ بالقرآن، فهو تقليلٌ في =

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي: وأوحَينا إلى يوسُفَ لتُخبِرَنَّهم بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه بك، وهم في حالٍ لا يعلمونَ فيها أنَّك أخوهم يوسُفُ⁽¹⁾.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ- بعدما ألقَوه في غيابةِ الجُبِّ- أباهم يعقوبَ في ظُلمةِ اللَّيلِ يتباكَونَ على يوسُفَ⁽²⁾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾.

أي: قالوا مُعتَذرينَ كَذِبًا لأبيهم: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ⁽³⁾، وترَكْنا يوسُفَ عند

= اللَّفظِ لظهورِ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٨)، وقيل غير ذلك، يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٤).

قال الشَّوكاني: (وجُملَة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ أي: لا يَشعُرون بأنَّك أخوهُم يُوسُف؛ لاعْتِقادِهم هَلاكَك بإلْقائِهم لك في غَيابَة الجُبِّ، ولِبُعْدِ عَهْدِهم بك، ولِكَونِك قد صِرْتَ عند ذلك في حالٍ غير ما كُنتَ عليه، وخِلاف ما عَهِدُوه منك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٩١).

(٣) قال السعدي: (إمَّا على الأقدام، أو بالرمي والنضالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال الواحدي: (قال أكثرُ المفسِّرين: يسابِقُ بعضُنا بعضًا في الرمي؛ ليَتبيَّنَ أيُّنا أسبقُ سهمًا). ((الوسيط)) (٢/ ٦٠٣).

أمتِعَتِنا، فأكَلَه الذِّئبُ، ونحن غائبونَ عنه(١).

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: وما أنت بمُقِرٍّ ومُصَدِّقٍ لقَولِنا هذا، ولو كنَّا عندَكَ مِن أهلِ الصدقِ؛ لسوءِ ظَنِّكَ بنا، وتُهمتِكَ لنا(٢).

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

أي: وأتَوا بقَميصِ يوسُفَ مُتلَطِّخًا بدَمٍ مكذوبٍ، يزعُمونَ أنَّه دمُ يوسُفَ حين أكَلَه الذِّئبُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٢١، ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وَقِيلَ: معْنَى ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: إنَّا وإن كنَّا صادِقِينَ فإنَّك لا تصدِّقُنا؛ لأنَّه لم تظهرْ عندَكَ أمارَةٌ تدلُّ على صِدْقِنا. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥، ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال القرطبي: (أجمعوا على أنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ استدَلَّ على كَذِبِهم بصِحَّةِ القَميصِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٠).

وقال ابنُ كَثير: (﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مَكذُوب مُفْتَرَى. وهذا مِن الأفعال التي يُؤَكِّدُون بها ما تَمالَئوا عليه مِن المَكيدَة، وهو أنَّهم عَمَدوا إلى سَخْلَةٍ- فيما ذَكَرَه مُجاهِد، والسُّدِّيُّ، وغَيرُ واحِدٍ- فذَبَحوها، ولَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُف بِدَمِها، مُوهِمِين أنَّ هذا قَميصُه الذي أَكَلَه فيه الذِّئبُ، وقد أصابَه مِن دَمِهِ، ولكنَّهم نَسوا أن يَخرِقوه، فلهذا لم يَرُجْ هذا الصَّنيع على نَبِيِّ الله يَعقوب). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

أي: قال يعقوبُ مُكَذِّبًا لأولادِه فيما زعَموا مِن أكلِ الذِّئبِ ليوسُفَ: ليس الأمرُ كما ادَّعيتُم، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم أمرًا في شأنِ يوسُفَ غيرَ ما تَصِفونَ(١).

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

أي: فصَبري على ما فعَلْتُم بيوسُفَ صبرٌ جَميلٌ، لا جزعَ فيه، ولا شكوَى إلى الخَلقِ(٢).

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

أي: وباللهِ أستعينُ على ما تذكُرونَ مِن الكَذِبِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥).

قال ابن عاشور: (وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ عَطفٌ على جملةِ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فتكونُ محتَمِلةً للمعنيَينِ المذكورَينِ، مِن إنشاءِ الاستعانةِ، أو الإخبارِ بحُصولِ استعانته بالله على تحَمُّلِ الصَّبرِ على ذلك، أو أراد الاستعانةَ بالله ليوسُفَ عليه السَّلامُ على الخَلاصِ مِمَّا أحاط به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٠).

وقال السمين الحلبي: (وقد كثُر ذِكرُ «الوصفِ» بمعنَى الكذبِ). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٣١٧).

لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الحذَرُ مِن شُؤمِ الذُّنوبِ، وأنَّ الذَّنبَ الواحِدَ يستَتبِعُ ذنوبًا متعدِّدةً، ولا يتِمُّ لفاعِلِه إلَّا بعدَّةِ جرائِمَ؛ فإخوةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا أرادوا التَّفريقَ بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواعٍ مِن الحِيَلِ، وكذَبوا عدَّةَ مرَّاتٍ، وزوَّروا على أبيهم في القَميصِ والدَّمِ الذي فيه، وفي إتيانِهم عِشاءً يَبكونَ، ولا تَستَبْعِد أنَّه قد كثر البَحْثُ فيها في تلك المدة؛ بل لَعلَّ ذلك اتَّصَل إلى أن اجْتَمَعوا بيُوسُف، وكُلَّما صار البَحْثُ، حَصَلَ مِن الإخبارِ بالكَذِبِ والافْتِراء ما حَصَل، وهذا شُؤْمُ الذَّنْبِ، وآثارُه التَّابِعَة والسَّابِقَة واللَّاحِقَة(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه أنَّ النَّظرَ إلى الغاياتِ المحبوبةِ يُهَوِّنُ المشاقَّ المُعترِضةَ في وسائِلِها، فمتى علِمَ العبدُ عاقبةَ الأمرِ، وما يَؤُولُ إليه مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، هانت عليه المشقَّةُ، وتسلَّى بالغايةِ؛ فالله تعالى أوحَى إلى يوسُفَ في هذه الحالِ المُزعِجةِ أنَّ الأمرَ سيكونُ إلى خيرٍ وسَعةٍ، وبعد هذه الإهانةِ الصادرةِ مِن إخوتِك لك، ستكونُ لك الأثَرةُ عليهم، والعاقبةُ الحميدةُ، وفي هذا من اللُّطفِ والتَّسليةِ وتخفيفِ البلاءِ ما هو مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ على العبدِ؛ ولهذا المعنى الجليلِ يُذَكِّرُ اللهُ عبادَه عند المشاقِّ والأمورِ المُزعِجة ما يترتَّبُ على ذلك من الثَّوابِ والخيرِ والطَّمعِ في فضلِه؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾(٢) [النساء: ١٠٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ المعنى أنَّ إقدامَ يعقوبَ عليه السَّلامُ على الصَّبرِ لا يُمكِنُ إلَّا بمعونةِ الله تعالى؛ لأنَّ الدَّواعيَ النَّفسانيَّةَ تدعوه إلى إظهارِ الجزَعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٢).

وهي قويَّةٌ، والدَّواعيَ الرُّوحانيَّةَ تدعوه إلى الصَّبرِ والرِّضا، فكأنَّه وقعت المحاربةُ بين الصِّنفينِ، فما لم تحصُلْ إعانةُ الله تعالى لم تحصُل الغلَبةُ، فقولُه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقولُه: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قولِه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١) [الفاتحة: ٥].

٤- العبدُ مُحتاجٌ إلى الاستعانةِ بالله في فِعلِ المأموراتِ، وفي تَركِ المحظوراتِ، وفي الصَّبرِ على المقدوراتِ، كما في قولِ يعقوبَ عليه السَّلامُ لبَنيه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(٢)، ففيه ما يَنْبغي استعمالُه عندَ المصائبِ، وهو الصبرُ الجميلُ، والاستعانةُ باللهِ، وأنَّ التكلُّمَ بذلك حسنٌ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ليس كلُّ مَن أُوحِيَ إليه الوحيَ العامَّ يكونُ نبيًّا؛ فإنَّه قد أُوحِيَ إلى يوسُفَ وهو صغيرٌ، كما أنَّه قد يُوحَى إلى غيرِ النَّاسِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(٤) [النحل: ٦٨].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ إنَّما جاؤوا عِشاءً؛ ليكونَ أقدرَ على الاعتذارِ في الظُّلمةِ؛ ولذا قيل: لا تَطلُبِ الحاجةَ باللَّيلِ؛ فإنَّ الحياءَ في العينَينِ، ولا تعتَذِرْ في النَّهارِ مِن ذنبٍ؛ فتَتلجلَجَ في الاعتذارِ(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب- تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٩).

وأيضًا جاؤوا عِشاءً؛ ليكون إتيانُهم مُتَأَخِّرًا عن عادَتِهم، وأتَوْا باكِين؛ ليكون بُكاؤُهم دَلِيلًا لهم، وقَرِينَةً على صِدْقِهم⁽¹⁾.

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ بُكاءَ المرءِ لا يدلُّ على صِدقِ مَقالِه؛ لاحتمالِ أن يكونَ تصنُّعًا، فمِن الخَلقِ مَن يقدِرُ على ذلك، ومنهم من لا يقدِرُ⁽²⁾، فمِن فوائدِ الآيةِ عدمُ الاغترارِ ببكاءِ الخصمِ، وعدمُ الاغترارِ بزخرفِ القولِ⁽³⁾.

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ فيه مشروعيَّةُ المُسابَقةِ⁽⁴⁾.

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ فيه من الطِّبِّ: رياضةُ النَّفسِ والدوابِّ، وتمرينُ الأعضاءِ على التصرُّفِ⁽⁵⁾.

٦- قولُهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تلطُّفٌ عَظيمٌ في تقريرِ ما يُحاوِلونَه؛ يقولون: ونحن نعلمُ أنَّك لا تصَدِّقُنا- والحالةُ هذه- لو كُنَّا عندك صادقينَ، فكيف وأنت تتَّهِمُنا في ذلك؛ لأنَّك خَشيتَ أن يأكُلَه الذِّئبُ فأكَلَه الذِّئبُ، فأنت معذورٌ في تكذيبِك لنا؛ لِغَرابةِ ما وقع، وعجيبِ ما اتَّفقَ لنا في أمْرِنا هذا⁽⁶⁾.

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فيه إعمالُ الأماراتِ والحُكمُ بها، والآيةُ أصلٌ في الحُكمِ بالقرائِنِ، لكنْ محَلُّ العمَلِ بالقَرينةِ ما لم تُعارِضْها قرينةٌ أقوى منها، فإن عارَضَتْها

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب- تفسير آيات من القرآن الكريم)) (٥/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١٥٣، ١٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٥).

قرينةٌ أقوى منها أبطَلَتْها؛ فأولادُ يعقوبَ لَمَّا جعلوا يوسُفَ في غيابةِ الجُبِّ، جعلوا على قَميصِه دَمًا؛ ليكونَ وجودُ الدَّمِ على قميصِه قَرينةً على صِدقِهم في دعواهم أنَّه أكَلَه الذِّئبُ، ولا شَكَّ أنَّ الدَّمَ قرينةٌ على افتِراسِ الذِّئبِ له، ولكِنَّ يعقوبَ أبطَلَ قَرينتَهم هذه بقرينةٍ أقوى منها، وهي عدَمُ شَقِّ القَميصِ؛ ولذا صَرَّحَ بتكذيبِه لهم في قَولِه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فيجِبُ على النَّاظِرِ أن يلحَظَ القرائِنَ والأماراتِ والعَلاماتِ إذا تعارَضَت، فما ترجَّحَ منها قضَى بجانِبِ التَّرجيحِ(١).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فيه أنَّ سُوءَ الظَّنِّ مع وجودِ القَرائِنِ الدَّالَّةِ عليه غيرُ ممنوعٍ ولا محَرَّمٍ(٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ إنَّما لم يصَدِّقْ يعقوبُ بنيه حين قالوا: أكَلَه الذِّئبُ، وعَمِلوا تلك القرائِنَ المُبَرِّرة لقولِهم؛ لأنَّ المعلومَ لا يُعارِضُه الشَّكُّ والوَهمُ، فإنَّه قد علِم برؤيا يوسُفَ- وربَّما بغيرِها- ما يَؤولُ إليه حالُ يوسُفَ؛ مِن تمامِ النِّعمةِ التي تشمَلُه وتشمَلُ آلَ يعقوبَ(٣).

١٠- في قولِه تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أنَّه لا ينبغي أن يُغتَرَّ بمُجرَّدِ صُورةِ القرائنِ، فكم حصلَ بمثل هذه التَّمويهاتِ مِن الاغترارِ وقلبِ الحقائقِ؛ لهذا كان الأذكياءُ يجعلونَ كلَّ احتمالٍ على بالهم، وينظُرونَ إلى الأمورِ مِن جميعِ جِهاتِها ونواحيها(١).

١١- قال الله تعالى حكايةً عن يعقوبَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، إنما فوَّض يعقوبُ- عليه السلام- الأمرَ إلى الله، ولم يسْعَ للكشفِ عن مصيرِ يوسفَ عليه السلامُ؛ لأنَّه علِم تعذرَ ذلك عليه؛ لكبرِ سنِّه، ولأنَّه لا عضدَ له يستعينُ به على أبنائِه أولئك، وقد صاروا هم الساعين في البعدِ بينَه وبينَ يوسفَ عليه السلامُ، فأيس مِن استطاعةِ الكشفِ عن يوسفَ- عليه السلامُ- بدونِهم، ألا ترَى أنَّه لما وجَد منهم فرصةً قال لهم: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾(٢) [يوسف: ٨٧].

١٢- في قولِه تعالى عن يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ مع قَولِه سُبحانه عنه: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسُف: ٨٦] أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ لا تُنافي الصَّبرَ الجميلَ(٣).

١٣- ذكَرَ اللهُ في القرآن: الصَّبرَ الجَميلَ، والصَّفحَ الجَميلَ، والهَجرَ الجَميلَ؛ فالصَّبرُ الجَميلُ: الذي لا شكوَى معه إلى المخلوقِ، والهَجرُ الجَميلُ: الذي لا أذى معه، والصَّفحُ الجَميلُ: الذي لا عِتابَ معه(٤).

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

(٤) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- تفريعُ حكايةِ الذَّهابِ به، والعَزمِ على إلْقائِه في الجُبِّ، على حِكايةِ المحاوَرةِ بينَ يعقوبَ عليه السَّلامُ وبَنيه في مُحاوَلةِ الخروجِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ إلى الباديةِ، يُؤذِنُ بجُمَلٍ محذوفةٍ، فيها ذِكرُ أنَّهم ألَحُّوا على يعقوبَ عليه السَّلامُ حتَّى أقنَعوه، فأذِن ليوسُفَ عليه السَّلامُ بالخروجِ معَهم، وهو إيجازٌ⁽¹⁾.

- وجملةُ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، وأُكِّدت باللَّامِ ونونِ التَّوكيدِ؛ لتحقيقِ مَضمونِها، سواءٌ كان المرادُ منها الإخبارَ عن المستقبَلِ، أو الأمرَ في الحالِ⁽²⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾

- قولُهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ خبَرٌ مستعمَلٌ في لازِمِ الفائدةِ، أي: إنَّ المتكلِّمَ عَلِم بمَضمونِ الخبَرِ، وهو تعريضٌ بأنَّهم صادِقون فيما ادَّعَوْه؛ لأنَّهم يَعلَمون أباهم لا يُصدِّقُهم فيه، فلم يَكونوا طامِعين بتَصْديقِه إيَّاهم⁽³⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وُصِفَ الدَّمُ بالكذبِ مُبالَغةً، كأنَّه نفسُ الكَذِبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٣٧).

وعَينُه، كما يُقالُ للكذَّابِ: هو الكَذِبُ بعَينِه، والزُّورُ بذاتِه(١)، أو معناه (ذِي كَذِبٍ)(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ التَّعبيرُ بحرفِ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ يُفيدُ إبطالَ دَعْواهم أنَّ الذِّئبَ أكَلَه؛ فقد صَرَّح لهم بكَذِبِهم(٣).

- وتنكيرُ ﴿أَمْرًا﴾ للتَّهويلِ(٤).

- وقولُه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ نائبٌ مَنابَ: اصْبِرْ صبرًا جَميلًا، وعُدِل به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ(٥).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عمَّا أصاب يوسُفَ عليه السَّلامُ بـ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وهو في غايةِ البلاغةِ؛ لأنَّه كان واثِقًا بأنَّهم كاذِبون في الصِّفةِ، وواثِقًا بأنَّهم ألحَقوا بيوسُفَ عليه السَّلامُ ضُرًّا، فلمَّا لم يتَعيَّنْ عِندَه المُصابُ أجْمَل التَّعبيرَ عنه إجمالًا مُوجَّهًا؛ لأنَّهم يَحسَبون أنَّ ما يَصِفونه هو موتُه بأكْلِ الذِّئبِ إيَّاه، ويعقوبُ عليه السَّلامُ يُريدُ أنَّ ما يَصِفونه هو المصابُ الواقِعُ، الَّذي وصَفوه وصْفًا كاذِبًا(٦).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٤٠).

الآيات (١٩-٢١)

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ (١٩) وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٢١) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَارِدَهُمْ﴾: الذي يتقدَّمُهم إلى الماءِ ليَستقيَ لهم، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ(١).

﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾: أي: أرسَلَها، والدَّلوُ: إناءٌ معروفٌ يُوضَعُ فيه الماءُ، وأصلُ (دلى): يدُلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولةٍ ورِفقٍ(٢).

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: أي: أخفَوه، وأصلُ (سرَّ): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ(٣).

﴿بِضَاعَةً﴾: البِضاعةُ: القِطعةُ مِن المالِ تُجعَلُ للتِّجارةِ؛ مِن: بَضَعتُ الشَّيءَ: إذا قَطَعْتَه، وأصل (بضع): يدلُّ على الطَّائفةِ مِن الشَّيءِ عُضوًا أو غيرَه(٤).

﴿وَشَرَوْهُ﴾: أي: باعُوه، يُقالُ: شَرَيتُ الشَّيءَ: إذا بِعتَه وإذا اشتَرَيتَه، فهو مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

الأضدادِ، وهو بمعنَى (بعثُ) أكثرُ[١].

﴿بَخْسٍ﴾: أي: ناقصٍ، وقيل: ﴿بَخْسٍ﴾: بمعنى مَبْخُوس أي: منقوصٍ، والبَخْسُ والبَاخِسُ: الشيء الطفيف الناقص، يُقَال: بخسه حَقَّه إِذا نقَصه، وأصلُ البخس: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلم[٢].

﴿مَثْوَاهُ﴾: أي: منزلَه ومقامَه، وأصلُ (ثوي): إقامة[٣].

المعنى الإجماليّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عمَّا جرَى ليوسفَ عليه السَّلامُ بعدَ إلقاءِ إخوتِه له في الجُبِّ: وجاءت جماعةٌ مِن المُسافرينَ فأرسَلوا مَن يطلُبُ لهم الماءَ، فلمَّا أرسَلَ دَلْوَه في البئرِ تعلَّقَ بها يوسُف، فقال ذلك الوارِدُ: يا بُشرايَ هذا غلامٌ نَفيسٌ، وأخفَى السيارةُ أمرَ يوسُفَ، وجعَلوه بضاعةً وعزَموا على بيعِه، واللهُ عليمٌ بما يَعمَلونَه بيوسُفَ، وباعه السيارةُ بثَمَنٍ قليلٍ مِن الدَّراهم، وكانوا زاهدينَ فيه، راغبينَ في التخَلُّصِ منه، ولَمَّا ذهب المُسافِرونَ بيوسُفَ إلى «مصر» اشتَراه منهم عزيزُها- وهو الوزيرُ- وقال لامرأتِه: أحسِني مُعامَلتَه، واجعلي مَقامَه عندنا كريمًا؛ لعلَّنا نستفيدُ مِن خِدمتِه، أو نُقيمُه عندنا مقامَ الولَدِ.

وكما أنجَينا يوسُفَ مِن الجُبِّ، وجَعَلْنا عزيزَ «مصر» يَعطِفُ عليه، فكذلك مكَّنَّا له في أرضِ «مِصرَ»، وجعَلْناه على خزائِنِها، ولِنُعَلِّمَه تفسيرَ الرُّؤى، ومعاني

---

[١] يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

[٢] يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١).

[٣] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٣).

كتُبِ الله وسُنَن الأنبياءِ، واللهُ غالِبٌ على أمرِه، فحُكمُه نافِذٌ لا يُبطِلُه مُبطِلٌ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ الأمرَ كُلَّه بيَدِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أراد اللهُ تعالى خَلاصَ يوسُفَ عليه السَّلامُ من الجُبِّ، بيَّنَ سَبَبه بقَولِه تعالى[1]:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾.

أي: وجاءت جَماعةٌ مارَّةٌ في الطَّريقِ مِن المُسافرينَ، فأرسلوا مُقدَّمَهم الَّذي يَرِدُ الماءَ ليَسْتَقيَ لهم، فأرسلَ دَلوَه في البئرِ ليَملأَها، فتعلَّقَ يوسُفُ بالدَّلوِ وخرَج[2].

﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾.

أي: قال واردُهم حين رأى يوسُفَ: أبْشِروا، هذا غُلامٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال ابنُ جرير: (وفي الكلامِ محذوفٌ، استُغْني بدلالةِ ما ذُكِر عليه، فتُرِك، وذلك: ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ فتعلَّق به يُوسفُ، فخرَج، فقال المدْلي: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال أبو حيان: (والَّذي يظهرُ مِن سياقِ الأخبارِ والقصصِ أنَّ يوسفَ كان صغيرًا، فقيل: كان عُمُرُه إذْ ذاك سبعَ سِنِينَ. وقيل: سِتٌّ، قاله الضَّحَّاكُ... ويدلُّ على أنَّه كان صغيرًا بحيثُ لا يدفعُ عن نفسِه قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ و: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وأخذُ =

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾.

أي: وأخفَى السيارةُ[١] أمْرَ يوسُفَ، وجعَلوه بِضاعةً مِن جُملةِ تجارتِهم، وعزَمُوا على بيعِه[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يعمَلُون بيوسُفَ[٣]، ولكِنَّه ترَكَ تغييرَ ذلك؛ ليَمضيَ فيه

= السَّيَّارةِ له، وقولُ الواردِ: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، وقولُ العزيزِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾. ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤٩).

[١] وممن اختار أن السيارةَ هم الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: ابنُ جزي، وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٢).

وقيل: إنَّ الذين أسرُّوا يوسفَ بضاعةً: هم الواردُ ومَن كان معه؛ ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٣).

وقيل: إنَّ إخوتَه هم الذين أسرُّوا أمرَه وباعوه، وقالوا: هو بضاعةٌ لنا. يُنظر: ((تفسير ابن الحوزي)) (٢/ ٤٢٢).

[٢] يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٢).

ومعنَى أسرُّوه: أخفَوه مِن الرُّفقةِ، أو كتَموا أمرَه مِن وجدانِهم له فِي الجُبِّ، وقالوا: دفَعه إلينا أهلُ الماءِ لِنبيعَه لهم بمصرَ. ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٢).

وقيل: إنَّهم أسرُّوا في أنفسِهم يتَّخِذونه بضاعةً لأنفسِهم أي متجرًا، ولم يخافوا مِن أهلِ الرفقةِ شيئًا. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٩).

[٣] قال ابن عطية: (قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ إن كانت الضمائرُ لإخوةِ يوسفَ ففي ذلك توعدٌ، وإن كانت الضمائرُ للواردينَ ففي ذلك تنبيهٌ على إرادةِ الله تعالى ليوسفَ. وسوقِ الأقدارِ بحسبِ بناءِ حالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٢٩).

وقيل: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يعمَلُه هَؤُلَاءِ السَّيَّارَةُ، وما يعملُه إخوةُ يُوسُف. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ يعمُّ الباعةَ والمشترينَ ليوسفَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٢).

وفيهم قَدَرُه السَّابِقُ في عِلمِه، وذلك بحسَبِ ما اقتضَتْه حِكمتُه سُبحانَه(١).

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾.

أي: وباع السيارةُ يوسُفَ بثَمَنٍ منقوصٍ؛ دراهِمَ قليلةٍ مَعدودةٍ غيرِ وافيةٍ(٢).

﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾.

وكان السيارةُ في يوسُف مِن الرَّاغبينَ عنه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٦).

قال القنوجي: (﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يترتَّبُ على عملِهم القبيحِ بحسبِ الظاهرِ مِن الأسرارِ والفوائدِ المنطويةِ تحتَ باطنِه، فإنَّ هذا البلاءَ الذي فعلوه به كان سببًا لوصولِه إلى مصرَ، وتنقُّلِه في أطوارٍ حتى صار ملكَها، فرحِم الله به العبادَ والبلادَ خصوصًا في سِني القحطِ الذي وقَع بها). ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٠٣).

(٢) ممن اختار أنَّ الذين باعوا يوسفَ هم السيارةُ: ابنُ جزي، وأبو حيانَ، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٣، ٢٤٤).

وممن قال بهذا القولِ من السلف: قتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٢).

وقيل: إنَّ الذين باعوا يوسفَ هم إخوتُه، وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُّ - ونسبه لأكثرِ المفسرينَ -، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولما استشْعَر إخوةُ يوسفَ بأخذِ السيارةِ له، لحقوهم، وقالوا: هذا غلامُنا أبق منَّا، فاشْتَروه منهم بثمنٍ بخسٍ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٢٣٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٣) وممن اختار هذا القولَ المذكور: البقاعي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾.

أي: وقال الذي اشترى يوسُفَ مِن بائِعِه بمصرَ لامرأتِه: أكرمي مَنزِلَه ومُقامَه عِندَك(١).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

أي: عسى أن يَكفيَنا يوسُفُ بعضَ أمورِنا، أو نجعلَه ولدًا لنا بالتبنِّي(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

= البقاعي)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

قيل: كانوا فيه مِن الزَّاهدينَ؛ لأنَّهم يُريدون التخلُّصَ مِن تُهمةِ استرقاقِه وبيعِه. يُنظر ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٧٧).

وقيل: لقلةِ معرفتِهم بالأسعارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

قال البقاعي: (﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي: كمال الزهدِ حتَّى رغِبوا عنه، فباعوه بما طفَّ. والزُّهدُ: انصرافُ الرغبةِ عن الشيءِ إلى ما هو خيرٌ مِنه عندَ الزاهدِ، وهذا يعيِّنُ أنَّ الضميرَ للسيارةِ؛ لأنَّ حالَ إخوتِه في أمرِه فوقَ الزهدِ بمراحلَ، فلو كان لهم لقيل: وكانوا له مِن المعدينَ أو المبغضينَ، ونحوَ ذلك). ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ٤٧).

وممن اختار أنَّ إخوةَ يوسفَ هم الذين كانوا فيه من الزاهدين: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: الضحَّاك، وابنُ جريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

أي: وكما أنقَذْنا يوسُفَ مِن إخوتِه، وأخرَجْناه مِن الجُبِّ، وصيَّرناه إلى الكَرامةِ والمَنزلةِ الرَّفيعةِ عندَ عزيزِ مِصرَ، كذلك مكَّنَّا له في أرضِ مِصرَ، حتى بلغ فيها ما بلغَ(١).

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾.

أي: ولنُعلِّمَ يوسُفَ مِن تعبيرِ الرُّؤى- التي يراها النَّاسُ في منامِهم- ومعاني كتُبِ الله، وسُنَنِ الأنبياءِ، مكَّنَّا له في الأرضِ(٢).

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

قال ابن عاشور: (التَّمكينُ في الأرضِ هنا مرادٌ به ابتداؤه وتقديرُ أوَّلِ أجزائِه، فيوسُفُ عليه السَّلامُ بحُلولِهِ محلَّ العنايةِ مِن عزيزِ مِصرَ قد خُطَّ له مُستقبَلُ تمكينِه من الأرضِ، بالوجهِ الأتمِّ الذي أُشيرَ له بقولِه تعالى بعدُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، فما ذُكِرَ هنالك هو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ ممَّا هنا، وهو تمامُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣).

ممن جمَع بينَ معنيي ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ بنحوِ المعنى المختارِ: الشوكانيُّ، والسعدي والشنقيطي، وأجاز الزجاج المعنيين. تنظر: المصادر السابقة.

وممن اقتصر في قوله تعالى: ﴿تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ على معنى تعبيرِ الرُّؤيا: ابنُ جريرٍ، والقرطبي وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو عِلَّةٌ لِمُعَلَّلٍ محذوفٍ، كأنَّه قيلَ: فعلْنا ذلك التَّمكينَ ﴿لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أوْ كانَ ذلك الإنجاءُ لهذه الْعِلَّةِ، أوْ معطوفٌ على مُقَدَّرٍ، وهو أنْ يُقالَ: مَكَنَّا ليوسفَ ليترتَّبَ على ذلك ما يَتَرَتَّبُ مِمَّا جرَى بينَه وبينَ امرأةِ العزيزِ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧).

أي: واللهُ غالِبٌ على أمرِه سبحانَه(١)، يفعَلُ ما يشاءُ، فلا يُرَدُّ أمرُه ولا يُمانَعُ، ولا يُنازَعُ فيما أرادَه(٢)، ومِنْ ذلك ما يتعلَّقُ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مِنَ الأمورِ الَّتي أرادَها اللَّهُ سبحانَه في شأنِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ أنَّ اللهَ غالِبٌ على أمرِه، وأنَّ تدبيرَ الأمورِ بيَدِه، ولا يَدرُونَ حِكمَتَه في خَلقِه، وتلَطُّفَه لِما أراد سُبحانَه(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا

---

(١) ممن اختار أن الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿أَمْرِهِ﴾ يعودُ إلى الله تعالى: القرطبي، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠- ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

وقيل: يعودُ الضَّميرُ إلى يوسفَ عليه السَّلامُ، أي: اللهُ غالبٌ على أمر يوسُفَ، يدَبِّرُه ويحوطُه، ولا يكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كيدُ كائدٍ. وممن اختار هذا: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٥).

قال ابنُ الجَوزي: (﴿وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ في هاء الكِنايةِ قَولان: أحدُهما: أنَّها تَرجِعُ إلى الله تعالى، فالمعنى: أنَّه غالِب على ما أراد مِن قَضائِه، وهذا معنى قَول ابنِ عَبَّاس. والثَّاني: أنَّها تَرجِع إلى يُوسُف، فالمعنى: غالِب على أمرِ يُوسُفَ حتَّى يُبَلِّغَه ما أرادَه له، وهذا معنى قَولِ مُقاتِل). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٤)، ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ هذا وإن كان خبرًا مِن اللهِ- تعالى ذِكرُه- عن يوسُفَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّه تذكيرٌ مِن اللهِ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليةٌ منه له عمَّا كان يَلقَى مِن أقربائِه وأنسبائِه المُشرِكينَ مِن الأذى فيه، يقولُ له: فاصبِرْ يا محمَّدُ على ما نالَك في الله؛ فإنِّي قادرٌ على تغييرِ ما ينالُك به هؤلاء المُشرِكونَ، كما كنتُ قادرًا على تغييرِ ما لَقِيَ يوسُفُ مِن إخوتِه في حالِ ما كانوا يفعَلونَ به ما فَعَلوا، ولم يكُنْ تَركي ذلك لهوانِ يوسُفَ عليَّ، ولكِنْ لماضي عِلمي فيه وفي إخوتِه، فكذلك تَرْكي تغييرَ ما ينالُك به هؤلاء المُشرِكونَ؛ لِغيرِ هوانٍ بك عليَّ، ولكِنْ لسابقِ عِلمي فيك وفيهم، ثمَّ يصيرُ أمرُك وأمرُهم إلى علُوِّك عليهم، وإذعانِهم لك، كما صار أمرُ إخوةِ يوسُفَ إلى الإذعانِ ليوسُفَ بالسُّؤدَدِ عليهم، وعلُوِّ يوسُفَ عليهم⁽¹⁾.

٢- من بُلِيَ وهو من أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ بشَيءٍ مِن الأذى والمكرِ، فليتَّقِ اللهَ ويستعِنْ به ويصبِرْ؛ فإنَّ العاقبةَ للتَّقوى، كما قال تعالى بعد أن قَصَّ قِصَّةَ يوسُفَ وما حصل له من أنواعِ الأذى بالمَكرِ والمُخادعة: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، وقال تعالى حكايةً عنه أنَّه قال لإخوتِه: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسُف: ٩٠] الآية. وقال تعالى في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ وما حصلَ له ولقَومِه مِن أذى فرعونَ وكيدِه، قال لقَومِه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقد أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ المكرَ يعودُ وَبالُه على صاحِبِه، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا...﴾ الآية [الأنعام: ١٢٣]. والواقعُ يشهَدُ بذلك؛ فإنَّ مَن سَبَرَ أخبارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٠) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٦).

النَّاسِ، وتواريخَ العالَمِ، وقَفَ من أخبارِ مَن مكَرَ بأخيه فعاد مَكرُه عليه، وكان ذلك سببًا لنَجاتِه وسَلامتِه، على العجَبِ العُجابِ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ...﴾ استنبط الناسُ مِن هذه الآيةِ أحكامَ اللقيطِ؛ فأخذوا منها: أنَّ اللقيطَ يُؤخَذُ ولا يُترَكُ. ومِن قولِه: ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾ أنَّه كان صغيرًا، وأنَّ الالتقاطَ خاصٌّ به، فلا يُلتقَطُ الكبيرُ، وكذا قولُه: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾؛ لأنَّ ذلك أمرٌ يختصُّ بالصغارِ، ومِن قولِه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أنَّ اللقيطَ يُحكَمُ بحريتِه(٢)، وموضعُ الحجةِ مِن الآيةِ أنَّ اللقيطَ لو كان مملوكًا لمن التقطه، لما احْتاجُوا إلى شرائِه(٣)، وهذا على القولِ بأنَّ الذين باعوه إنَّما هم إخوتُه.

٢- مِنْ عَجائبِ الجَزاءِ في الدُّنْيا أنَّه لَمَّا امتدَّتْ أَيْدِي الظُّلمِ مِن إخْوَةِ يُوسفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ امتدَّتْ أَكُفُّهُم بين يَدَيْه بالطَّلَبِ يقولُونَ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾(٤) [يوسف: ٨٨].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فيه أنَّ الشَّيءَ إذا تداوَلَته الأيدي، وصار مِن جُملةِ الأموالِ، ولم يُعلَمْ أنَّه كان على غيرِ وَجهِ الشَّرعِ، أنَّه لا إثمَ على مَن باشَرَه ببيعٍ أو شِراءٍ، أو خِدمةٍ أو انتفاعٍ أو استعمالٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المقدمات الممهدات)) لابن رشد الجد (٢/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ لم يبيِّن القُرآنُ اسمَ الذي اشتَراه مِن السَّيَّارةِ في مصر ولا مَنصِبَه ولا اسمَ امرأتِه؛ لأنَّ القُرآنَ ليس كتابَ حَوادِثَ وتاريخٍ، وإنَّما قَصَصُه حِكَمٌ ومواعِظُ، وعِبَرٌ وتهذيبٌ(١).

٥- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أفرس الناس ثلاثة: العزيز، حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وبنت شعيب التي قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر، حين تفرَّس في عمر رضي الله عنها وولاه من بعده)(٢).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكْرَ إدلاءِ الدَّلْوِ يُهيِّئُ السَّامِعَ للسُّؤالِ عمَّا جَرى حينَئذٍ فيَقَعُ جوابُه: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾(٣).

- قولُه: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾ هذا النداءُ تنبيهٌ للمخاطبينَ وتوكيدٌ للقصةِ ؛ لأنَّ البشرَى لا تُجيبُ ولا تعقلُ، والمعنَى: أبْشِروا، ويا أيُّها البشرَى هذا مِن أوانِك، وقيل: إنَّ هذه الكلمةَ تُستعملُ للتبشيرِ مِن غيرِ قصدٍ إلى النداءِ(٤).

- قولُه: ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي: غيرِ موزونةٍ؛ فهو بَيانٌ لقِلَّتِه، ونُقصانِه مِقدارًا، بعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٨٢١٣) مختصرًا، والطبراني (٩/ ١٨٥) (٨٨٢٩) واللفظ له، والحاكم (٣٣٢٠) باختلاف يسير، وصححه على شرط الشيخين.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦١).

بيانِ نُقصانِه في نفسِه؛ إذِ المعتادُ فيما لا يَبلُغُ أربَعين العَدُّ دونَ الوزنِ⁽١⁾، وهو كِنايةٌ عن كَونِها قليلةً؛ لأنَّ الشَّيءَ القليلَ يَسهُلُ عَدُّه، فإذا كَثُر صار تَقديرُه بالوزنِ أو الكَيلِ، ويُقالُ في الكنايةِ عن الكَثرةِ: لا يُعَدُّ⁽٢⁾.

- قولُه: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ فيه صَوْغُ الإخبارِ عن زَهادَتِهم في يوسُفَ عليه السَّلامُ بصِيغةِ ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ وهي أشَدُّ مُبالَغةً ممَّا لو أخبَر بـ (كانوا فيه زاهِدين)؛ لأنَّ جَعْلَهم مِن فريقٍ زاهِدينَ يُنبِئُ بأنَّهم جَرَوْا في زُهدِهم في أمثالِه على سَنَنِ أمثالِهم البُسَطاءِ الَّذين لا يُقدِّرون قدْرَ نَفائسِ الأمورِ⁽٣⁾.

- وفيه تقديمُ المجرورِ: ﴿فِيهِ﴾ على عامِلِه ﴿الزَّاهِدِينَ﴾؛ للتَّنويهِ بشَأنِ المزهودِ فيه، وللتَّنبيهِ على ضَعْفِ تَوسُّمِهم وبَصَارتِهم، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ⁽٤⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ التَّمكينُ في الأرضِ هنا مرادٌ به ابتداؤه، وتقديرُ أوَّلِ أجزائِه، فيوسُفُ- عليه السَّلامُ- بحلولِه محَلَّ العِنايةِ مِن عزيزِ مِصرَ قد خُطَّ له مُستقبَلُ تَمكينِه من الأرضِ بالوجهِ الأتَمِّ الذي أُشيرَ له بقَولِه تعالى بعدُ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، فما ذُكِرَ هنالك هو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ممَّا هنا، وهو تمامُه(١).

- قولُه: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ مَثْواهُ: مَكانُ إقامَتِه، وهو كنايةٌ عن الإحسانِ إليه في مَأكَلٍ ومشرَبٍ وملبَسٍ(٢)، فالمقصودُ بإكرامِ مَثواه: إكرامُه، ولكِنَّ التَّعبيرَ أعمَقُ؛ لأنَّه يجعَلُ الإكرامَ لا لشَخصِه فحسْبُ، ولكنْ لِمكانِ إقامتِه، وهي مُبالغةٌ في الإكرامِ(٣).

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾، (ذَلِكَ) إشارةٌ إلى ما يُفهَمُ من كلامِ العزيزِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ لتَفخيمِه، أي: مِثْلَ ذلك التَّمكينِ البديعِ(٤).

- قولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ لعلَّ ترْكَ المعطوفِ عليه (وهو: ولِيَصِلَ إلى مَنصِبِ الرِّئاسةِ بسَببِ تأويلِه لرُؤيا الملِكِ)؛ للإشعارِ بعدَمِ كَونِه مُرادًا بالذَّاتِ، أو جعَلْناه عِلَّةً لِمُعلَّلٍ محذوفٍ، كأنَّه قيل: ولهذه الحكمةِ البالِغةِ فعَلْنا ذلك التَّمْكينَ دونَ غيرِها ممَّا ليس له عاقبةٌ حميدةٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٦٣).

الآيات (٢٢-٢٩)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ : أي: بلغ مُنتهَى شَبابِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأصلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ(١).

﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾: أي: أرادَتْه على ما تُريدُ، والمُراوَدة: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذهبَ، وهي عِبارةٌ عن التحَيُّلِ لِمُواقَعتِه إيَّاها(٢).

﴿هَيْتَ﴾: أي: هَلُمَّ وأقبِلْ إلى ما أدعوك إليه، يقال: هَيَّتَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

دعاه وصاح به، وأصلُ (هَيَتَ): يَدُلُّ عَلَى الصَّيحةِ(١).

﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾: الهمُّ بالشيءِ: هو حديثُ المرءِ نفسَه بمواقعتِه ما لم يُواقِعْ، أو: هو المقاربةُ مِن الفعلِ مِن غيرِ دُخولٍ فيه، والهمُّ نوعانِ: همُّ خطراتٍ وكان هذا همَّ يوسفَ عليه السلامُ، وهمُّ اصرارٍ وكان هذا همَّ المرأةِ، وأصل (همَّ): يدلُّ على ذَوْبٍ وجَريانٍ ودبيبٍ وما أشبهَ ذلك(٢).

﴿السُّوءَ﴾: السُّوءُ: القَبيحُ، وهو خيانةُ مَن ائتَمَنه، وقيل: هو مُقدِّماتُ الفاحِشَةِ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على القُبحِ(٣).

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: أي: المَعصيةَ، وهي الزِّنا، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ فِي شيءٍ وشناعةٍ(٤).

﴿وَقَدَّتْ﴾: أي: شقَّتْ، وأصلُ (قدَّ): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طولًا(٥).

﴿دُبُرٍ﴾: أي: خلفٍ، وأصلُ الدبر: آخرُ الشيءِ، وخلفُه، خلافُ قُبُلِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٧)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).

(٥) ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٠).

﴿وَأَلْفَيَا﴾: أي: وجدَا، وأصلُ (لفا): يدلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه[١].

﴿قُبُلٍ﴾: القُبُل مِن كلِّ شيءٍ: خلافُ دُبُرِه، وذلك أنَّ مُقدَّمَه يُقبِلُ على الشيءِ[٢].

﴿كَيْدِكُنَّ﴾: أي: حيلتِكنَّ، و صنيعِكنَّ، والكَيْدُ: ضربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ[٣].

المعنى الإجمالي:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى قوَّتِه في شبابِه أعطاه النُّبوَّةَ والعِلمَ، ومِثلَ هذا الجزاءِ الذي جَزَينا به يوسُفَ على إحسانِه نَجزي المُحسنينَ على إحسانِهم، ودَعَت امرأةُ العزيزِ يوسُفَ إلى نَفسِها، وغلَّقَت الأبوابَ عليها وعلى يوسُفَ، وقالت: هلمَّ إليَّ، فقال: معاذَ اللهِ! أعتَصِمُ به وأستجيرُ مِن الذي تدعِينَني إليه مِن خيانةِ سَيِّدي الذي أحسنَ مَنزِلتي وأكرَمَني، فلا أخونُه في أهلِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ مَن ظَلَمَ فَفَعل ما ليس له فِعلُه، ولقد عزَمَت امرأةُ العزيزِ على فِعلِ الفاحِشةِ، وخطرَ ليوسُفَ خاطِرٌ عارِضٌ في قَلبِه لم يَثبُتْ ولم يتحَوَّلْ إلى عَزمٍ، لولا أنْ رأى آيةً مِن آياتِ رَبِّه امتنَعَ بها عن ذلك الخاطِرِ، وإنَّما أريناه ذلك لندفَعَ عنه السُّوءَ والفاحِشةَ في جميعِ أمورِه؛ إنَّه من عبادنا المُطَهَّرينَ المُصطَفَينَ للرِّسالةِ، الذين أخلَصْتُهم من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ.

وأسرعَ يوسُفُ إلى البابِ يريدُ الخُروجَ، وأسرَعَت تُحاوِلُ الإمساكَ به،

---

[١] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

[٢] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٣).

[٣] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٤).

وجذَبَت قميصَه مِن خَلفِه؛ لتَحُولَ بينه وبين الخروجِ فشَقَّته، ووجدا زوجَها عند البابِ، فقالت: ما جزاءُ مَن أراد بامرأتِك فاحِشةً إلَّا أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ العذابَ المُوجِعَ. قال يوسُفُ: هي التي طلَبَت منِّي ذلك، فشَهِدَ شاهِدٌ مِن أهلِها فقال: إن كان قميصُه شُقَّ من الأمامِ فصَدَقَت في اتِّهامِها له، وهو مِن الكاذبينَ، وإن كان قميصُه شُقَّ من الخَلفِ فكَذَبت في قَولِها، وهو من الصَّادقينَ. فلمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خَلفِه عَلِمَ براءةَ يوسُفَ، وقال لزَوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي اتَّهمتِ به هذا الشَّابَّ هو مِن جملةِ مَكرِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- إنَّ مَكرَكُنَّ عظيمٌ، وقال ليوسُفَ: يوسُفُ، اترُكْ ذِكرَ ما كان منها، فلا تَذكُرْه لأحدٍ، واطلُبي- أيَّتُها المرأةُ- المغفرةَ لذَنبِك؛ إنَّك كنتِ من الآثمينَ في مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وفي افترائِك عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾.

أي: ولَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه وشَبابِه، واكتمل خَلقُه وعَقلُه(١)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٦، ٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).

واختُلِف في مقدارِ المدَّةِ الَّتي بَلَغ فيها أشدَّه، فقيل: ثلاثٌ وثلاثونَ، وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ونسَبه الواحديُّ لأكثرِ المفسرين. وقيل: عشرونَ، وممن قال به مِن السلفِ: الضَّحَّاكُ، وقيل: الأشدُّ: الحُلُمُ، وممن قال به من السلفِ: الإمامُ مالكٌ، وربيعةُ، وزيدُ بنُ أسلمَ، والشَّعبيُّ. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨).

قال ابنُ جرير: (جائزٌ أنْ يكونَ آتاه ذلك وهو ابنُ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً، وجائزٌ أنْ يكونَ آتاه وهو ابنُ عشرينَ سَنَةً، وجائزٌ أنْ يكونَ آتاه وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنَةً، ولا دلالةَ في كتابِ اللَّهِ، =

أعطَيناه النُّبوَّةَ والعِلمَ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ نَجْزي كلَّ مَن أحْسَنَ(٢).

= ولا أثَرَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا في إجماعِ الأُمَّةِ على أيٍّ ذلك كان، وإذالم يكُنْ ذلك موجودًا مِن الوجهِ الَّذي ذكرتُ، فالصَّوابُ أنْ يُقالَ فيه كما قال عزَّ وجلَّ، حتَّى تَثْبُتَ حُجَّةٌ بصحَّةِ ما قيلَ في ذلك مِن الوجهِ الَّذي يجبُ التَّسليمُ له فيُسَلَّمُ لها حينئذٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).

(١) ممَّن اختار أنَّ الحُكمَ هنا مرادٌ به النبوَّةُ: البغوي، والرسعني، وابنُ كثير، والسعديَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨).
وممَّن قال بهذا القول من السلفِ: السُّديُّ، وابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٥).
وقيل: المراد بالحُكم هنا: العمَلُ بالعِلم، وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٣/ ٦٤) لابن العربي، ويُنظر أيضًا ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠).
وقيل: المرادُ: الفَهمُ. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).
وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٨).
وقوله: ﴿عِلۡمٗا﴾ قيل: المراد: عِلمُ تعبير الرُّؤيا. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨)، وينظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٠٦).
وقيل: المراد به: الفقه في الدين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨)، ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٠٩) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٥).
وليس المعنى أنَّه يجزي كلَّ مَن أحسَن عينَ ما جزَى يوسفَ عليه السلامُ، ولكن يجزيه جزاءَ الإحسانِ، فالمرادُ مطلقُ المشابهةِ في مقابلةِ الإحسانِ بالإحسانِ مِن غيرِ بخسٍ، لا المماثلةُ مِن كلِّ وجهٍ، فالنبوةُ غيرُ مكتسبةٍ باتفاقِ العلماءِ. ينظر: ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٨).
قال الشوكاني: (فكلُّ مَنْ أحْسَنَ في عملِه أحْسَنَ اللَّهُ جزاءَه، وجعلَ عَاقبةَ الخيرِ مِنْ جملةِ ما يَجزيه به، وهذا عامٌّ يدخلُ تحتَه جزاءُ يوسفَ على صبرِه الحَسنِ دخولًا أوَّليًّا. قال الطَّبريُّ: هذا وإنْ كان مَخْرَجُه ظاهِرًا على كلِّ محسنٍ فالمرادُ به محمدٌ صَلَّى الله عليه وسلَّم. يقولُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: ودعتْ امرأةُ العزيزِ يوسفَ- التي هو مقيمٌ في بيتِها، وتحتَ تدبيرِها- إلى نفسِها، وطلبتْ منه أن يواقعَها(١).

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾.

أي: وغلَّقَت امرأةُ العزيز جميعَ أبوابِ البَيتِ عليها وعلى يوسُفَ(٢).

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

أي: وقالت ليوسُفَ: تعالَ وأقبِلْ إليَّ(٣).

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

= اللَّهُ تعالى كما فَعَل هذا بيوسف ثُمَّ أعطيتُه ما أعطيتُه كذلك أُنجيكَ مِنْ مشركي قَوْمِكَ الَّذين يَقْصِدونَك بالعداوةِ، وأُمَكِّنُ لك في الأرضِ. والأولَى ما ذكَرْناه مِنْ حملِ العمومِ على ظاهرِه فيدخُلُ تحتَه ما ذَكَره ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨) وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

أي: قال يوسُفُ لامرأةِ العزيزِ حين دعتْه إلى نفسِها: أعتَصِمُ باللهِ مِن فِعلِ الفاحشةِ التي تَدعينَني إليها؛ إنَّ زوجَكِ سيِّدي، أكرَمَني وأحسنَ إليَّ، فلا أقابِلُ مَعروفَه بخيانتِه في أهلِه(١).

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ ولا ينجَحُ الظَّالِمونَ الذين يفعلونَ ما ليس لهم فِعلُه، وهذا الذي تَدعينَني إليه ظُلمٌ وخِيانةٌ لسَيِّدي الذي أحسَنَ إليَّ(٢).

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾.

أي: ولقد همَّت امرأةُ العزيزِ- همَّ عزم- بمُواقعةِ الفاحِشةِ مع يوسُفَ، وهمَّ يوسُفُ بامرأةِ العزيزِ، وكان همُّه خطرةً عارضةً، وحديثَ نفسٍ، مِن غيرِ اختيارٍ ولا عزمٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

والقولُ بأنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ أي: العزيزُ زوجُ المرأةِ، هو قولُ أكثرِ المفسرينَ. ينظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧١).

وقيل: المرادُ: إنَّ الله ربِّي تولَّاني في طولِ مقامي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١).

قال ابنُ تَيمية: (فَالهَمُّ اسْمُ جِنْسٍ تحته «نَوعان» كما قال الإمامُ أَحمدُ: الهَمُّ هَمَّان: هَمُّ خطَراتٍ، وهَمُّ إضرارٍ، وقد ثَبَتَ في الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم «أنَّ العَبْدَ إذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لم =

= تُكتَب عليه، وإذا تَركَها لله كُتِبَت له حَسَنَة، وإن عَمِلَها كُتِبَ له سَيِّئة واحِدَة» وإن تَرَكَها مِن غَيرِ أن يَتْرُكَها لله لم تُكتَب له حَسَنَة ولا تُكتَب عليه سَيِّئة، ويُوسُف صلَّى الله عليه وسلَّم هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لله، ولذلك صَرَفَ الله عنه السُّوءَ والفَحْشاءَ لإخلاصِه، وذلك إنَّما يكون إذا قام المُقْتَضَى للذَّنبِ وهو الهَمُّ، وعارَضَه الإخلاصُ المُوجِب لانْصِرافِ القَلْبِ عن الذَّنْبِ لله. فيُوسُف عليه السَّلام لم يَصدُر منه إلَّا حَسَنَةٌ يُثابُ عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] . وأمَّا ما يُنقَل: مِن أنَّه حَلَّ سَراويلَه، وجَلَس مَجلِس الرَّجُل مِن المَرأةِ، وأنَّه رأى صُورةَ يَعقوب عاضًّا على يَدِه، وأمثال ذلك، فكُلُّه ممَّا لم يُخبِر اللهُ به ولا رَسولُه، وما لم يكُن كذلك فإنَّما هو مَأخُوذٌ عن اليَهودِ الذين هُم مِن أعظَم النَّاسِ كَذِبًا على الأنبياء وقَدْحًا فيهم، وكُلُّ مَن نَقَلَهُ مِن المسلمين فعنهم نَقَلَهُ، لم يَنقُلْ مِن ذلك أحَدٌ عن نَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم حَرفًا واحِدًا). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٢٦١).

وقال الشِّنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: (فالجَوابُ مِن وَجهَين: الأوَّل: أنَّ المُرادَ بِهَمِّ يُوسُفَ بها خاطِرٌ قَلْبِيٌّ صَرَفه عنه وَازِعُ التَّقْوَى، وقال بَعضُهم: هو المَيْلُ الطَّبيعي والشَّهْوَة الغَريزيَّة المَزمومة بالتَّقْوَى، وهذا لا مَعصيَة فيه؛ لأنَّه أمْرٌ جِبلِّي لا يَتعَلَّق به التَّكليف... ومِثالُ هذا مَيْلُ الصَّائِم بطبعِه إلى الماءِ البارِد، مع أن تَقواه تمنعُه مِن الشُّرْب وهو صائِم، وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «ومَن هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَت له حَسَنَة كامِلَة». لأنَّه تَرَكَ ما تَميلُ إليه نَفسُه بالطَّبع خَوفًا مِن الله، وامتثالًا لِأَمْرِه... والجَوابُ الثَّاني وهو اختيارُ أبي حَيَّان: أن يُوسُف لم يَقَعْ منه هَمٌّ أصلًا؛ بل هو مَنْفِيٌّ عنه لوجودِ البُرهان.

قال مُقَيِّدُه عَفَا اللهُ عنه: هذا الوَجه الذي اختارَهُ أبو حَيَّان وغَيرُه هو أجْرَى الأقوالِ على قَواعِد اللُّغَة العَربيَّة؛ لأنَّ الغالِبَ في القُرآن وفي كَلامِ العَرَب: أنَّ الجَوابَ المَحذُوف يُذكَر قَبلَه ما يَدُلُّ عليه، كقولِه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] أي: إن كُنتُم مُسلمين فتَوَكَّلُوا عليه، فالأوَّل: دَليلُ الجَوابِ المَحذوف لا نَفْسُ الجَواب؛ لأنَّ جَوابَ الشُّروطِ وجَواب لَوْلَا لا يَتَقَدَّم، ولكن يكون المَذكور قَبلَه دَليلًا عليه كالآيَةِ المَذكورَة... وعلى هذا القَولِ: فمَعنى الآيَة: وهَمَّ بها لولا أن رَأى بُرهانَ رَبِّه، أي: لولا أن رَآه هَمَّ بها، فما قبلَ «لَوْلَا» هو دليلُ الجوابِ المَحذوف، كما هو الغالِبُ في القُرآنِ واللُّغَة. ونَظيرُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فما قبلَ «لولا» دليلُ الجَواب، أي: لولا أن رَبَطْنا على قَلبِها لَكادَت تُبدِي به... فبهذين الجَوابَين تَعلَم أنَّ يُوسُفَ عليه وعلى نَبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ بَرِيءٌ مِن الوقوعِ فيما لا يَنبَغي، وأنَّه إمَّا أن يكون لم يَقَعْ منه أصلًا بناءً على أنَّ الهَمَّ مُعَلَّقٌ بأداةِ الامْتِناعِ التي هي «لَوْلَا» على انْتِفاءِ رؤيةِ البُرهانِ، وقد رَأى البُرهانَ فانتَفَى المُعَلَّقُ عليه، وبانتِفائِه يَنْتَفِي المُعَلَّقُ الذي هو هَمُّه بها، وإمَّا أن يكون هَمُّه خاطِرًا قلبيًّا صَرَفه عنه =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عنهما، ((عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يَرْوي عَن رَبِّه عزَّ وجلَّ قال: قال إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّن ذلك فمن هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْها كَتَبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً فإنْ هو هَمَّ بها فعمِلَها كَتَبها اللَّه له عندَه عشرَ حسناتٍ إلى سَبعمِئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعْمَلْها كَتَبها اللَّهُ له عندَه حسنةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها كتَبها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحدةً))[1].

﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: لولا أنْ رأى يوسُفُ آيةً مِن اللهِ قَوِيَ بها إيمانُه، وامتنَعَ بسَبَبِها مِن عِصيانِه[2].

= وازِعُ التَّقْوَى، أو هو الشَّهْوَة والمَيْل الغَرِيزِي المَزْموم بالتَّقْوَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٠٥ - ٢١٠)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٧، ١٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٣).

[1] أخرجه البخاري (٦٤٩١)، واللفظ له، ومسلم (١٣١).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢).

قال ابنُ جَرير: (وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصَّوابِ أن يُقال: إنَّ الله جَلَّ ثَناؤُه أَخبَر عن هَمِّ يُوسُفَ وامرأةِ العَزيز كُلٍّ واحِدٍ منهما بصاحِبِه، لولا أن رَأَى يُوسُف بُرهانَ رَبِّه، وذلك آيَةٌ مِن الله زَجَرَتْه عن رُكوبِ ما هَمَّ به يُوسُف مِن الفاحِشَة، وجائِزٌ أن تكونَ تلك الآيَةُ صُورَةَ يعقوبَ، وجائِزٌ أن تكونَ صُورَةَ المَلَكِ، وجائِزٌ أن يكونَ الوَعِيد في الآيات التي ذَكَرَها اللهُ في القُرآن على الزِّنَى، ولا حُجَّةَ للعُذْرِ قاطِعَة بأَيِّ ذلك كان مِن أَيٍّ. والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك ما قالَه الله تَبارَك وتَعالى، والإيمان به، وتَرْك ما عَدَا ذلك إلى عالِمِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٩٩).

وقال ابنُ تَيمية: (هو بُرهانُ الإيمان الذي حَصَل في قَلْبِه فصَرَف اللهُ به ما كان هَمَّ به). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١٠١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

وجوابُ ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: لكانَ ما كان، أو: لارتكبَ المعصيةَ. =

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

أي: أرَينا يوسُفَ كتلك الإراءةِ؛ كي نَقِيَه السُّوءَ والفَحشاءَ في جميعِ أمورِه⁽¹⁾.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللامِ: اسمُ مفعولٍ، بمعنى: أنَّ اللهَ أخلَصَهم من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ، فصاروا مُخلَصينَ، أي: اختارَهم اللهُ⁽²⁾.

٢- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسرِ اللامِ: اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِن الشِّركِ والرِّياءِ⁽³⁾.

= يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٠٣).

وتقدَّم قريبًا ذكرُ الوجهِ الآخرِ، وهو أنَّ ما قبلَ (لَوْلَا) هو دَليلُ الجَوابِ المَحْذوف، ومعنَى الآيَة على ذلك: وهَمَّ بها لولا أن رَأَى بُرهانَ رَبِّهِ، أي: لولا أن رَآهُ هَمَّ بها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٤).
قال ابن تيمية: (أخبَرَ سُبحانه أنَّه صرفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ، ومِن السُّوءِ عِشقُها ومحبَّتُها، ومن الفَحشاءِ الزِّنا). ((جامع الرسائل)) (٢/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٠).
قال الشوكاني: (السوء أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء: كلُّ أمرٍ مفرطِ القبحِ، وقيل: السوءُ: الخيانةُ للعزيزِ في أهلِه، والفحشاءُ: الزِّنا، وقيل: السوءُ: الشهوةُ، والفحشاءُ: المباشرةُ، وقيل: السوءُ: الثناءُ القبيحُ. والأولَى الحملُ على العمومِ، فيدخلُ فيه ما يدلُّ عليه السياقُ دخولًا أوليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢).

(٢) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). =

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

أي: إنَّ يوسُفَ مِن عبادِنا المُطَهَّرينَ المختارينَ المصطفَيْنَ، الذين أخلَصوا لله التوحيدَ والعبادةَ(١).

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عنها أنَّها همَّت، أتبَعَه بكيفيَّةِ طَلَبِها وهَرَبِه، فقال(٢):

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾.

أي: واستبَقَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ إلى بابِ البيتِ؛ يوسُفُ يفِرُّ منها، وهي تطلُبُه ليرجِعَ إلى البيتِ؛ لتقضيَ حاجَتَها منه، الَّتي راودَتْه عليها(٣).

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

قال ابنُ جريرٍ: (والصَّوابُ مِنَ القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّهما قراءتانِ معروفتانِ قد قرأ بهما جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ القُرَّاءِ، وهما مُتَّفِقَتا المعنَى؛ وذلك أنَّ مَنْ أخْلَصه اللَّهُ لنفسِه فاختارَه، فهو مُخْلِصٌ لِلَّهِ التَّوحيدَ والعبادَةَ، ومَنْ أخْلَص توحيدَ اللَّهِ وعبادتَه فلم يُشْرِكْ باللَّهِ شيئًا، فهو مَن أخْلَصه اللَّهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١).

وقال السعدي عن هاتينِ القراءتينِ: (وهما متلازمتانِ، فأخلَصهم لإخلاصِهم، فمَن أخلَص للهِ أخلَصه، وخلَّصه مِن الشرورِ، وعصَمه مِن السوءِ والفحشاءِ). ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) (ص: ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

أي: وأدرَكَت امرأةُ العزيزِ يوسُفَ، فأمسَكَت بقميصِه، وجَذبَته لتَمنَعَه من الخروجِ، فشَقَّت قميصَه مِن الخَلفِ؛ مِن شِدَّةِ الجَذبِ(١).

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

أي: وصادفَ يوسُفُ وامرأةُ العزيزِ زوجَها عند البابِ(٢).

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ لِزَوجِها لَمَّا وجَدَته عند البابِ، مُتَّهِمةً يوسُفَ بمُراودتِها: ما جزاءُ مَن أراد فِعلَ الفاحِشةِ بزَوجتِك إلَّا أن يُحبَسَ في السِّجنِ، أو يُضرَبَ ضَربًا مُوجِعًا(٣).

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

أي: قال يوسُفُ للعزيزِ مُدافِعًا عن نفسِه: لم أُراوِدْ زوجَتَك عن نفسِها، بل هي مَن طلَبَت منِّي فِعلَ الفاحشةِ، فأبيتُ(٤).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

أي: وحكَم بينَ امرأةِ العزيزِ وبين يوسُفَ حاكِمٌ مِن أهلِها لَمَّا اختلفَ قولاهما(١).

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

قال ابنُ كثير: (وقد اختَلَفوا في هذا الشَّاهِدِ: هل هو صغيرٌ أو كبيرٌ، على قولينِ لعلماءِ السَّلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

وممن قال مِن السلفِ أنّه كان رجلًا: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ أبي مليكةَ، والسُّدِّي، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، وزيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣).

وممن قال من السلف أنّه كان صغيرًا في المهدِ: ابنُ عباسٍ في الروايةِ الثانية عنه، ورُوي عن أبي هريرةَ، وهلالِ بنِ يَساف، والحسنِ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ في رواية، والضَّحَّاكِ بنِ مُزاحم، ونَسَبه الرسعني لأكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٠٥، ١١١)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، واختاره ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٣/ ١١١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٧).

وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا أنَّ هذا الشاهدَ أحدُ الذين تكلَّموا في المهدِ. يُنظر الكلامُ عن هذه الراوياتِ في: ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) للألباني (٢/ ٢٧١- ٢٧٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ومما يُضعفَ هذا أنَّ في «صحيحِ البخاريِّ» [٣٤٣٦] ومسلم [٢٥٥٠]: «لم يتكلَّمْ في المهدِ إلَّا ثلاثةٌ:...»، فقال: «لم يتكلمْ» وأسقَط صاحبَ يوسفَ منها، ومنها: أنَّ الصبيَّ لو تكلَّم لكان الدليلُ نفسَ كلامِه دونَ أن يحتاجَ إلى الاستدلالِ بالقميصِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٦).

وقال الألباني: (ظاهِرُ القرآنِ في قِصَّةِ الشاهدِ أنَّه كان رجلًا لا صبيًّا في المهد؛ إذ لو كان طفلًا لكان مجرَّدُ قولِه: إنَّها كاذبةٌ، كافيًا وبرهانًا قاطعًا؛ لأنَّه من المعجزات، ولَمَا احتِيجَ أن يقول: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾، ولا أن يأتيَ بدليلٍ حيٍّ على براءةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وهو قولُه: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦- ٢٧] الآية، وقد روى ابنُ جرير بإسنادٍ رجاله ثقات عن ابن عباس: أنَّ الشاهِدَ كان رجلًا ذا لحيةٍ، وهذا هو الأرجَحُ، والله أعلم). ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (٢/ ٢٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٣، ١٧٤).

أي: قال الشَّاهِدُ حاكِمًا بين يوسُفَ وامرأةِ العزيز: إن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الأمامِ فصدَقَت في دعواها أنَّ يوسُفَ راودها، وهو مِن الكاذبينَ في دَعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّها دافعتْه عن نفسِها حتَّى شقَّت قميصَه مِن الأمامِ⁽¹⁾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وإن كان قميصُ يوسُفَ شُقَّ مِن الخَلفِ فكَذَبت في دَعواها أنَّ يوسُفَ راودَها، وهو مِن الصَّادقينَ في دعواه أنَّها التي راوَدَته، بدليلِ أنَّه فرَّ منها حينَ راودتْه، فاتَّبعتْه، وجذَبتْ قميصَه حتَّى شقَّته مِن ورائِه⁽²⁾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾.

أي: فلمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خلفٍ، وتبيَّن له صِدقُه؛ قال لزوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي ادَّعَيتِه على يوسُفَ مِن جملةِ مَكرِكُنَّ وحِيَلِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ⁽³⁾.

﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾.

أي: قال العزيزُ لزوجتِه⁽⁴⁾: إنَّ مَكرَكنَّ واحتيالَكنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- عظيمٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٤١٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨).

(٤) وممَّن اختار أنَّ قائلَ ذلك وما بعدَه إلى قولِه: ﴿ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ هو زوجُ المرأةِ العزيزُ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: =

شديدُ التَّأثيرِ في النُّفوسِ(١).

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩ ﴾.

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾.

أي: وقال ليوسُف عليه السَّلامُ: يا يوسُفُ، أعرِضْ عن ذِكرِ ما جرَى منها، ولا تُخبِرْ به أحدًا(٢).

﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

أي: قال العزيزُ لامرأتِه: واطلُبي المَغفِرةَ(٣) لذَنبِك الذي وقعَ منكِ، مِن مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وخيانةِ زَوجِك، ثمَّ قَذْفِ يوسُفَ بما هو بريءٌ منه؛

= ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٦).

وقيل: القائلُ هو الشاهدُ . يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٩).

(٣) طلَب منها زوجُها الاستغفارَ مِن الله، فقد كان أُولئك الأَقْوامُ يُقِرُّون بالربِّ سبحانَه وتعالى وبحقِّه، وإن أشْرَكوا معه غيرَه، بدَليلِ أنَّ يُوسُفَ عليه السَّلامُ قال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٧)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٢١)).

وقيل: إنَّ معنَى ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أي: واعتَذري إلى زوجِك، واستَعْفيه ألَّا يعاقِبَك، وهذا مرويٌّ نحوُه عن ابنِ زيدٍ. وهذا على أنَّ قائلَ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ...﴾ هو الشاهدُ، وممن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٥).

إنَّكِ كُنتِ من جملةِ المتعمِّدينَ الوقوعَ في الخَطايا(١).

الفَوائد التربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في ذِكْرِ المحسِنين إيماءٌ إلى أنَّ إحسانَه هو سبَبُ جَزائِه بتِلك النِّعمةِ، وأنَّ اللهَ آتاه الحُكْمَ والعِلمَ جَزاءً على إحسانِه؛ لِكَونِه مُحسِنًا في أعمالِه، مُتَّقِيًا في عُنفُوانِ أمرِه؛ هَلْ جَزَاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسانُ؟!(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فيه الحذَرُ مِن الخَلوةِ بالنِّساءِ، التي يُخشَى منها الفِتنةُ(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فيه أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسُفُ بالمرأةِ ثمَّ ترَكَه لله، ممَّا يقَرِّبُه إلى اللهِ زُلفى؛ لأنَّ الهمَّ داعٍ مِن دواعي النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وهو طبيعةٌ لأغلَبِ الخَلقِ، فلمَّا قابلَ بينه وبين محبَّةِ اللهِ وخَشيَتِه، غلَبَت محبَّةُ اللهِ وخَشيتُه داعيَ النَّفسِ والهوى، فكان ممَّن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ومِن السَّبعةِ الذين يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّ عَرشِه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه؛ أحَدُهم: ((رجلٌ دعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ))(٤)، وإنَّما الهمُّ الذي يُلامُ عليه العبدُ: الهمُّ الذي يُساكِنُه، ويصيرُ عزمًا ربَّما اقتَرَن به الفِعلُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

٤- قال ابنُ الجَوْزِيِّ: (نازَعَتْني نَفْسِي إلى أمْرٍ مَكْروهٍ في الشَّرْعِ، وجَعَلَتْ تَنصِبُ لِيَ التَّأْوِيلاتِ وتَدْفَعُ الكَراهةَ، وكانتْ تَأْويلاتُها فاسِدَةً، والحُجَّةُ ظاهِرةً على الكَراهَةِ، فلجَأْتُ إلى اللَّهِ تعالى في دَفْعِ ذلك عنْ قَلْبي، وأقْبَلْتُ على القِراءةِ، وكان دَرْسي قد بَلَغَ سُورةَ يُوسفَ؛ فافِتَحتَها، وذلك الخاطِرُ قد شَغَلَ قَلْبي حتَّى لا أدْري ما أَقْرَأُ، فلمَّا بَلَغتُ إلى قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ انتَبَهْتُ لها، وكأنِّي خُوطِبْتُ بها، فأَفَقْتُ مِن تلك السَّكْرَةِ، فقُلْتُ: يا نَفْسُ، أَفهِمْتِ؟ هذا حُرٌّ بِيعَ ظُلْمًا، فَراعى حَقَّ مَن أحْسَنَ إليه، وسمَّاه مالِكًا، وإنْ لمْ يكُنْ له عليه مُلْكٌ، فقالَ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾، ثُمَّ زادَ في بَيانِ مُوجِبِ كَفٍّ كَفِّه عمَّا يُؤْذِيه، فقالَ: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. فكيف بكَ وأنت عَبْدٌ على الحَقِيقةِ لِمَوْلًى ما زالَ يُحْسِنُ إليك مِن ساعَةِ وُجودِك، وإنَّ سَتْرَه عليك الزَّللَ أكْثرُ مِن عَدَدِ الحصَى؟!

أَفَمَا تَذْكُرِينَ كيف ربَّاكِ، وعلَّمَكِ، ورَزَقَكِ، ودَافَعَ عنكِ، وساقَ الخَيْرَ إليكِ، وهَداكِ أَقْوَمَ طَريقٍ، ونَجَّاكِ مِن كلِّ كيدٍ، ولوْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ مِن هذه النِّعَمِ ما سَنَحَ ذِكْرُه امْتَلأتِ الطُّروسُ(١)، ولمْ تنقَطِعِ الكِتابةُ، فكيف يَحْسُنُ بكِ التَّعرُّضُ لِمَا يَكْرَهُه؟! ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾)(٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بيانُ أنَّ حِفْظَ الإحسانِ لِمَن أَحْسَنَ، هو مِن أخلاقِ الأنبياءِ وذوي الفَضلِ؛ وأنَّ حُرْمَةَ نسائِهم أعظمُ مِن غيرِهنَّ؛ إذْ في مواقعةِ المعصيةِ معهنَّ - سوى تحريمِ الزِّنا - خيانةٌ، وإضاعةُ حُرْمَةٍ(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ فيه أنَّ الواجِبَ عند الدُّعاءِ إلى المعصيةِ

---

(١) الطُّروسُ: الكُتُبُ والصُّحفُ، جمعُ طِرس. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (٢/ ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢١٥) بتصرف.

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٢).

الاستِعاذةُ باللهِ من ذلك، ليعصِمَه منها، ويدخُلُ فيه دُعاءُ الشَّيطانِ، ودُعاءُ شَياطينِ الإنسِ، ودُعاءُ هوى النَّفسِ(١).

٧- مَن دخلَ الإيمانُ قَلبَه، وكان مُخلِصًا لله في جميعِ أمورِه، فإنَّ الله يَدفَعُ عنه- ببُرهانِ إيمانِه، وصِدقِ إخلاصِه- مِن أنواعِ السُّوءِ والفَحشاءِ وأسبابِ المعاصي، ما هو جزاءٌ لإيمانِه وإخلاصِه؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءةِ مَن قرأها بكسرِ اللامِ، ومَن قرأها بالفتحِ، فإنَّه مِن إخلاصِ اللهِ إيَّاه، وهو متضمِّنٌ لإخلاصِه هو بنفسِه، فلمَّا أخلصَ عملَه للهِ أخلَصه اللهُ، وخلَّصه مِن السوءِ والفحشاءِ(٢)، فالقلْبُ إذا ذاقَ حَلاوةَ عُبوديَّتِه للَّهِ ومَحَبَّتِه لَهُ لم يكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إليه مِن ذَلِك حَتَّى يُقَدِّمَهُ عليه، وبذلك يُصْرَفُ عن أهلِ الإخلاصِ للَّهِ السُّوءُ والفحشاءُ؛ فَإِنَّ المُخلِصَ للَّهِ ذاقَ مِن حَلاوةِ عُبوديَّتِه للَّهِ مَا يمنَعُهُ عَن عُبوديَّتِه لغيرِه، ومِن حَلاوةِ مَحَبَّتِه للَّهِ مَا يمنَعُهُ عَن مَحَبَّةِ غَيرِه؛ إذْ ليس عِند الْقلبِ السَّلِيم أَحْلَى وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَطْيَبُ وَلَا أَسَرُّ وَلَا أَنْعَمُ مِن حَلاوةِ الإيمانِ المُتَضَمِّنِ عُبوديَّتَه للَّهِ، ومحبَّتَه لَهُ، وإخْلاصَ الدِّينِ لَهُ، وذَلِك يَقْتَضِي انْجذابَ الْقلبِ إلى اللَّهِ، فَيَصِيرُ الْقلبُ مُنِيبًا إلى اللَّهِ، خَائفًا مِنْهُ، رَاغِبًا رَاهِبًا(٣).

٨- عِشقُ الصُّوَرِ إنَّما تُبتلَى به القلوبُ الفارغةُ مِن محبَّةِ الله تعالى، المُعرِضةُ عنه، المتعوِّضةُ بغيرِه عنه، فإذا امتلأ القلبُ مِن محبَّةِ اللهِ، والشَّوقِ إلى لقائِه، دفَعَ ذلك عنه مرَضَ عِشقِ الصُّوَرِ؛ ولهذا قال تعالى في حَقِّ يوسُفَ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فدَلَّ على أنَّ الإخلاصَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ١٢٣).

سببٌ لدَفعِ العِشقِ، وما يترتَّبُ عليه من السُّوءِ والفَحشاءِ التي هي ثَمرتُه ونتيجتُه، فصَرفُ المُسَبَّبِ صَرفٌ لِسَبَبِه⁽¹⁾، بل هو أكبَرُ الأسبابِ لحُصولِ كلِّ خَيرٍ، واندفاعِ كُلِّ شَرٍّ⁽²⁾.

٩- معلومٌ أنَّ الزانيَ حين يزني إنَّما يزني لحُبِّ نفسِه لذلك الفعلِ، فلو قام بقَلبِه خشيةُ الله التي تقهَرُ الشَّهوةَ، أو حُبُّ الله الذي يغلِبُها- لم يَزْنِ؛ ولهذا قال تعالى عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فمن كان مُخلِصًا لله حَقَّ الإخلاصِ، لم يَزْنِ، وإنَّما يزني لخُلُوِّه عن ذلك، وهذا هو الإيمانُ الذي يُنزَعُ منه، لم يُنزَعْ منه نفسُ التَّصديقِ؛ ولهذا قيل: هو مُسلِمٌ وليس بمؤمِنٍ؛ فإنَّ المسلِمَ المُستحِقَّ للثَّوابِ لا بدَّ أن يكونَ مُصدِّقًا، وإلَّا كان مُنافِقًا؛ لكنْ ليس كلُّ مَن صدَّقَ قام بقَلبِه مِن الأحوالِ الإيمانيَّةِ الواجبةِ مِثلُ كَمالِ محبَّةِ الله ورَسولِه، ومِثلُ خَشيةِ اللهِ، والإخلاصِ له في الأعمالِ، والتوكُّلِ عليه، بل يكون الرجُلُ مصَدِّقًا بما جاء به الرَّسولُ، وهو مع ذلك يُرائي بأعمالِه، ويكونُ أهلُه ومالُه أحبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سَبيلِه⁽³⁾.

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للعبدِ- إذا رأى محلًّا فيه فتنةٌ وأسبابُ معصيةٍ- أن يفِرَّ منه، ويهربَ غايةَ ما يُمكِنُه؛ ليتمَكَّنَ مِن التخَلُّصِ مِن المعصيةِ، لأنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا راودَتْه التي هو في بَيتِها، فرَّ هاربًا يطلُبُ البابَ؛ ليتخَلَّصَ مِن شَرِّها⁽⁴⁾.

---

(1) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٦) ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٧).

(2) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٨).

(3) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(4) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّما قال: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يقُلْ: (امرأةُ العَزيزِ)، ولا ذَكَرَ اسْمَها؛ قَصْدًا إلى زيادةِ التَّقريرِ مع استِهْجانِ التَّصريحِ باسْمِ المرأةِ، والمُحافظةِ على السِّترِ عليها(١)، والعرَبُ تُضيفُ البُيوتَ إلى النِّساءِ، فتقولُ: ربَّةُ البيتِ، وصاحبةُ البيتِ(٢).

٢- قول الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، ذُكِر وصفُ الربِّ على الاحتمالينِ؛ احتمالِ أنَّه اللهُ، واحتمالِ أنَّه سيدُه-؛ لما يؤذنُ به مِن وجوبِ طاعتِه وشكرِه على نعمةِ الإيجادِ بالنسبةِ إلى الله، ونعمةِ التربيةِ بالنسبةِ لمولاه العزيزِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى عن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اسمَ «الرَّبِّ» قد يُرادُ به السَّيِّدُ، وكما في قولِ يوسُفَ أيضًا لغُلامِ المَلِك: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وكذا عن الغُلام: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾(٤) [يوسف: ٤٢]، وفيه حُجَّةٌ في أنَّ تسميةَ المخلوقِ بذلك غيرُ منكَرٍ(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ما أحسَنَ هذا التنَصُّلَ مِن الوقوعِ في السُّوءِ! استعاذ أوَّلًا باللهِ الذي بيَدِه العِصمةُ، ومَلكوتُ كلِّ شيءٍ، ثمَّ نبَّه على أنَّ إحسانَ اللهِ أو إحسانَ العزيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٢).

الذي سبقَ منه، لا يُناسِبُ أن يُجازَى بالإساءةِ، ثمَّ نفى الفلاحَ عن الظَّالِمينَ، وهو الظَّفَرُ والفوزُ بالبُغْيةِ، فلا يناسِبُ أن أكونَ ظالِمًا أضَعُ الشَّيءَ غيرَ مَوضِعِه، وأتعدَّى ما حدَّه اللهُ تعالى لي⁽¹⁾.

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه إرشادٌ لها إلى رعايةِ حقِّ العزيزِ بألطَفِ وجْهٍ، وفيه تحذيرٌ لها مِن عقابِ اللهِ عزَّ وجلَّ⁽²⁾.

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فيه أنَّه يجوزُ تَركُ القبيحِ لِقُبحِه، ورعايةِ حَقِّ غَيرِه، وخشيةِ العارِ أو الفَقرِ أو الخوفِ، ونحو ذلك. ولا يقالُ: التَّشريكُ غيرُ مُفيدٍ في كونِه تاركًا للقبيحِ، وأنَّه لا يُثابُ⁽³⁾.

٧- قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إجابتَها لِمَا راوَدَتْه: ظُلمٌ؛ لأنَّ فيها ظُلْمَ كِلَيهما نفْسَه بارتكابِ معصيةٍ ممَّا اتَّفقَت الأديانُ على أنَّها كبيرةٌ، وظُلمَ سيِّدِه الَّذي آمَنَه على بيتِه، وآمَنَها على نفْسِها؛ إذ اتَّخَذها زوجًا وأحصَنَها⁽⁴⁾.

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تدلُّ الآيةُ على لزومِ حُسنِ المكافأةِ بالجَميلِ، وأنَّ من أخلَّ بالمكافأةِ عليه، كان ظالِمًا⁽⁵⁾.

٩- قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٦٦).

الْمُخْلَصِينَ﴾ في صَرفِ السُّوءِ والفَحشاءِ عنه عليه السَّلامُ، وكَونِه مِن المُخلَصينَ؛ دليلٌ على عِصمتِه⁽¹⁾.

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بيانُ أنَّ الحَسَنةَ الثَّانيةَ قد تكون مِن ثوابِ الأولى، وكذلك السَّيِّئةُ الثَّانيةُ قد تكونُ مِن عقوبةِ الأولى؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾⁽²⁾ [محمد: ١].

١١- مِن رَحمةِ اللهِ تعالى بعَبْدِهِ المُخلصِ أن يصرِفَ عنه ما يَغارُ عليه منه؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾⁽³⁾.

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ شاهِدٌ على نَفيِ ما قد ذَكَره طائِفةٌ مِن المفَسِّرينَ مِن أنَّه وُجِدَ مِن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعضُ المُقدِّماتِ، مثل حَلِّ السَّراويلِ، والجلوسِ مَجْلِسَ الخاتِنِ، ولو كان قد فَعَلَ صغيرةً لتابَ منها، والقرآنُ ليس فيه ذِكرُ تَوبتِه، بل إنَّه مَن وَقعَ منه بعضُ أنواعِ السُّوءِ والفَحشاءِ لم يكن ذلك قد صُرِفَ عنه، بل يكونُ قد وَقعَ وتاب اللهُ عليه منه، والقرآنُ يدلُّ على خِلافِ هذا، وقد شَهِدت النِّسوةُ له أنَّهنَّ ما عَلِمنَ عليه من سُوءٍ، ولو كان قد بَدَت منه هذه المقدِّمات لكانت المرأةُ قد رأت ذلك، وهي من النِّسوةِ اللَّاتي شَهِدنَ وقُلنَ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وقالت مع ذلك: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٠).

١٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ ولم يقُلْ: سيِّدَهُما؛ لِأنَّ يُوسفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يَدْخُلْ في رِقٍّ، ولم يكنْ مملوكًا لذلك الرجلِ على الحقيقةِ⁽¹⁾.

١٤- في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ حجةٌ في أنَّ تسميةَ المخلوقينَ بالسَّادة جائزٌ⁽²⁾.

١٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فبادرَتَ إلى الكَذِبِ؛ أنَّ المراودةَ قد كانت من يوسُفَ، وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقُلْ «مَن فعلَ بأهلِك سُوءًا» تبرِئةً لها، وتبرئةً له أيضًا مِن الفِعلِ، وإنَّما النِّزاعُ عند الإرادةِ والمُراودةِ⁽³⁾.

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يدلُّ على عِظَمِ مَوقِعِ السَّجنِ مِن ذَوي الأقدارِ؛ حيث قرَنَته بالعذابِ الأليم⁽⁴⁾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ حُجَّةٌ في إباحةِ الانتصارِ، ومقابلةِ الظَّالم بمِثْلِ فِعلِه⁽⁵⁾.

١٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ إنَّما قال: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ ليكونَ أَولى بالقَبولِ في حَقِّ المرأةِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ مِن حالِ مَن يكونُ مِن أقرباءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٤).

المرأةِ ومِن أهلِها ألَّا يَقصِدَها بالسُّوءِ والإضرارِ، فالمقصودُ بذِكرِ كَونِ ذلك الرَّجُلِ مِن أهلِها تَقويةُ قَولِ ذلك الرَّجُلِ(١).

١٩- إنْ قيل: كيف جاز الجَمْعُ بين ﴿إِنْ﴾ الَّذي هو للاستِقْبالِ وبينَ ﴿كَانَ﴾؟ **فالجوابُ**: لأنَّ المعنى: إنْ يَعلَمْ أنَّه كان قميصُه قُدَّ، ونحوُه، كقولِك: إنْ أحسَنْتَ إليَّ فقد أحسَنتُ إليك مِن قبلُ، لِمَن يَمتَنُّ عليك بإحسانِه، تُريدُ: إنْ تَمتَنَّ عليَّ أمتَنَّ عليك(٢).

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَحتَجُّ به من يرى الحُكمَ بالقرائنِ والأماراتِ والعَلاماتِ فيما لا تحضُرُه البيِّناتُ؛ كاللُّقَطةِ والسَّرِقة والوديعةِ(٣)، فالقرائنُ الجازمةُ رُبَّما قامَتْ مقامَ البيِّناتِ؛ ذلك لأنَّ نَبيَّ اللَّهِ يُوسُفَ لَمَّا بَهَتَتْه امرأةُ العزيزِ، واضطُرَّ إلى الدفاعِ، ولم تَكُنْ هناك بينةٌ، ولا شيءٌ يُصدِّقُه أو يُصدِّقُها، جاءَ ذلك الشاهدُ، وجعَل شقَّ قميصِه مِن دُبُرٍ قرينةً على صدقِه، وكذبِ المرأةِ، فذِكرُه تعالى لهذا مقرِّرًا له يدلُّ على جوازِ العملِ به(٤).

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على القياسِ والاعتبارِ، والعمَلِ بالعُرفِ والعادةِ؛ لِمَا ذُكِرَ مِن قَدِّ القميص مُقبِلًا ومُدبِرًا(٥).

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧١).

الصَّادِقِينَ﴾ قدَّمَ أمارةَ صِدقِها؛ لأنَّه ممَّا يُحبُّه سَيِّدُها، فهو في الظاهِرِ اهتمامٌ بها، وفي الحقيقةِ تقريرٌ لِكَذِبها مرَّتينِ: الأُولَى باللُّزومِ، والثَّانية بالمُطابقة⁽¹⁾.

٢٣- مِن اللَّطائِفِ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ما قيل: إنَّ هذا الشَّاهِدَ أراد ألَّا يكونَ هو الفاضِحَ لها، ووَثِقَ بأنَّ انقِطاعَ قَميصِه إنَّما كان مِن دُبُر، فنَصَبه أمارةً لصِدقِه وكَذِبِها، ثُمَّ ذكَرَ القِسمَ الآخَر، وهو قدُّه مِن قُبُلٍ، على علمٍ بأنَّه لم ينقَدَّ مِن قُبُلٍ حتى ينفِيَ عن نَفسِه التُّهمةَ في الشهادةِ وقَصْدَ الفَضيحةِ، ويُنصِفَهما جميعًا، فيَذكُر أمارةً على صِدقِها المعلومِ نَفيُه، كما ذكَرَه أمارةً على صِدقِه المعلومِ وُجودُه؛ ومِنَ ثَمَّ قَدَّمَ أمارةً على صِدقِها، على أمارةِ صِدقِه في الذِّكرِ؛ إزاحةً للتُّهمةِ، ووُثوقًا بأنَّ الأمارةَ الثَّانيةَ هي الواقِعةُ، فلا يَضُرُّه تأخيرُها⁽²⁾.

٢٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وُصِفَ كَيدُ النِّساءِ بالعِظَم، وإن كان قد يُوجَدُ في الرِّجالِ؛ لأنهُنَّ ألطَفُ كَيدًا بما جُبِلن عليه، وبما تفرَّغنَ له، واكتسَبَ بعضُهنَّ مِن بَعضٍ، وهنَّ أنفَذُ حِيلةً⁽³⁾.

٢٥- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تَعميمُ الخِطابِ للتَّنبيهِ على أنَّ ذلك خُلُقٌ لهنَّ عريقٌ⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٩).
دلالةُ اللزومِ: هي دلالةُ اللفظِ على لازمِ مسمَّاه، كدلالةِ السقفِ على الجدارِ.
ودلالةُ المطَابقةِ: هي دلالةُ اللفظِ على كمالِ مسمَّاه، كدلالةِ لفظ البيتِ على جميعه. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٩).

٢٦- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ كيف وُصِفَ كَيدُ النِّساءِ بالعَظيمِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] وهلَّا كان مكرُ الرِّجالِ أعظمَ مِن مَكرِ النِّساءِ؟

الجوابُ: أمَّا كونُ الإنسانِ خُلِقَ ضَعيفًا فهو بالنِّسبةِ إلى خَلقِ ما هو أعظَمُ منه؛ كخَلقِ الملائكةِ، والسَّمواتِ والأرضِ، والجبالِ ونحو ذلك، وأمَّا عِظَمُ كَيدِ النِّساءِ ومَكرِهنَّ في هذا البابِ فهو أعظَمُ مِن كيدِ جَميعِ البشَرِ؛ لأنَّ لهنَّ مِن المَكرِ والحِيَلِ والكيدِ في إتمامِ مُرادِهنَّ ما لا يَقدِرُ عليه الرِّجالُ في هذا البابِ(١).

٢٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ إذا ضُمَّت لها آيةٌ أُخرَى حصَل بذلك بيانُ أنَّ كيدَ النساءِ أعظمُ مِن كيدِ الشيطانِ، والآيةُ المذكورةُ هي قولُه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؛ لأنَّ قولَه في النساءِ: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقوله في الشيطانِ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ يدلُّ على أنَّ كيدهنَّ أعظمُ مِن كيدِه(٢)، وعن بعضِ العلماءِ: (إنِّي أخافُ مِن النساءِ ما لا أخافُ مِن الشيطانِ؛ فإنَّه تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساءِ: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنَّ الشيطانَ يوسوسُ مسارقةً، وهنَّ يواجِهْنَ به الرجالَ)(٣).

وقيل: لا دلالةَ فيه، فالمقامُ مختلفٌ؛ فإنَّ ضعفَ كيدِ الشيطانِ إنَّما هو في مقابلةِ كَيْدِ الله تعالى، وعظمَ كيدِهنَّ إنَّما هو بالنسبةِ الى كيدِ الرجالِ، وإنَّما كيدُ النسوانِ بعضُ كيدِ الشيطانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٣٨).

وقال القنوجي: (وفي «حاشية الخفاجي»: وقيل عليه: إنَّ ضعفَ كيدِ الشيطانِ في مقابلةِ =

٢٨- بَيَّنَ القُرآنُ العَظيمُ بَراءةَ يُوسُف عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الوُقوعِ فيما لا يَنبَغِي؛ حيث بَيَّنَ شَهادةَ كُلِّ مَن له تَعَلُّق بالمَسألَةِ بِبراءَتِه، وشَهادةَ الله له بذلك، واعْتِراف إبليس به. أمَّا الذين لهم تَعَلُّق بتِلك الواقِعَة فهم: يُوسُف، والمَرأَةُ، وزَوْجُها، والنِّسْوَةُ، والشُّهودُ. أمَّا جَزْمُ يُوسُف بأنَّه بَرِيءٌ مِن تِلك المَعصِيَة فذَكَرَهُ تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وأمَّا اعْتِرافُ المَرأَةِ بذلك ففي قولِها للنِّسْوَةِ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. وأمَّا اعْتِراف زَوْجِ المَرأَةِ ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وأمَّا اعْتِراف الشُّهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ...﴾. وأمَّا شَهادَةُ الله جَلَّ وعَلَا بِبراءَتِه ففي قولِه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وأمَّا إقْرار إبليس بطَهارَةِ يُوسُف ونَزاهَتِه ففي قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فأقَرَّ بأنَّه لا يُمكِنُه إغْواءُ المُخْلَصِين، ولا شَكَّ أنَّ يُوسُف مِن المُخْلَصِين، كما صَرَّحَ تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فظَهَرَت دِلالَةُ القُرآنِ مِن جِهاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ على بَراءَتِه ممَّا لا يَنْبَغي(١).

٢٩- في قَولِه تعالى عن العزيزِ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم كانوا يَرونَ ذلك ذنبًا ويَستَغفِرونَ

= كيدِ الله، وعظم كيدِهنَّ بالنسبةِ للرجالِ، وهو ليس بشيءٍ؛ لأنَّه استدلَّ بظاهرِ إطلاقِهما، ومثلُه مما تنقبضُ له النفسُ وتنبسطُ يكفي فيه ذلك القدر. انتهى. قال الحفناوي: هذا فيما يتعلَّقُ بأمرِ الجماعِ والشهوةِ لا عظيمٌ على الإطلاقِ؛ إذ الرجالُ أعظمُ منهنَّ في الحيلِ والمكايدِ في غيرِ ما يتعلَّقُ بالشهوةِ. ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٥).

منه- وإن كانوا مع ذلك مُشرِكينَ- وقد كانت العرَبُ مُشرِكينَ، وهم يُحَرِّمونَ الفواحِشَ ويَستغفِرونَ اللهَ منها، وكان الزِّنا معروفًا عندهم في الإماءِ(١)، وذلك على القولِ بأنَّه طلبَ منها استغفارَ الله.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

- التنكيرُ في قوله: ﴿حُكْمًا وعِلْمًا﴾ للتفخيمِ(٢).

- ومِن قولِه تعالى: ﴿وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ اعتراضٌ جيءَ به أُنموذَجًا للقِصَّةِ؛ لِيَعلَمَ السَّامعُ مِن أوَّلِ الأمرِ أنَّ ما لَقِيه عليه السَّلامُ مِن الفتنِ الَّتي ستُحْكَى بتَفاصيلِها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدةٌ، وأنَّه عليه السَّلامُ مُحسِنٌ في جَميعِ أعمالِه لم يَصدُرْ عنه في حالَتَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ما يُخِلُّ بنَزاهتِه، ومَدارُ حُسنِ التَّخليصِ إلى هذا الاعتِراضِ قبلَ تَمامِ الآيةِ الكريمةِ: هو التَّمكينُ البالغُ المفهومُ مِن كلامِ العزيزِ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فيه تشبيهُ حالِ المحاوِلِ أحَدًا على فِعْلِ شيءٍ مُكرَّرًا ذلك بحالِ مَن يَذهَبُ ويَجيءُ في المعاوَدةِ إلى الشَّيءِ المذهوبِ عنه، فأُطلِقَ (راوَد) بمعنى (حاوَل)(٤)؛ فالمراودةُ المطالَبةُ، مِن: رادَ يَرُودُ؛ إذا جاء وذهَب لطَلَبِ شيءٍ، وهي مُفاعَلةٌ مِن واحدٍ نَحوُ مُطالبةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

الدَّائنِ ومُماطَلةِ المديونِ ونَظائِرِها ممَّا يكونُ مِن أحَدِ الجانِبَين الفِعلُ ومِن الآخَرِ سبَبُه؛ فإنَّ هذه الأفعالَ وإن كانت صادِرةً عن أحَدِ الجانِبَين لكنْ لَمَّا كانت أسبابُها صادِرةً عن الجانبِ الآخَرِ جُعِلَت كأنَّها صادِرةٌ عنهما، وهذا بابٌ لَطيفُ المسلَكِ مَبنيٌّ على اعتبارٍ دقيقٍ، تَحقيقُه: أنَّ سببَ الشَّيءِ يُقامُ مَقامَه، ويُطلَقُ عليه اسمُه، كما في قولِهم: كما تَدينُ تُدانُ، أي: كما تَجزي تُجزى؛ فإنَّ فعْلَ البادي وإن لم يَكُنْ جَزاءً، لكنَّه لِكَونِه سببًا للجزاءِ أُطلِقَ عليه اسمُه، وهذه قاعدةٌ مُطَّرِدةٌ مُستمِرَّةٌ، ولَمَّا كانت أسبابُ الأفعالِ المذكورةِ هنا صادِرةً عن الجانبِ المقابِلِ لجانبِ فاعِلِها؛ فإنَّ مُراوَدَتَها لِجَمالِ يوسُفَ عليه السَّلامُ نُزِّلَ صُدورُها عن مَحالِّها بمَنزِلةِ صُدورِ مُسبِّباتِهما التي هي تلك الأفعالُ، فبُنِي الصيغةُ على ذلك، ورُوعِيَ جانبُ الحقيقةِ بأن أُسند الفعلُ إلى الفاعلِ، وأُوقِعَ على صاحبِ السَّببِ. ويَجوزُ أن يُرادَ بصيغةِ المغالَبةِ مجرَّدُ المبالَغةِ، وقيل: الصِّيغةُ على بابِها، بمعنى أنَّها طَلَبَت منه الفِعلَ، وطلَب هو مِنها التَّرْكَ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مَنْ الرُّوَيدِ، وهو الرِّفْقُ والتَّحمُّلُ، وتَعدِيَتُها بـ (عَنْ)؛ لتَضمينِها معنى المخادَعةِ؛ فالمعنى: خادَعَتْه عَنْ نَفْسِه(١).

– والتَّعبيرُ عن امرأةِ العزيزِ بطَريقِ الموصوليَّةِ في قولِه: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾؛ لِقَصدِ ما تُؤْذِنُ به الصِّلةُ مِن تقريرِ عِصمةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ كونَه في بيتِها مِن شأنِه أن يُطوِّعَه لِمُرادِها(٢).

– قولُه: ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ و(عَن) للمُجاوَزةِ، أي: راوَدَتْه مُباعِدةً له عن نَفسِه، أي: بأنْ يَجعَلَ نفْسَه لها؛ قيل: وهذا التَّركيبُ مِن مُبتكَراتِ القرآنِ؛ فالنَّفسُ هنا كِنايةٌ عن غرَضِ المواقَعةِ، أي: فالنَّفسُ أُريدَ بها عَفافُه، وتَمكينُها منه لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

تُريدُ، فكأنَّها تُراوِدُه عن أن يُسلِّمَ إليها إرادتَه، وحُكمَه في نفسِه، بخلافِ تَعْديَةِ هذا الفعلِ بـ(على)؛ فإنَّ ذلك إلى الشَّيءِ المطلوبِ حُصولُه(١).

- قولُه: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ﴾ فيه تضعيفُ (غَلَّقَتْ)؛ لإفادةِ شِدَّةِ الفعلِ وقوَّتِه، أي: أغلَقَت إغلاقًا مُحكَمًا(٢)، فقال: ﴿وغَلَّقَتْ﴾؛ للمبالَغةِ في الإيثاقِ والإحكامِ، وقيل: كانت الأبوابُ سَبعةً؛ ولذلك جاء الفعلُ بصيغةِ التَّفعيلِ دون الإفعالِ؛ للتكثيرِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ تعليلٌ لامتناعِه، وتعريضٌ بها في خيانةِ عهدِها(٤).

- والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، ومدارُ وضعِه مَوضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المُغْنيةِ عن ذِكرِه، وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به: الإيذانُ بفَخامةِ مَضمونِها، مع ما فيه مِن زيادةِ تقريرِه في الذِّهنِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ مِنه مِن أوَّلِ الأمرِ إلَّا شأنٌ مُبهَمٌ له خطَرٌ، فيَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِما يَعقُبُه، فيَتمَكَّنُ عِندَ وُرودِه له فَضْلَ تَمكُّنٍ؛ فكأنَّه قيل: إنَّ الشَّأنَ الخطيرَ هذا وهو ربِّي، أي: سيِّدي العزيزُ- وقيل: الضَّميرُ للهِ عزَّ وجلَّ- أحسَنَ مَثْواي؛ فكيف يُمكِنُ أن أُسيءَ إليه بالخيانةِ في حَرَمِه، وفي الاقتصارِ على ذِكْرِ هذه الحالةِ، مِن غيرِ تَعرُّضٍ لاقتِضائِها الامتناعَ عمَّا دعَتْه إليه إيذانٌ بأنَّ هذه المرتبةَ مِن البيانِ كافيةٌ في الدَّلالةِ على استِحالتِه، وكونِه ممَّا لا يَدخُلُ تحتَ الوُقوعِ أصلًا(٥).

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليلٌ ثانٍ للامتناعِ المذكورِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥).

تعليلٌ بعدَ تعليلٍ، والضَّميرُ المجعولُ اسْمًا لـ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ يُفيدُ أهميَّةَ الجملةِ المجعولةِ خبَرًا عنه؛ لأنَّها موعِظةٌ جامعةٌ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

- جملةُ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وأكَّد همَّها بـ(قد) ولامِ القَسَمِ؛ لِيُفيدَ أنَّها عزَمَت عَزْمًا مُحقَّقًا(٢).

- قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أشيرَ إلى اختلافِ الهَمَّينِ باختلافِ التَّعبيرِ عنهُما، حيث لم يَقُلْ: (ولَقَد هَمَّا) بالمخالَطةِ أو (هَمَّ كُلٌّ منهما بالآخَرِ)، وصُدِّر الأوَّلُ بما يُقرِّرُ وُجودَه مِن التَّوكيدِ القَسَميِّ ﴿وَلَقَدْ﴾، وعُقِّب الثَّاني بما يَعْفو أثَرَه مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(٣).

- قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ التَّقديرُ فيها: (ولولا أنْ رأَى بُرهانَ ربِّه هَمَّ بها)؛ فقُدِّم الجوابُ ﴿هَمَّ بِهَا﴾ على شَرْطِه ﴿لَوْلَا﴾؛ للاهتمامِ به، وقد يُجعَلُ المذكورُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قبلَ ﴿لَوْلَا﴾ دليلًا للجوابِ، والجوابُ محذوفٌ لِدَلالةِ ما قَبْل ﴿لَوْلَا﴾ عليه، فيَحْسُنُ الوقفُ على قولِه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾؛ لِيَظهَرَ مَعْنى الابتداءِ بجُملةِ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ واضِحًا، وبذلك يَظهَرُ أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لم يُخالِطْه همٌّ بامرأةِ العزيزِ؛ لأنَّ اللهَ عصَمَه مِن الهمِّ بالمعصيةِ بما أراه مِن البُرهانِ(٤). وذلك على أحدِ أوجهِ تفسيرِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٣).

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليلٌ لحِكْمَةِ صَرفِه عن السُّوءِ والفحشاءِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُ الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وحَّدَ البابَ هنا، وجمَعَه قبلُ في قَولِه تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾؛ لأنَّ إغلاقَ البابِ للاحتياطِ لا يتِمُّ إلَّا بإغلاقِ الجَميعِ، وأمَّا هُروبُه منها فلا يكونُ إلَّا إلى بابٍ واحدٍ، حتى لو تعدَّدَت أمامَه، لم يقصِدْ منها أوَّلًا إلَّا الأوَّلَ؛ فلهذا وحَّدَ البابَ هنا، وجمَعَه ثَمَّ(٢).

- وإسنادُ القَدِّ إليها خاصَّةً مع أنَّ لِقُوَّةِ يوسفَ أيضًا دَخْلًا فيه؛ إمَّا لأنَّها الجُزءُ الأخيرُ للعِلَّةِ التَّامَّةِ، وإمَّا للإيذانِ بمُبالَغتِها في منْعِه عن الخروجِ، وبَذلِ مَجهودِها في ذلك؛ لِفَوْتِ المحبوبِ، أو لخوفِ الافتضاحِ(٣).

- قولُه: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ﴾ مستأنف استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَسأَلُ: ماذا حدَث عِندَ مُفاجَأةِ سيِّدِها وهُما في تلك الحالةِ(٤)؟

- قوله: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ لم تُصرِّحْ في قَولِها بذِكرِ يوسُفَ، وأنَّه أراد بها سُوءًا؛ قَصدًا للعُمومِ، وأنَّ كلَّ مَن أراد بأهلِك سوءًا فحَقُّه أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ فيما قصَدَتْه مِن تخويفِ يوسُفَ؛ ففي إبهامِ المُريدِ تَهويلٌ لشأنِ الجزاءِ المذكورِ بكَونِه قانونًا مطَّرِدًا في حقِّ كلِّ أحدٍ كائنًا مَنْ كان(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).

وقيل: إنَّها لم تَذكُر أنَّ يُوسُفَ يجِبُ أن يُعامَل بأَحَدِ هَذينِ الأَمْرَينِ، بل ذَكَرت ذلك ذِكْرًا كُلِّيًّا صَوْنًا للمَحْبوب عن الذِّكْرِ بالسُّوءِ والأَلَم(١).

وفي ذِكْرِ نفْسِها بعُنوانِ أهليَّةِ العزيزِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إعظامٌ للخَطْبِ، وإغراءٌ له على تَحقيقِ ما تتوخَّاه بحُكْمِ الغضَبِ والحَميَّةِ(٢).

- وبَدأَت بِذِكْرِ السِّجْنِ، وأَخَّرَت ذِكْرَ العَذابَ قيل: لشدَّةِ حبِّها يوسفَ؛ فالمُحِبُّ لا يَسعَى في إيلام المَحْبوبِ، ولذلك قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾، والمُرادُ: أنْ يُسْجَنَ يومًا أو أَقَلَّ على سَبيلِ التَّخْفيف، فأمَّا الحَبْسُ الدَّائم فإنَّه لا يُعَبَّر عنه بهذه العِبارَة؛ بل يُقال: يجبُ أن يُجْعَلَ مِن المَسجونينَ، كما قال فِرعَونُ حين تَهَدَّدَ موسَى عليه السَّلام في قولِه: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(٣) [الشعراء: ٢٩].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ فيه تقديمُ المبتدَأ ﴿هِيَ﴾ على خبَرِه الفعليِّ ﴿رَاوَدَتْنِي﴾ وهو يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرُ قلْبٍ(٤)؛ للرَّدِّ عليها(٥).

- وفي التَّعبيرِ عنها بضَميرِ الغيبةِ ﴿هِيَ﴾ دونَ الخطابِ أو اسْمِ الإشارةِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٤٥).

(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

مُراعاةٌ لحُسنِ الأدبِ، مع الإيماءِ إلى الإعراضِ عنها(١)، وقيل: أتَى بضَميرِ الغَيبةِ؛ لاستيحائِه عن مواجهتِها بإشارةٍ أو ضميرِ خِطابٍ؛ إذ كان غلبَ عليه الحَياءُ أنْ يُشيرَ إليها ويُعيِّنَها بالإشارةِ، فيقول: هذه راودتْني، أو تِلك راودتْني؛ لأنَّ في المواجهةِ بالقبيحِ ما ليس في الغَيبةِ(٢).

- قولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ سُمِّي قولُه شهادةً؛ لأنَّه يؤولُ إلى إظهارِ الحقِّ في إثباتِ اعتداءِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ على امرأة العزيزِ أو دَحْضِه(٣).

- قوله: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ جملةُ ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ﴾ مُبيِّنةٌ لفِعل (شَهِد)، وفي زيادةِ ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ بعدَ ﴿فَصَدَقَتْ﴾، وزيادةِ ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بعدَ ﴿فَكَذَبَتْ﴾: تأكيدٌ لزيادةِ تَقريرِ الحقِّ، كما هو شأنُ الأحكامِ(٤).

- ولَمَّا كانت كلُّ جملةٍ مُستقِلَّةً بنَفْسِها أبرَزَ اسْمَ كانَ بلَفْظِ المظْهَرِ: ﴿قَمِيصُهُ﴾، ولم يُضمِرْ ويَقُلْ: (إن كان قُدَّ) لِيَدُلَّ على الاستقلالِ، ولكونِ التَّصريحِ به أوضَحَ(٥).

٦- قولُه تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

- قولُه: ﴿يُوسُفُ﴾ حَذَف منه حَرْفَ النِّداءِ؛ لأنَّه مُنادًى قريبٌ، مُفاطِنٌ(٦)

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

(٦) فاطَنه في الكلامِ، أي: راجَعه. يُنظر ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٥١١).

للحديثِ، وفيه تقريبٌ له، وتلطيفٌ لِمَحلِّه(١).

- قولُه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ جملةُ ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ عطفٌ على جملة ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ وهو عطفُ أمرٍ على أمرٍ، والمأمورُ مُختلِفٌ؛ فبَعدَ أنْ خاطبَها بأنَّ ما دَبَّرتْه هو من كيدِ النِّساءِ وجَّه الخِطابَ إلى يُوسُفَ عليه السَّلامُ بالنِّداء، ثم أعادَ الخِطابَ إلى المرأةِ، وهذا الأسلوبُ من الخِطابِ يُسمَّى بالإقبالِ، وقد يُسمَّى بالالتفاتِ بالمعنى اللُّغويِّ، وهو عزيزٌ في الكلامِ البَليغِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ بلَفْظِ التَّذكيرِ تَغليبًا للذُّكورِ على الإناثِ؛ لأنَّه لم يَقصِدْ بذلك قصْدَ الخبَرِ عن النِّساءِ، وإنَّما قصَد به الخبَرَ عمَّن يفعَلُ ذلك فيَخطَأُ، ولأنَّ الخاطِئين أعَمُّ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٢).

الآيات (٣٠-٣٥)

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَغَفَهَا﴾: أي: أصاب حبُّه شَغافَ قلبها، والشَّغافُ: غِلافُ القَلبِ(١).

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾: أي: هَيَّأَتْ وأعَدَّتْ، وأصلُه مِن الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ(٢).

﴿مُتَّكَـًٔا﴾: أي: مجلسًا يُتكأُ فيه، أو وَسائِدَ يُتكأُ عليها، وأصلُ (وكأ): يدلُّ على شدِّ شيءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٣).

قال محمد رشيد رضا: (والاتكاءُ على الشَّيءِ هو التمكُّنُ بالجلوسِ عليه، أو الاعتمادُ عليه باليدِ أو اليديْنِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٤١)، ويُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٣).

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾: أي: أجلَلْنَه وأعظَمْنَه، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ(١).

﴿حَاشَ لله﴾: أي: معاذَ اللهِ، وتنزيهًا له؛ من المحاشاةِ: وهي التَّخليةُ والتَّبعيدُ(٢).

﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾: أي: امتنَعَ، وتحرَّى ما يَعصِمُه، وأصلُ (عصم): يدلُّ على إمساكٍ، ومَنعٍ، ومُلازمةٍ(٣).

﴿أَصْبُ﴾: أي: أمِلْ، يُقال: صَبَا فلانٌ: إذا نزَع واشتاق، وفعَل فعلَ الصِّبيانِ، وأصلُ (صبا): يدلُّ على صِغَرِ السِّنِّ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن شيوعِ خبرِ امرأةِ العزيزِ، وأنَّ نِسوةً في المدينةِ تحَدَّثْنَ به، وقُلنَ مُنكِراتٍ عليها: امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ غُلامَها عن نفسِه، وتدعوه إلى نفسِها، وقد بلَغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا، إنَّا لَنَراها في هذا الفِعلِ في ضلالٍ واضحٍ، فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ بغِيبتِهِنَّ إيَّاها، واحتيالِهِنَّ في ذمِّها، أرسَلَت إليهنَّ تَدعوهنَّ لزيارتِها، وهيَّأَت لهنَّ ما يتَّكِئْنَ عليه مِن الوسائدِ، وما يأكُلنَه مِن الطَّعامِ، وأعطَتْ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٤)، ((مختار الصحاح)) للفيومي (ص: ٧٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٢٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٣).

قال الواحدي: (حاش وحاشا يُستعملان في الاستثناءِ والتبرئةِ، والأصلُ حاشا؛ لأنَّه مِن فاعلِ المحاشاةِ، يُقال: حاشَى يحاشي. والحشاءُ: الناحيةُ). ((الوسيط)) (٢/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّينًا؛ ليُقَطِّعنَ الطَّعامَ، ثمَّ قالت ليوسُفَ: اخرُجْ عليهنَّ، فلمَّا رأينَه أعظَمْنَه وأجلَلْنَه، وأخَذَهنَّ حُسنُه وجَمالُه، فجَرَحنَ أيديَهنَّ وهُنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ مِن فَرطِ الدَّهشةِ والذُّهولِ، وقُلنَ مُتعَجِّباتٍ: مَعاذَ اللهِ، ما هذا مِن جِنسِ البشَرِ؛ لأنَّ جمالَه غيرُ مَعهودٍ في البشَرِ، ما هو إلَّا مَلَكٌ كريمٌ مِن الملائكة.

قالت امرأةُ العزيزِ للنِّسوةِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ: فهذا- الذي أصابَكنَّ في رؤيَتِكنَّ إيَّاه ما أصابَكنَّ- هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، ولقد راودتُه عن نفسِه، فامتنَعَ وأبى، ولئِنْ لم يفعَلْ ما آمُرُه به لَيُعاقَبَنَّ بدخولِ السِّجنِ، ولَيكونَنَّ مِن الأذلَّاءِ.

قال يوسُفُ مُستعيذًا مِن شَرِّهنَّ ومَكرِهنَّ: يا ربِّ، السِّجنُ أحَبُّ إليَّ ممَّا يدعونَني إليه مِن عمَلِ الفاحِشةِ، وإنْ لم تدفَعْ عنِّي مَكرَهنَّ أَمِلْ إليهِنَّ، وأكُنْ مِن الجاهلينَ، فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دعاءَه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأةُ العزيزِ وصَواحِباتُها مِن معصيةِ الله، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لدُعاءِ يوسُفَ، ودُعاءِ كُلِّ داعٍ مِن خَلقِه، العليمُ بمَطلبِه وحاجتِه وما يُصلِحُه، وبحاجةِ جميعِ خَلقِه وما يُصلِحُهم، ثمَّ ظهر للعزيزِ وأصحابِه- من بعدِ ما رأَوا الأدلَّةَ على براءةِ يوسُفَ وعِفَّتِه- أن يسجُنوه إلى مُدَّةٍ مِن الزَّمَنِ؛ لينقطِعَ بذلك الخبرُ، ويتناساه النَّاسُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: وقال نساءٌ في مدينة مصرَ: امرأةُ العزيزِ ذاتُ القَدرِ الكبيرِ تُراوِدُ غُلامَها

عن نَفسِه، وتدعوه إلى مواقَعتِها(١)!

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾.

أي: قد وصل حُبُّ فتاها إلى شَغافِ قَلبِها، وبلغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا(٢)!

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنَّا لنرى امرأةَ العزيزِ في خطأٍ واضحٍ في مُراودتِها فتاها، وحُبِّها له(٣).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١١٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

قال ابنُ القَيِّم: (يُقال: شُغِفَ بكذا. فهو مَشْغوفٌ به. وقد شَغَفه المحبوبُ. أي وصَل حُبُّه إلى شَغافِ قلبِه. كما قال النِّسوةُ عن امرأةِ العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أَحدُها: أنَّه الحُبُّ المستولي على القلبِ، بحيثُ يَحجُبُه عن غيرِه. قال الكلبيُّ: حَجب حُبُّه قلبَها حتَّى لا تعقلُ سِواه.

الثَّاني: الحُبُّ الواصِلُ إلى داخِلِ القلبِ. قال صاحِبُ هذا القَول: المعنى أحَبَّته حَتَّى دَخَل حُبُّه شَغافَ قلبِها، أي داخِلَه.

الثَّالِث: أنَّه الحُبُّ الواصِل إلى غِشاءِ القلبِ. والشَّغافُ غِشاءُ القلبِ إذا وَصَل الحُبُّ إليه باشَر القلبَ. قال السُّدِّيُّ: الشَّغافُ جلدَة رقيقةٌ على القلبِ. يقولُ: دَخَله الحُبُّ حتَّى أصابَ القلبَ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

أي: فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ مقالةَ⁽¹⁾ النِّساءِ اللاتي تكلَّمْنَ عن مراوَدتِها يوسُفَ، وشِدَّةِ حُبِّها له، أرسلَتْ إليهنَّ تدعوهنَّ إلى بَيتِها؛ لتُضيفَهُنَّ⁽²⁾.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله: ﴿مُتَّكَأً﴾ قراءتان:

١- ﴿مُتَّكًا﴾: مشددُ التاءِ دونَ همزٍ، وفيها وجهان: أحدهما: أن يكونَ أصلُه ﴿مُتَّكَأً﴾ كالقراءةِ الأُخرَى، وإنما خُفِّفَ همزُه. والثاني: أن يكونَ مُفْتَعَلًا، مِن: أوكَيْتُ القِرْبةَ إذا شَدَدْتَ فاها بالوِكاءِ، فالمعنى: أَعْتَدَتْ شيئًا يَشْتَدِدْنَ عليه: إمَّا بالاتِّكاءِ، وإمَّا بالقطعِ بالسِّكِّينِ⁽³⁾.

٢- ﴿مُتَّكَأً﴾: والمتَّكأُ الشيءُ الذي يُتَّكَأُ عليه من وسادةٍ ونحوِها. وقيل: المتكأ: مكان الاتِّكاء. وقيل غيرُ ذلك⁽⁴⁾.

---

(١) إنَّما سُمِّي قولُهنَّ مَكرًا؛ لأنَّ قولَهنَّ لم يكُنْ على وجه النَّصيحةِ، والنَّهيِ عن المُنكَر، ولكن كان على وجهِ الشَّماتةِ والتَّعيير، وسيأتي في الفوائدِ العلميةِ بيانُ ما اشتَمل عليه كلامُهنَّ مِن وجوهِ المكرِ، أو لأنَّ النِّسوةَ قُلنَ ما قُلنَه استدعاءً لرؤيةِ يوسُفَ، والنَّظَرِ إلى وجهِه، فعِبْنَها بحُبِّها يوسُفَ؛ لتُريَهنَّ يوسُفَ- وكان يوصَفُ لهنَّ حُسنُه وجمالُه- فلمَّا كان هذا القولُ منهنَّ طمعًا في أن يكونَ سببًا لمشاهدةِ يوسُفَ، سُمِّيَ مكرًا، لَمَّا خالفَ ظاهرُه باطِنَه؛ وذلك أنهنَّ قَدَّرنَ أنَّ هذا القولَ إذا اتَّصلَ بها، أبرَزَت لهنَّ يوسُفَ ليَعذُرنَها، ويُزِلنَ العيبَ عنها. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: ٢٤٦)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧٧).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) للنيسابوري (ص: ٢٤٦)، ((النشر)) =

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

أي: وهيَّأت لهنَّ مجلِسًا يتَّكِئنَ عليه، مِن الوسائدِ والفُرُشِ(١).

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.

أي: وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ مِن النِّساءِ اللَّاتي حَضَرنَ مَجلِسَها سِكِّينًا؛ لتُقَطِّعَ به ما يحتاجُ إلى تقطيعٍ مِن الطَّعامِ(٢).

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي: وقالت ليوسُفَ: اخرُجْ على هؤلاءِ النِّسوةِ(٣).

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

= لابن الجزري (١/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

قال الرسعني: (أعَدَّتْ وهَيَّأتْ لهنَّ مجلسًا يتكِئْنَ عليه من النَّمارق والفُرشِ، كعادةِ المترفين. هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم: هو المجلسُ المعدُّ، فيه مفارشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقْطَعُ بالسَّكاكِينِ من أُتْرُجٍّ ونحوِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المتَّكأُ: محَلُّ الاتِّكاءِ. والاتِّكاءُ: جِلسةٌ قريبةٌ من الاضطجاعِ على الجَنبِ مع انتصابٍ قليلٍ في النِّصف الأعلى، وإنَّما يكونُ الاتِّكاءُ إذا أُريدَ إطالةُ المكثِ والاستراحة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

أي: فخرج يوسفُ عليهنَّ، فلمَّا رأى النِّسوةُ يوسُفَ أعظَمْنَ جمالَه، وأجلَلْنَ قَدْرَه(١).

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أي: وجَرحنَ أيديَهنَّ بالسَّكاكينِ، وهُنَّ يَحسَبنَ أنَّهنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ لدَهشتِهنَّ بما رأينَ مِن جمالِ يوسُفَ(٢).

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾.

أي: وقالت النِّسوةُ: مَعاذَ اللهِ، وتنزيهًا له(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).

وممن قال بنحوِ المعنَى المذكورِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادَةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٦).

قال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّ هذا خدشٌ وجرحٌ بِلَا إبانةٍ، وقال بعضُهم: إنَّهنَّ قطَّعْنَ أيديَهنَّ على تحقيقِ قطعِ اليدِ جملَةً، والأوَّلُ أصحُّ. يُقَال: قطَع فلانٌ يدَه إذا خدَشها وجرَحها). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

قال الواحدي: (ومعنى ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ صار يوسفُ في حشا أي: في ناحيةٍ مما قُذف به أي: لم يلابسْه، كأنَّ المعنى: بعُد يوسفُ عن هذا الذي رُمِي به، أي: لخوفِه ومراقبتِه أمرَه، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، قالوا: هذا تنزيهٌ ليوسفَ عما رَمَتْه به امرأةُ العزيزِ، وقال آخرونَ: هذا تنزيهٌ له مِن تهمةِ البشرِ؛ لفرطِ جمالِه، يدلُّ على هذا سياقُ الآيةِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٦١٠).

وممن قال بالمعنى الثاني: الواحديُّ، وابنُ الجوزيِّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٦).

وقال القاسمي: (أي تنزيهًا له سبحانَه عن صفاتِ النقصِ والعجزِ، وتعجبًا مِن قدرتِه على مثلِ ذلك الصنعِ البديعِ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٢).

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ما هذا مِن البشَرِ، ما هو إلَّا ملَكٌ مِن الملائكةِ، كريمٌ على اللهِ(١).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الإسراءِ والمِعراجِ الطَّويلِ: قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ثمَّ عُرِجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثة، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِح لنا، فإذا أنا بيوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذا هو قد أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ))(٢).

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ للنِّسوةِ لَمَّا رأت افتِتانَهنَّ بيوسُفَ: فهذا الذي أصابَكنَّ حين نظرتنَّ إليه ما أصابكُنَّ؛ مِن الذهولِ وغيابِ العقل، حتَّى قطَّعتنَّ أيديَكنَّ - هو الفتَى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، وعيَّرتُموني في مُراودتي له، وحُبِّي إيَّاه(٣)!

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقَرَّرَ عِندهُنَّ جَمالُ يُوسُف الظَّاهِر، وأَعْجَبَهُنَّ غايَة، وظَهَرَ مِنهُنَّ مِن العُذْرِ لِامْرَأةِ العزيز شَيْءٌ كَثيرٌ -أَرادَت أن تُريهنَّ جَمالَه الباطِنَ بالعِفَّةِ التَّامَّة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٠، ١٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٢، ٢٤٣).

فقالت⁽¹⁾:

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾.

أي: ولقد راوَدْتُ يوسُفَ عن نَفسِه فدَعوتُه إلى الفاحشةِ، فامتنَعَ⁽²⁾.

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

أي: وَلَئِن لم يفعَلْ يوسُفُ ما آمُرُه به لَيُلقَيَنَّ في السِّجنِ، ولَيكونَنْ من الأذلَّاءِ المُهانِينَ⁽³⁾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ يوسُفُ أنَّ القُوَّةَ البشَرِيَّةَ والطَّاقةَ الإنسانيَّةَ لا تفي بحُصولِ هذه العِصمةِ القَويَّةِ، فعند هذا التجأ يوسُفُ عليه السَّلامُ إلى الله تعالى⁽⁴⁾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾.

أي: قال يوسُفُ مُتضَرِّعًا إلى الله: يا ربِّ، دخُولي السِّجنَ، وتحمُّلُ مَشاقِّه أفضَلُ لديَّ وأهوَنُ ممَّا يَدعونَني إليه مِن مَعصيتِك، ويُراوِدنَني عليه مِن الفاحِشةِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٥).

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: وإنْ لم تدفَعْ عنِّي كيدَ أولئك النِّسوةِ أمِلْ إليهنَّ لضَعفي، وأُتابِعْهنَّ على ما يُرِدْنَ منِّي، وأكُنْ من الجاهلينَ بحقِّك، المُخالفينَ لأمرِك ونَهيِك، فاعصِمْني، ولا تَكِلْني إلى نَفسي⁽¹⁾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دُعاءَه، فدفع عنه ما أرادَت منه امرأةُ العزيزِ وصواحِباتُها مِن معصيةِ الله⁽²⁾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لدُعاءِ يوسُفَ حين دعاه، ويسمَعُ كُلَّ داعٍ مِن خَلقِه، العليمُ بمَكرِ النِّسوةِ، وبنيَّةِ يوسُفَ وحاجتِه وبما يُصلِحُه، ويعلمُ جميعَ أحوالِ عبادِه⁽³⁾.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ثمَّ ظهَر للعزيزِ وأصحابِه من بعدِ ما رأَوُا الأدلَّةَ المُبَرِّئةَ ليوسُفَ أنَّ المصلَحةَ في إيداعِه السِّجنَ مدَّةً مِن الزَّمَن⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧). =

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ فيه الحذَرُ مِن المحبَّةِ التي يُخشى ضَررُها؛ فإنَّ امرأةَ العزيزِ جرى منها ما جرى، بسبَبِ توحُّدِها بيوسُفَ، وحُبِّها الشَّديدِ له، الذي ما ترَكَها حتى راودَتْه تلك المُراوَدةَ، ثمَّ كذَبَت عليه، فسُجِنَ بسَبَبِها مدَّةً طويلةً⁽¹⁾.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هكذا ينبغي للعبدِ إذا ابتُلِيَ بين أمرينِ: إمَّا فِعلِ مَعصيةٍ، وإمَّا عُقوبةٍ دُنيويَّةٍ، أن يختارَ العُقوبةَ الدُّنيويَّةَ على مواقَعةِ الذَّنبِ المُوجِبِ للعُقوبةِ الشَّديدةِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا مِن علاماتِ الإيمانِ: أن يكرهَ العبدُ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ⁽²⁾.

٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، مَن احْتَمَل الهَوانَ والأذَى في طاعَةِ اللَّهِ على الكَرامَةِ والعِزِّ في مَعْصيةِ اللَّهِ-كما فَعَل يُوسفُ عليه السَّلامُ وغيرُه مِنَ الأنبياءِ والصَّالحينَ- كانتِ العاقِبةُ له في الدُّنيا والآخرةِ، وكان ما حَصَل له مِنَ الأذَى قد انقَلَب نَعيمًا وسُرورًا، كما أنَّ ما يحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِنَ التَّنعُّمِ بالذُّنوبِ ينقَلِبُ حُزنًا وثُبورًا⁽³⁾.

٤- ينبغي للعبدِ أن يلتجئَ إلى اللهِ، ويحتميَ بحِماه عند وجودِ أسبابِ

= قال ابن كثير: (فكأنَّهم- والله أعلم- إنَّما سجنوه لَمَّا شاع الحديثُ؛ إيهامًا أنَّ هذا راودَها عن نفسِها، وأنَّهم سَجَنوه على ذلك؛ ولهذا لَمَّا طلبه الملِكُ الكبيرُ في آخر المدَّة، امتنع من الخروجِ حتى تتبيَّنَ براءتُه ممَّا نسب إليه من الخيانة، فلمَّا تقرَّرَ ذلك خرج وهو نقيُّ العِرضِ- صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٢).

المَعصيةِ، ويتبَرَّأَ مِن حولِه وقُوَّتِه؛ لقولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

٥- قال الله تعالى عن يوسُفَ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فاختار السِّجنَ على الفاحِشةِ، ثمَّ تبرَّأ إلى اللهِ مِن حَولِه وقُوَّتِه، وأخبَرَ أنَّ ذلك ليس إلَّا بمعونةِ اللهِ له وتوفيقِه وتأييدِه لا مِن نَفسِه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا يركَن العبدُ إلى نفسِه وصَبرِه وحالِه وعِفَّتِه، ومتى ركَنَ إلى ذلك تخلَّت عنه عِصمةُ اللهِ، وأحاط به الخذلانُ؛ وقد قال اللهُ تعالى لأكرمِ الخَلقِ عليه وأحبِّهم إليه، صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[2] [الإسراء: ٧٤]. فكيف بمن يُعرِّضُ نفسَه للفتنةِ بالخلوةِ أو المخالطةِ للأجنبياتِ أو بالسفرِ إلى بلادٍ تكثرُ فيها الفتنُ، ويزعمُ أنَّه واثقٌ مِن نفسِه.

٦- الجَهلُ- كما يُطلَقُ على عدمِ العِلمِ- يُطلَقُ على عدَمِ الحِلمِ، وعلى ارتكابِ الذَّنبِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] ليس المعنى في ذلك عدَمَ العِلمِ، وإنَّما هو عدمُ العمَلِ به، واقتحامُ الذُّنوبِ، ومنه قولُ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، وكلُّ من عصى الله فهو جاهِلٌ باعتبارِ عدمِ العمَلِ بالعِلمِ؛ لأنَّ العِلمَ الحقيقيَّ ما زال الجهلُ به، وأوجَبَ العملَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٦).

٧- ابْتُلِي يُوسُف عليه السَّلامُ بِأَمْرٍ لا يَصبِر عليه إلَّا مَن صَبَّرَهُ الله، فإنَّ مُواقَعَة الفِعْل بِحَسْبِ قُوَّةِ الدَّاعِي وزَوالِ المانِع، وكان الدَّاعي هاهنا في غايَةِ القُوَّة، وذلك مِن وُجوهٍ:

أَحَدُها: ما رَكَّبَهُ الله سُبحانه في طبعِ الرَّجُلِ مِن ميلِه إلى المرأَةِ.

الثَّاني: أنَّ يُوسُفَ عليه السَّلامُ كان شَابًّا، وشهوةُ الشَّبابِ وَحِدَّتُه أقوَى.

الثَّالِث: أنَّه كان عَزَبًا، ليس له زَوجَة ولا سُرِّيَّةٌ تَكْسرُ شِدَّةَ الشَّهوةِ.

الرَّابِع: أنَّه كان في بِلادِ غُرْبَةٍ، يَتَأَتَّى للغَريبِ فيها مِن قَضاءِ الوَطَرِ ما لا يَتَأَتَّى له في وطنِه وبينَ أهلِه ومَعارِفِه.

الخامِس: أنَّ المَرأَةَ كانت ذاتَ مَنْصِبٍ وجَمالٍ، بحيث إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِن هَذينِ الأَمرَينِ يَدعو إلى مُواقعتِها.

السَّادِس: أنَّها طَلَبَت وأَرادَت وبَذَلت الجهدَ، فكَفَتْه مُؤْنةَ الطَّلَبِ وذُلَّ الرَّغبةِ إليها؛ بل كانت هي الرَّاغبةَ الذَّليلةَ، وهو العَزيزُ المَرغوبُ إليه.

السَّابِع: أنَّه في دارِها، وتحت سُلطانِها وقَهرِها، بحيثُ يخشَى إن لم يُطاوِعْها مِن أذاها له، فاجْتَمَع داعي الرَّغبةِ والرَّهبةِ.

الثَّامِن: أنَّه لا يخشَى أن تَنُمَّ عليه هي، ولا أحدٌ مِن جِهَتِها، فإنَّها هي الطَّالِبَةُ الرَّاغبةُ، وقد غَلَّقَت الأَبوابَ، وغَيَّبَت الرُّقَباء.

التَّاسع: أنَّه كان في الظَّاهِرِ مَمْلوكًا لها في الدَّار، بحيث يَدخُل ويَخرُج ويَحضُر معها ولا يُنْكَر عليه، وكان الأُنسُ سابِقًا على الطَّلَب وهو مِن أقوَى الدَّواعِي.

العاشِر: أنَّها اسْتَعانَت عليه بأئمَّةِ المكرِ والاحتيالِ، فأَرَتْه إيَّاهنَّ، وشَكَتْ حالَها إليهنَّ؛ لتستعينَ بهنَّ عليه.

الحادي عَشَر: أنَّها تَوعَّدَتْه بالسِّجنِ والصَّغارِ، وهذا نوعُ إكراهٍ، إذ هو تهديدُ مَن يَغلِبُ على الظَّنِّ وُقوعُ ما هَدَّدَ به.

الثَّاني عَشَر: أنَّ الزَّوجَ لم يُظهِرْ مِن الغَيرةِ والنَّخوةِ ما يُفرِّقُ به بينَهما، ويُبْعِدُ كُلًّا منهما عن صاحبِه؛ بل كان غايةُ ما قابَلَها به أن قال لِيُوسُفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وللمرأةِ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، وشِدَّةُ الغَيْرَةِ للرَّجُلِ مِن أَقوَى المَوانِعِ، وهنا لم تَظْهَرْ منه غَيرةٌ.

ومع هذه الدَّواعِي كُلِّها فآثَرَ مَرضاةَ اللهِ وخَوفَه، وحَمَلَه حُبُّه لله على أن اختارَ السِّجنَ على الزِّنا: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وعَلِمَ أنَّه لا يَطيقُ صَرْفَ ذلك عن نَفسِه، وأنَّ رَبَّه تعالى إن لم يعصِمْه، ويصرِفْ عنه كَيدَهنَّ؛ صَبَا إليهنَّ بطبعِه، وكان مِن الجاهلِينَ، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وهذا مِن كمالِ معرفتِه بربِّه وبنفسِه⁽¹⁾.

٨- قَولُه تعالى على لسانِ يوسُفَ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ﴿أَحَبُّ﴾ هنا ليسَتْ على بابِها من التفضيلِ؛ لأنَّه لم يحِبَّ ما يدعونَه إليه قطُّ، وإنَّما هذان شَرَّان، فآثَرَ أحدَ الشَّرَّينِ على الآخرِ، وإن كان في أحدِهما مَشقَّةٌ وفي الآخرِ لَذَّةٌ، لكنْ لِمَا يترتَّبُ على تلك اللذَّةِ مِن معصيةِ اللهِ وسُوءِ العاقبةِ، لم يخطُرْ له ببالٍ، ولِمَا في الآخَرِ مِن احتمالِ المشقَّةِ في ذاتِ الله، والصَّبرِ على النَّوائبِ، وانتظارِ الفرَجِ، والحضورِ مع الله تعالى في كلِّ وقتٍ داعيًا له في تخليصِه- آثَرَه، ثمَّ ناطَ العِصمةَ بالله، واستسلمَ لله كعادةِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، وأنَّه تعالى لا يَصرِفُ السُّوءَ إلَّا هو⁽²⁾.

---

(1) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠)، وينظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٨، ١٣٩).

(2) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).

٩- في قولِه تعالى عن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ طَلَبُ سؤالِ اللهِ ودُعائِه أنْ يُثَبِّتَ القلبَ على دينِه، ويصرِفَه إلى طاعتِه، وإلَّا فإذا لم يُثَبِّتِ القلبَ صَبَا إلى الآمِرينَ بالذُّنوبِ، وصارَ مِن الجاهلين(١).

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه أنَّ العِلمَ والعَقلَ يدعُوانِ صاحِبَهما إلى الخيرِ، ويَنهَيانِه عن الشَّرِّ، وأنَّ الجَهلَ يدعو صاحِبَه إلى مُوافَقةِ هوى النَّفسِ، وإن كان معصيةً ضارًّا لصاحِبِه(٢).

١١- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإنَّ هذا جَهلٌ؛ لأنَّه آثَرَ لذَّةً قَليلةً مُنَغَّصةً على لذَّاتٍ مُتَتابعاتٍ، وشَهَواتٍ مُتَنَوِّعاتٍ في جنَّاتِ النَّعيمِ، ومَن آثَرَ هذا على هذا فمَنْ أجْهَلُ منه؟! فإنَّ العلمَ والعقلَ يدعو إلى تقديمِ أعظمِ المصلحتينِ وأعظمِ اللَّذَّتينِ، ويُؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبةِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، قوله: ﴿فَتَاهَا﴾ إضافتُه إلى ضميرِ امرأةِ العزيزِ؛ لأنَّه غلامُ زوجِها، فهو غلامٌ لها بالتبعِ، ما دامتْ زوجةً لمالكِه(٤).

٢- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إنْ قيل: فما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٠).

كان مَكرُ النِّسوةِ اللَّاتي مكَرْنَ به، وسمِعَت به امرأةُ العزيزِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه لم يقُصَّه في كتابِه؟

قيل: بلى، قد أشارَ إليه بقَولِه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

وهذا الكلامُ متضَمِّنٌ لوجوهٍ مِن المَكرِ:

أحدها: قولُهنَّ: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ ولم يُسَمُّوها باسمِها، بل ذكَرُوها بالوَصفِ الذي يُنادي عليها بقبيحِ فِعلِها؛ بكَونِها ذاتَ بَعْلٍ، فصُدورُ الفاحشةِ منها أقبَحُ مِن صُدورِها ممَّن لا زوجَ لها.

الثاني: أنَّ زَوجَها عزيزُ مِصرَ ورئيسُها وكبيرُها، وذلك أقبحُ لوقوعِ الفاحشةِ منها.

الثالث: أنَّ الذي تُراوِدُه مملوكٌ لا حُرٌّ، وذلك أبلغُ في القبح.

الرابع: أنَّه فتاها الذي هو في بيتِها وتحت كَنَفِها، فحُكمُه حُكمُ أهلِ البيتِ، بخلافِ مَن طلب ذلك مِن الأجنبيِّ البعيدِ.

الخامس: أنَّها هي المُراوِدةُ الطَّالبةُ.

السادس: أنَّها قد بلغ بها عِشقُها له كلَّ مَبلغٍ، حتى وصل حُبُّها له إلى شَغافِ قَلبِها.

السابع: أنَّ في ضِمنِ هذا أنَّه أعَفُّ منها وأبَرُّ وأوفى؛ حيث كانت هي المُراوِدةَ الطَّالبةَ، وهو المُمتنِعَ؛ عَفافًا وكَرَمًا وحَياءً، وهذا غايةُ الذَّمِّ لها.

الثامن: أنهنَّ أتينَ بفِعلِ المُراوَدةِ بصيغةِ المُستقبَلِ الدَّالَّةِ على الاستمرارِ والوُقوعِ حالًا واستقبالًا، وأنَّ هذا شأنُها، ولم يقُلْنَ: راودَت فتاها. وفَرقٌ بين

قولك: فلانٌ أضاف ضيفًا، وفلانٌ يَقري الضَّيفَ، ويُطعِمُ الطَّعامَ، ويَحمِلُ الكَلَّ؛ فإنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ هذا شأنُه وعادتُه.

التاسع: قولُهنَّ: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي: إنَّا لَنستقبِحُ منها ذلك غايةَ الاستقباحِ، فنَسَبنَ الاستقباحَ إليها، ومِن شأنهنَّ مُساعدةُ بعضِهنَّ بعضًا على الهوى، ولا يَكَدْنَ يرَينَ ذلك قبيحًا، كما يساعِدُ الرِّجالُ بعضُهم بعضًا على ذلك؛ فحيث استقبحْنَ منها ذلك كان هذا دليلًا على أنَّه من أقبحِ الأمورِ، وأنَّه ممَّا لا ينبغي أن تُساعَدَ عليه، ولا يَحسُنُ مُعاونتُها عليه.

العاشر: أنهنَّ جَمَعْن لها في هذا الكلامِ واللَّومِ بين العِشقِ المُفرِط، والطَّلبِ المُفرِط، فلم تقتَصِدْ في حُبِّها، ولا في طَلَبِها؛ أمَّا العِشقُ فقولُهنَّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: وصل حُبُّه إلى شَغافِ قَلبِها، وأمَّا الطَّلَبُ المُفرِطُ فقولُهنَّ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾، والمُراودةُ: الطَّلَبُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، فنَسَبوها إلى شِدَّةِ العِشقِ، وشِدَّةِ الحِرصِ على الفاحِشةِ، فلمَّا سَمِعَت بهذا المكرِ منهنَّ هيَّأتْ لهنَّ مكرًا أبلَغَ منه(١).

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ لَمَّا كان عَزمُها على السَّجنِ أقوى مِن العَزمِ على إيقاعِ الصَّغارِ به، أكَّدَتْه بالنُّونِ الثَّقيلةِ، فقالت: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، وقالت: ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالنُّونِ الخفيفة ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: الأذلَّاء. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الزِّيادةَ في تأكيدِ السَّجنِ؛ لأنَّه يلزَمُ منه إبعادُه، وإبعادُ الحبيبِ أولى بالإنكارِ مِن إهانتِه(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المؤمِنَ إذا ارتكبَ ذَنبًا، يرتكِبُه عن جَهالةٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٧٤-٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٩٧).

٣- في قولِه تعالى عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ رَدٌّ على المعتزلة والجَهميَّة فيما يزعمونَ أنَّ الإنسانَ مالِكُ نفسِه؛ لا يحتاجُ إلى عصمة ربِّه عن المعاصي؛ فهذا نبيُّ اللهِ يوسفُ صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو بصرفِ كيدِهنَّ عنه؛ عِلمًا منه أنَّ العِصمةَ هي التي تُنجيه، وتُحولُ بينه وبينَ المعصيةِ، فأخبر اللهُ عن إجابةِ دعوتِه؛ وصَرَفَ عنه كيدَهنَّ(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ عطفُ استجابةِ رَبِّه له، وصَرْفِ كيدِهنَّ عنه بالفاء الدالَّةِ على التَّعقيبِ، وتَعليلُها بأنَّها مقتضى كمالِ صِفتَي السَّمعِ والعِلمِ- دليلٌ على أنَّ رَبَّه تعالى لم يتخَلَّ عن عنايتِه بتربيتِه أقصَرَ زمَنٍ يهتَمُّ فيه بأمرِ نَفسِه ومُجاهدتِه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ صرَّحَ النِّسوةُ بإضافتِها إلى العزيزِ؛ مُبالغةً في التَّشنيعِ؛ لأنَّ النُّفوسَ أقبَلُ لِسَماعِ ذَوي الأخطارِ وما يَجري لهم(٣).

- قولُه: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ ﴿تُرَاوِدُ﴾ مع كَوْنِ المراوَدةِ مضَتْ؛ لِقَصْدِ استِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ؛ لِقَصدِ الإنكارِ عليها في أنفُسِهنَّ ولَوْمِها على صَنيعِها؛ وللدَّلالةِ على أنَّ ذلك صارَ سجيَّةً لها؛

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٦).

تُخادِعُه دائمًا عن نفسِه(١).

– قولُه: ﴿فَتَاهَا﴾ في التَّعبيرِ عن يوسُفَ عليه السَّلامُ بذلك مُضافًا إليها لا إلى العزيزِ- الَّذي لا تَستلزِمُ الإضافةُ إليه الهوانَ، بل ربَّما يُشعِرُ بنوعِ عزَّةٍ-؛ لإبانةِ ما بينَهما مِن التَّبايُنِ البيِّنِ النَّاشئِ عن المالكيَّةِ والمملوكيَّةِ، وذلك للمُبالَغةِ والإشباعِ في اللَّومِ؛ فإنَّ مَن لا زوجَ لها مِن النِّساءِ، أو لها زوجٌ دَنيءٌ قد تُعذَرُ في مُراوَدةِ الأخدانِ لا سيَّما إذا كان فيهم عُلوُّ الجَنابِ، وأمَّا الَّتي لها زوجٌ وأيُّ زوجٍ! عزيزُ مِصرَ؛ فمُراوَدتُها لغَيرِه- لا سيَّما لِمَن لا كَفاءةَ بينَها وبينَه أصلًا، وتَماديها في ذلك- غايةُ الغيِّ، ونهايةُ الضَّلالِ(٢).

– قولُه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تكريرٌ للَّومِ، وتأكيدٌ للعَذْلِ ببَيانِ اختلالِ أحوالِها القَلبيَّةِ كأحوالِها القالَبيَّةِ(٣).

– ولِمَا في ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ مِن الإجمالِ جِيءَ بالتمييزِ للنِّسبةِ بقولِه: ﴿حُبًّا﴾، وأصله: شغَفَها حبُّه، أي: أصاب حبُّه شغافَها، أي: اخترَقَ الشَّغافَ فبلَغَ القلبَ؛ كنايةً عن التمكُّنِ(٤).

– قولُه: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ جملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ الجُملتَين السَّابقَتين المسوقَتَين لِلَّومِ والتَّشنيعِ، وتَسجيلٌ عليها بأنَّها في أمرِها على خطَأٍ عظيمٍ، وهي استئنافٌ ابتدائيٌّ لإظهارِ اللومِ والإنكارِ عليها. والتأكيدُ بـ(إنَّ) والَّلامِ؛ لتحقيقِ اعتقادهنَّ ذلك، وإبعادًا لتُهمتِهنَّ بأنهنَّ يَحسدْنَها على ذلِك الفتى، وإنَّما لم يَقُلْن: (إنَّها لَفي ضَلالٍ مبينٍ)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٠).

الحُكْمَ غيرُ صادرٍ عنهنَّ مُجازَفةً، بل عن عِلمٍ ورأيٍ، مع التَّلويحِ بأنَّهنَّ مُتنزِّهاتٌ عن أمثالِ ما هي عليه⁽¹⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: حَقُّ (سَمِع) أن يُعَدَّى إلى المسموعِ بنَفسِه، فتَعديَتُه بالباءِ هنا إمَّا لأنَّه ضُمِّن معنى أُخبِرَتْ، كقولِ المثَلِ: «تَسْمَعُ بالمعيديِّ خيرٌ مِن أن تَراه» أي تُخبَرُ عنه. وإمَّا أن تكونَ الباءُ مَزِيدةً للتَّوكيدِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾⁽²⁾ [المائدة: ٦].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَستَدْعيه الأمرُ بالخروجِ، ويَنسحِبُ عليه الكلامُ، والتَّقديرُ: فخرَج عليهِنَّ فرأَينَه، وإنَّما حُذِف تَحقيقًا لِمُفاجَأةِ رُؤيتِهنَّ، كأنَّها تَفوتُ عند ذِكرِ خُروجِه عليهِنَّ، وفيه إيذانٌ بسُرعةِ امتِثالِه عليه السَّلامُ بأمرِها فيما لا يُشاهِدُ مَضرَّتَه مِن الأفاعيلِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في التَّعبيرِ عن الجَرْحِ بالقَطعِ دَلالةٌ على كَثرةِ جَرحِهِنَّ، ومع ذلك لم يُبالينَ بذلك، ولم يَشعُرْنَ به⁽⁴⁾؛ فأطلق عليه القطعَ؛ للمبالغةِ في شِدَّتِه حتَّى كأنَّه قَطَع قطعةً مِن لحمِ اليدِ⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ اللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ للتَّعليلِ، أي: جانَبَ يوسُفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).

المعصيَةَ لأجْلِ طاعةِ اللهِ⁽¹⁾، و﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ تركيبٌ عربيٌّ جرَى مجرَى المَثَلِ؛ يُرادُ منه إبطالُ شيءٍ عن شيءٍ وبراءتُه منه⁽²⁾.

- وقولُهنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ مُبالَغةٌ في فَوْتِه مَحاسِنَ البشَرِ، فمَعناه التَّفضيلُ في مَحاسِنِ البَشَرِ، وهو ضِدُّ معنى التَّشابُهِ في بابِ التَّشبيهِ، ثمَّ شبَّهنَه بواحِدٍ مِن الملائكةِ بطَريقةِ حَصْرِه في جِنْسِ الملائكةِ تَشْبيهًا بَليغًا مؤكَّدًا، وأُطلِقَ في الآيةِ اسْمُ الملَكِ على ما كانتْ حَقيقتُه مُماثِلةً لحقيقةِ مُسمَّى الملَكِ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ تَقريبًا لأَفْهامِ السَّامِعين؛ فهذا التَّشْبيهُ مِن تَشبيهِ المحسوسِ بالمتخيَّلِ⁽³⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ والإشارةُ بما يُشارُ به إلى البعيدِ في قولِها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾، فلم تقُلْ: (فهذا)، مع قربِ المُشارِ إليه وحضورِه؛ رفعًا لمنزلتِه في الحُسنِ، واستبعادًا لمحلِّه فيه، وإشارةً إلى أنَّه لغرابتِه بعيدٌ أن يوجدَ مثلُه⁽⁴⁾.

- وقولُها: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ قيل: إنَّه بناءُ مُبالَغةٍ يدلُّ على الامتناعِ البليغِ، والتَّحفُّظِ الشَّديدِ، كأنَّه في عِصْمةٍ، وهو يَجتَهِدُ في الاستِزادةِ منها، كما في استَمسَكَ واستجمَعَ الرَّأيَ، وفيه بُرهانٌ نيِّرٌ على أنَّه لم يَصدُرْ عنه عليه السَّلامُ شيءٌ مُخِلٌّ باستعصامِه، والمعنى: أنَّه امتنَع امتِناعَ مَعصومٍ، أي: جاعِلًا المراوَدةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٢٣).

خَطيئةً عصَم نفْسَه منها(١)، وقيل: بل ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ موافِقٌ لاعتَصَم؛ فاستَفْعَل فيه مُوافِقٌ لافتَعَل، وهذا أجوَدُ مِن جَعْلِ استَفعَل فيه للطَّلبِ؛ لأنَّ اعتَصَم يَدُلُّ على وُجودِ اعتِصامِه، وطلَبُ العصمةِ لا يَدُلُّ على حُصولِها، وأمَّا أنَّه بناءُ مُبالَغةٍ يَدُلُّ على الاجتهادِ في الاستزادةِ مِن العصمةِ، فلم يَذكُرِ التَّصريفيُّون هذا المعنى لاستَفعَل(٢).

– قولُها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ فيه التَّعبيرُ عن مُراوَدتِها بالأمرِ - وذلك في قولِها: ﴿آمُرُهُ﴾ -؛ إظهارًا لجرَيانِ حُكومتِها عليه، واقتِضاءً للامتثالِ بأمرِها(٣).

– قولُه: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ فيه بناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ جَريًا على رَسْمِ الملوكِ، أو إيهامًا لِسُرعةِ تَرَتُّبِ ذلك على عدَمِ امتِثالِه لأمْرِها؛ كأنَّه لا يَدخُلُ بينَهما فِعلُ فاعِلٍ(٤)، وأكَّدَت حُصولَ سَجْنِه بنُونَيِ التَّوكيدِ، وقد قالت ذلك بمَسمَعٍ منه إرهابًا له(٥).

– قولُها: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث لم يَذكُرْ هنا العذابَ الأليمَ الَّذي ذكَرَتْه في قولِها السَّابِقِ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]؛ لأنَّها إذْ ذاك كانت في طَراوةِ غَيظِها، ومُتنصِّلةً مِن أنَّها هي الَّتي راوَدَتْه، فناسَب هناك التَّغليظُ بالعقوبةِ، وأمَّا هنا فإنَّها في ضَماعيَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٤).

ورَجاءٍ، وأقامَت عُذرَها عِندَ النِّسوةِ، فرَقَّت عليه، فتوَعَّدَتْه بالسَّجنِ⁽¹⁾.

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما حُكِي قَبْلَه مَقامُ شِدَّةٍ، مِن شأنِه أن يَسأَلَ سامِعُه عن حالِ تَلقِّي يوسُفَ عليه السَّلامُ فيه لِكَلام امرأةِ العزيزِ⁽²⁾.

- وقولُه: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكرِ السِّجنِ؛ لأنَّ الصَّغارَ مِن فُروعِه ومُستتبَعاتِه⁽³⁾.

- وعبَّر عما عرَضَتْه المرأةُ بالموصوليَّةِ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى كونِ المطلوبِ حالةً هي مَظِنَّةُ الطواعيةِ؛ لأنَّ تَمالُؤَ الناسِ على طلبِ الشيءِ من شأنِه أن يُوطِّنَ نفسَ المطلوبِ للفِعلِ؛ فأظهرَ أنَّ تمالُؤَهنَّ على طَلَبِهنَّ منه امتثالَ أمْرِ المرأةِ لم يَفُلَّ من صارمِ عزمِه على الممانعةِ، وجعَل ذلك تمهيدًا لسُؤالِ العِصمةِ من الوُقوعِ في شَرَكِ كَيدِهنَّ؛ فانتقَلَ مِن ذِكرِ الرِّضا بوعيدِها إلى سؤالِ العِصمةِ مِن كيدِها⁽⁴⁾.

- وأُسنِد فِعْلُ ﴿يَدْعُونَنِي﴾ إلى ضَميرِ جَمْعِ النِّساءِ (نونِ النِّسوةِ) مع أنَّ الَّتي دعَتْه امرأةٌ واحدةٌ؛ إمَّا لأنَّ تلك الدَّعوةَ مِن رَغَباتِ صِنفِ النِّساءِ؛ فيَكونُ على وِزَانِ جَمْعِ الضَّميرِ في ﴿كَيْدَهُنَّ﴾، وإمَّا لأنَّ النِّسوَةَ اللَّاتي جمَعَتْهنَّ امرأةُ العزيزِ لَمَّا سَمِعْن كلامَها تَمالَأْن على لَوْمِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وتَحريضِه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).

إجابةِ الدَّاعيَةِ، وتَحْذيرِه مِن وَعيدِها بالسِّجنِ⁽¹⁾، وقيل: دعَوْنه إلى أنفُسِهنَّ⁽²⁾.

- وجملةُ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّخوُّفِ والتَّوقُّعِ؛ الْتِجاءً إلى اللهِ ومُلازَمةً للأدَبِ نحوَ ربِّه؛ بالتَّبرُّؤِ مِن الحولِ والقوَّةِ، والخشيةِ مِن تَقلُّبِ القلبِ، ومِن الفتنةِ بالميلِ إلى اللَّذَّةِ الحرامِ؛ فالخبرُ مُستعمَلٌ في الدُّعاءِ؛ ولذلك فرَّع عنه جُملةَ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾⁽³⁾.

- قولُه: ﴿أَصْبُ﴾ كلمةٌ مُشعِرةٌ بالمَيلِ فقَط، لا بمُباشَرةِ المعصيةِ⁽⁴⁾.

٥- قولُه تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فيه العطفُ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ عجَّل إجابةَ دُعائِه الَّذي تَضمَّنه قولُه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾⁽⁵⁾، وفي إسنادِ الاستجابةِ إلى الرَّبِّ مضافًا إلى يوسُفَ عليه السَّلامُ ما لا يَخفَى مِن إظهارِ اللُّطفِ⁽⁶⁾.

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في موضِعِ العِلَّةِ لقولِه: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ المعطوفِ بفاءِ التَّعقيبِ، أي: أجاب دُعاءَه بدُونِ مُهلَةٍ؛ لأنَّه سَريعُ الإجابةِ، وعليمٌ بالضَّمائرِ الخالصةِ⁽⁷⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٦٧).

الآيات (٣٦-٤٢)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّىٓ
أَرَىٰنِىٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِى خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
(٣٦) قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعۡتُ
مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن
فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجۡنِ
ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ
سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا
تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠) يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِى رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ
قُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِى عِندَ
رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مِلَّةَ﴾: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي: أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين)⁽¹⁾.

﴿الْقَيِّمُ﴾: أي: المستقيمُ الذي لا عِوجَ فيه، أو: القائمُ الدائمُ الذي لا يزولُ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مراعاةِ الشيءِ وحِفظِه⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١١)، ((تذكرة =

﴿بِضْعَ﴾: البِضْعُ هو ما بينَ الثَّلاثِ إلى العَشرةِ(١)، وقيل غير ذلك، واشتقاقُه مِن (بَضَعْت) بمعنَى (قَطَعت)، ومعناه القطعةُ مِن العَدَدِ، وأصلُ (بضع): يدلُّ على طائفةٍ مِن الشَّيءِ عُضْوًا أو غيرَه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ يوسفَ عليه السلامُ دخَل معه السجنَ فتيانِ، وأنَّ أحدَهما قال: إنِّي رأيتُ في المنام أنِّي أعصِرُ عِنبًا ليصيرَ خَمرًا، وقال الآخرُ: إنِّي رأيتُ أنِّي أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكلُ الطَّيرُ منه، أخبِرْنا- يا يوسُفُ- بتفسيرِ ما رأينا، إنَّا نراك من المحسنين. قال لهما يوسفُ: لا تريانِ في مَنامِكما طَعامٌ تُرزَقانِه إلَّا أخبَرتُكما بتفسيره في اليقَظةِ قبل أن يأتيَكما، ذلك التَّعبيرُ الذي سأعبِّرُه لكما ممَّا علَّمَني ربِّي؛ إنِّي آمنتُ به، وأخلصتُ له العبادةَ، وابتعدتُ عن دينِ قَومٍ لا يُؤمِنونَ بالله، وهم بالبَعثِ والحِسابِ جاحِدونَ، واتَّبَعتُ دينَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فعبدتُ الله وَحدَه، ما كان لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه. ذلك التَّوحيدُ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، ممَّا تفضَّلَ الله به علينا وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يشكُرونَ.

وقال يوسُفُ للفَتَيينِ اللَّذينِ معه في السِّجنِ: يا ساكِنَي السِّجنِ، أعبادةُ آلهةٍ مخلوقةٍ شَتَّى خيرٌ أم عبادةُ اللهِ الواحدِ القَهَّارِ؟ ما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءَ لا معانيَ وراءَها، جعلتُموها أنتم وآباؤكم أربابًا، جهلًا منكم وضلالًا، ما أنزل

= الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٠٩).

(١) قال ابنُ عطية: (و«بِضع» في كلامِ العربِ اختُلِف فيه، فالأكثرُ على أنَّه مِن الثلاثةِ إلى العشرةِ، قاله ابنُ عباسٍ). ((تفسير ابن عطيَة)) (٣/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

اللهُ مِن حُجَّةٍ أو برهانٍ على صِحَّتِها، وما الحُكمُ إلَّا لله تعالى وَحدَه لا شريكَ له، أمَرَ ألَّا تعبُدوا أحدًا غيرَه، وهذا هو الدِّينُ القيِّمُ الذي لا عِوَجَ فيه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ يجهَلون ذلك، فلا يعلمونَ حقيقتَه.

يا ساكِنَي السِّجنِ، إليكما تفسيرَ رُؤياكما: أمَّا أحدُكما فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويكونُ ساقيَ الخَمرِ للمَلِك، وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُصلَبُ ويُترَكُ، فتأكُلُ الطَّيرُ مِن رأسِه، قُضيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيانِ وفُرِغَ منه، وقال يوسُفُ للذي عِلمَ أنَّه ناجٍ من صاحِبَيه: اذكُرني عند سيِّدِك المَلِك، وأخبِرْه بأنِّي مظلومٌ، قد سُجِنْتُ بلا ذَنبٍ، فأنسَى الشَّيطانُ ذلك الرَّجُلَ أن يَذكُرَ للمَلِك حالَ يوسُفَ، فمكثَ يوسُفُ بعد ذلك في السِّجنِ عِدَّةَ سَنواتٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكرَ السِّجنَ وكان سببًا ظاهِرًا في الإهانةِ، شَرعَ سُبحانه يقُصُّ مِن أمْرِه فيه ما حاصِلُه أنَّه جعَلَه سببَ الكرامةِ، كلُّ ذلك بيانًا للغَلَبةِ على الأمرِ، والاتِّصافِ بصِفاتِ القَهرِ، مع ما في ذلك مِن بيانِ تحقُّقِ ما تقدَّمَ به الوعدُ الوفيُّ ليوسُفَ عليه السَّلامُ، وغير ذلك مِن الحِكَم⁽¹⁾.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾

أي: فسَجَنوا يوسُفَ، ودخل معه السِّجنَ شابَّانِ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾.

أي: قال أحدُ الشَّابَّينِ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أعصِرُ عِنبًا(١).

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾.

أي: وقال الشَّابُّ الآخَرُ ليوسُفَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أحمِلُ على رأسي خُبزًا تنهَشُ الطَّيرُ منه(٢).

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾.

أي: أخبِرْنا بتفسيرِ ما رَأينا في منامِنا(٣).

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنَّا نراك من المُحسِنينَ(٤)، فأحسِنْ إلينا بتعبيرِ رُؤيانا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٨).

قال الواحدي: (معنى ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أعصِرُ عنبَ خَمرٍ، أي: العنبَ الذي يكونُ عصيرُه خمرًا، فحُذِفَ المضافُ، وقال الزجَّاج وابن الأنباري: العربُ تسمِّي الشيءَ باسمِ ما يؤولُ إليه الشيءُ، إذا انكشف المعنى ولم يلتبِسْ؛ يقولون: فلانٌ يطبُخُ الآجُرَّ ويطبُخُ الدِّبسَ، وإنما يطبخُ اللَّبِنَ والعصيرَ. وقومٌ يقولون: إنَّ بعضَ العرَبِ يسمُّونَ العنبَ خَمرًا). ((الوسيط)) (٢/ ٦١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

(٤) اختُلف في معنى ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقيل: أي: إلى أهلِ السِّجنِ، وقيل: مِن الذين يحسنونَ عبارةَ الرُّؤيا، أو مِن المحسنينَ في العلمِ، وقيل: مِن المحسنينَ إلينا إن فسَّرتَ لنا ما رأيناه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٧).

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا وصَفاه بالإحسانِ، ورأى منهما ميلًا إليه، ووثاقًا به؛ أخَذ في استدراجِهما في التوحيدِ الذي هو المقصودُ الكليُّ مِن أصلِ التخليقِ، قبلَ الشُّروعِ في عبارةِ الرُّؤيا(١).

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾.

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّين: لا تريانِ في مَنامِكما طعامًا يأتيكما إلَّا أخبرتُكما بتعبيرِه في اليَقَظةِ قبلَ أن يقعَ(٢).

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٣٩).

(٢) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩، ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٨).

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: مجاهدٌ، والسديُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٥٩).

قال ابن تيميةَ: (هذا قولُ أكثرِ المفَسِّرينَ، وهو الصَّوابُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٦٥). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢٣).

وقيل: المعنى: لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقانِه في اليقَظةِ إلَّا أخبرتُكما به قبل أن يصِلَ إليكما؛ لأنَّه كان يخبِرُ بما غابَ، فيقولُ: اليومَ يأتيكما طعامٌ مِن صفتِه كيت وكيت، فيجدانِه كما أخبَرهما.

ومِمن قال بهذا القول: الزجَّاجُ، والزمخشري، والقرطبي، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٥).

ومِمن قال به مِن السلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٣٩).

أي: هذا العِلمُ بتعبيرِ الرُّؤى ممَّا علَّمَني ربِّي(١).

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

أي: إنِّي تبرَّأتُ مِن مِلَّةِ الكُفَّارِ الذين لا يؤمِنونَ بالله وبوَحدانيَّتِه، ولا يُقِرُّونَ بالبعثِ ولا بالثَّوابِ والعِقابِ يومَ الحِسابِ(٢).

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: واتَّبعتُ دينَ آبائي الأنبياءِ؛ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- الذين دعَوا إلى توحيدِ اللهِ(٣).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((قيل يا رسولَ الله: من أكرَمُ النَّاسِ؟ قال: أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: فيوسُفُ نبيُّ اللهِ، ابنُ نبيِّ اللهِ، ابنِ نبيِّ اللهِ، ابنِ خَليلِ اللهِ))(٤).

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

قال الواحدي: (﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي: لم أُخبِرْكما على جهةِ التكهُّنِ والتنجُّم، وإنَّما أُخبِرُكما بوحيٍ مِن الله وعِلم). ((البسيط)) (١٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٢).

(٤) رواه البخاري (٣٣٥٣) ومسلم (٢٣٧٨).

أي: ما ينبغي لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه وطاعتِه(١).

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ذلك التَّوحيدُ- الذي أكرَمَنا اللهُ تعالى به- ممَّا تفضَّلَ به علينا، وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه وطاعتِه(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، فيُؤمِنونَ به ويُوحِّدونَه، ويعملونَ بما شرَعه لهم، بل يُشركونَ(٣).

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر ما هو عليه مِن الدينِ الحنيفيِّ؛ تلطَّف في حسنِ الاستدلالِ على فسادِ ما عليه قومُ الفتَيَينِ مِن عبادةِ الأصنامِ، فناداهما باسْمِ الصُّحبةِ في المكانِ الشَّاقِّ الَّذي تخلُصُ فِيه المودَّةُ، وتتمحَّضُ فيه النَّصيحَةُ، ثُمَّ أورَد الدَّليلَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩).

قال الشوكاني في قولِه: ﴿وعلى الناس﴾ أي: (ومِنْ فضلِ اللَّهِ على النَّاسِ كافَّةً ببعثةِ الأنبياءِ إليهم، وهدايَتِهم إلى ربِّهم، وتبيينِ طرائقِ الحقِّ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٣).

وقال ابنُ الجوزي: (﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين بأن دلَّهم على دينِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٣).

بُطلانِ مِلَّةِ قومِهما(١)، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: قال يوسُفُ للشَّابَّينِ: يا ساكِنَي السِّجنِ(٢)، آآلهةٌ شتَّى لا تنفَعُ ولا تضُرُّ خيرٌ، أم المعبودُ الواحِدُ الذي لا ثانيَ له في ذاته وصفاتِه وكمالِه، الذي قهرَ كلَّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه(٣)؟!

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾.

أي: ما تعبُدونَ(٤) مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءَ سمَّيتُموها آلهةً أنتم وآباؤُكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).

(٢) المراد بقولِه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أي: يا ساكِنَي السِّجنِ، فجَعَلهما مُصاحبَيْنِ للسِّجنِ؛ لطولِ مُقامِهما فيه، وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٢).
وقيلَ: المرادُ: يا صاحِبَيَّ في السِّجنِ؛ لأنَّ السِّجنَ ليس بمصحوبٍ، بل مصحوبٍ فِيهِ، وممن اختار هذا القولَ: الخازنُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٣، ١٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) قال ابن جرير: (وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقد ابتدأ الخِطاب بخطابِ اثنين، فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾؛ لأنَّه قصدَ المخاطَبَ به ومن هو على الشِّركِ باللهِ مُقيمٌ من أهلِ مِصرَ، فقال للمُخاطَب بذلك: ما تعبدُ أنت ومَن هو على مثلِ ما أنت عليه مِن عبَدةِ الأوثانِ ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥).
وقال البغوي: (وإنَّما ذُكِرَ بلَفظِ الجَمعِ وقد ابتدأ الخطاب للاثنينِ؛ لأنَّه أراد جميعَ أهلِ السِّجنِ وكلَّ مَن هو على مِثلِ حالِهما مِن أهلِ الشِّركِ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٣).

واعتقَدتُم ألوهيَّتَها، وليست في الحقيقةِ بآلهةٍ تستَحِقُّ العبادةَ(١).

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾.

أي: لم يُنزِلِ اللهُ أيَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على ثبوتِ أسماءِ تلك الآلهةِ الباطلةِ، ولا على استحقاقِها للعبادةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: ما الحُكمُ إلَّا للهِ المُستحِقِّ للعبادةِ دونَ ما سواه؛ فهو وحدَه الحاكِمُ بين عبادِه، المشَرِّعُ لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).
قال ابن القيم: (هي مُجرَّدُ أسماءٍ كاذبةٍ باطلةٍ، لا مُسمًّى لها في الحقيقةِ؛ فإنَّهم سَمَّوها آلهةً وعَبَدوها؛ لاعتقادِهم حقيقةَ الإلهيَّةِ لها، وليس لها من الألوهيَّةِ إلَّا مجردُ الأسماءِ، لا حقيقةُ المُسمَّى، فما عبدوا إلا أسماءً لا حقائقَ لمُسمَّياتها، وهذا كمَن سمَّى قشورَ البصَلِ لحمًا وأكَلَها، فيقال: ما أكلتَ مِن اللَّحمِ إلَّا اسمَه لا مُسمَّاه! وكمَن سمَّى الترابَ خُبزًا وأكلَه، يقالُ: ما أكلتَ إلَّا اسم الخبزِ! بل هذا النَّفيُ أبلغُ في آلهتِهم؛ فإنَّه لا حقيقةَ لإلهيَّتِها بوجهٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٩٠).

وقال سُبحانه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

أي: أمَرَكم الله- أيُّها النَّاسُ جميعًا- ألَّا تعبُدُوا إلَّا اللهَ وحدَه، ولا تُشركوا به شيئًا⁽¹⁾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: ذلك التَّوحيدُ وإخلاصُ العبادةِ لله وحدَه، هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمرَ الله به عبادَه⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ توحيدَ اللهِ هو الدِّينُ المُستقيمُ الذي أمَرَ اللهُ به عبادَه؛ فهم لجهلِهم يُشركونَ بالله⁽³⁾.

كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

قال السعدي: (يوسفُ عليه السَّلامُ دعا صاحبَيِ السِّجنِ لعبادةِ الله وحدَه، وإخلاصِ الدِّينِ له، فيحتملُ أنَّهما استجابا وانقادا، فتَمَّت عليهما النِّعمةُ، ويحتملُ أنَّهما لم يزالا على شِركِهما، فقامت عليهما- بذلك- الحُجَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا فرغَ يوسفُ عليه السلامُ مِن دَعوتِهما؛ شرعَ في تعبيرِ رُؤياهما(١)، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾.

أي: قال يوسفُ عليه السلامُ للشَّابين اللذينِ سألاه تعبيرَ رُؤياهما: يا ساكِنَي السِّجنِ، أمَّا أحَدُكما(٢) فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويَسقي سيِّدَه المَلِكَ خَمرًا(٣).

﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ ﴾.

أي: وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُقتَلُ، ويُعلَّقُ على خشَبةٍ، فتأكلُ الطَّيرُ مِن لحمِ رأسِه وشَحمِه(٤).

﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾.

أي: فُرِغَ من الأمرِ الذي تسألانِ عن تَعبيرِه، وهو واقعٌ لا محالةَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠).

(٢) قال الشوكاني: (المرادُ بقوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ هو السَّاقي، وإنَّما أبهَمَه؛ لكونِه مفهومًا، أو لكراهةِ التَّصريحِ للخبَّازِ بأنَّه الذي سيُصلَبُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لصاحِبِه الذي تيقَّنَ أنَّه سينجو من القتلِ، ويخرُجُ مِن السِّجنِ: اذكُرني عند سيِّدِك الملِك، وأخبِرْه بأنِّي مسجونٌ بلا ذنبٍ(١).

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: فأنسَى الشَّيطانُ الفَتى الذي خرجَ مِن السِّجنِ أن يَذكُرَ يوسُفَ عند المَلِك، كما أوصاه بذلك(٢).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٣ - ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٨ - ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ تيميةَ، وأبو حيانَ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١).

وقيل المراد: فأنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر الله تعالى، فلم يَدْعُ الله أن يُخرجَه مِن السجنِ.

وممن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٢).

وممن قال بنحو ذلك مِن السلفِ: أنسٌ، وابنُ عباس في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعكرمة، والثوري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩١).

أي: فمكث يوسُفُ في الحبسِ مَظلومًا مَنسيًّا بضعَ سنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فيه أنَّ العالمَ إذا جُهِلَت منزلتُه في العِلمِ، فوصفَ نفسَه بما هو بصَددِه- وغرَضُه أن يُقتبَسَ منه، ويُنتفَعَ به في الدِّينِ- لم يكُن من بابِ التَّزكيةِ(٢).

٢- عنْ قتادةَ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ قال: (إنَّ المؤمنَ لَيَشْكُرُ ما به مِن نِعمةِ اللَّهِ، ويَشْكُرُ ما في النَّاسِ مِن نِعمةِ اللَّهِ)(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ فيه وُجوبُ الاعترافِ بنِعَمِ الله الدِّينيةِ والدُّنيوية؛ فهو الذي مَنَّ بالعافيةِ والرِّزقِ وتَوابعِ ذلك، وهو الذي مَنَّ بنِعمةِ الإسلامِ والإيمانِ والطَّاعةِ وتوابعِ ذلك، فعلى العبدِ أن يعترفَ بها بقَلبِه ويتحدَّثَ بها، ويستعينَ بها على طاعةِ المُنعِمِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٨).

قال أبو حيان: (الظاهرُ أنَّ قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ﴾ إخبارٌ عن مدَّةِ مُقامِه في السِّجنِ منذ سُجِنَ إلى أن أُخرِجَ. وقيل: هذا اللُّبثُ هو ما بعد خروجِ الفَتَيين). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠).

وقال الثعلبي: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ البِضعَ في هذه الآيةِ سبعُ سنينَ). ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢٥).

وقال محمد رشيد رضا بعد أن ذكَر أنَّ البِضعَ أكثرُ مَا يُطلَقُ على السَّبْعِ، قال: (وعليه الأكثرونَ في مدَّةِ سَجنِ يوسُفَ من أوَّلِها إلى آخِرِها). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥١).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من العجَبِ أنَّ هذه الحقيقةَ التي بيَّنَها القرآنُ في مئاتٍ مِن الآياتِ البيِّناتِ تُتلى في السُّوَرِ الكثيرةِ بالأساليبِ البليغة؛ صار يجهَلُها كثيرٌ مِن الذين يدَّعونَ اتِّباعَ القرآنِ؛ فمنهم من يجهَلُ حقيقةَ التوحيدِ نفسِه، فيتوجَّهونَ إلى غيرِ الله إذا مسَّهم الضرُّ أو عجزوا عن بعضِ ما يحبُّونَ مِن النَّفعِ، فيدعونَهم خاشعينَ راغبينَ مِن دونِ الله، ويُسمُّونَهم شُفَعاءَ ووسائلَ عند الله، كما كان يفعلُ من كان قبلَهم من المُشركين⁽¹⁾.

٥- أنَّ الدِّينَ المُستقيمَ- الذي عليه جميعُ الرُّسُلِ وأتباعهم- هو عبادةُ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له؛ لِقَولِه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهو الدِّينُ المستقيمُ، المقيمُ للعقائدِ والأخلاقِ والأعمالِ، الذي لا تستقيمُ أمورُ الدِّينِ والدُّنيا إلَّا به⁽²⁾.

٦- قولُ الله تعالى حكايةً عن يوسفَ عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فيه أنَّه كما على العبدِ عبوديَّةٌ لله في الرَّخاءِ، فعليه عبوديَّةٌ له في الشِّدَّةِ؛ فيوسفُ عليه السلامُ لم يزَلْ يدعو إلى اللهِ، فلمَّا دخلَ السِّجنَ استمَرَّ على ذلك، ودعا الفتَيَين إلى التَّوحيدِ، ونهاهما عن الشِّركِ، ومِن فِطنتِه عليه السَّلامُ أنَّه لَمَّا رأى فيهما قابليَّةً لدَعوتِه؛ حيث ظنَّا فيه الظَّنَّ الحسَنَ وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتَياه ليُعبِّرَ لهما رُؤياهما، فرآهما متشَوِّفَينِ لتَعبيرِها عنده- رأى ذلك فرصةً فانتهَزَها، فدعاهما إلى اللهِ تعالى قبل أن يعبِّرَ رُؤياهما؛ ليكونَ أنجحَ لمقصودِه، وأقربَ لحُصولِ مَطلوبِه، وبيَّنَ لهما أوَّلًا أنَّ الذي أوصَلَه إلى الحالِ- التي رأيَاه فيها من الكَمالِ والعِلمِ- إيمانُه وتوحيدُه،

---

(1) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٥).

(2) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥١).

وتركُه ملَّةَ مَن لا يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وهذا دعاءٌ لهما بالحالِ، ثمَّ دعاهما بالمقالِ، وبيَّنَ فسادَ الشِّركِ وبرهنَ عليه، وحقيقةَ التَّوحيدِ وبرهَنَ عليه⁽¹⁾.

٧- قولُ الله تعالى حكايةً عن يوسفَ عليه السلام: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فأوردَ يوسفُ عليه السلامُ الدَّليلَ على بُطلانِ مِلَّةِ قَومِهما في صورةِ الاستفهامِ؛ حتى لا تنفِرَ طباعُهما من المفاجأةِ بالدَّليلِ مِن غيرِ استفهامٍ، وهكذا الوجهُ في محاجَّةِ الجاهلِ؛ أن يُؤخَذَ بدرجةٍ يسيرةٍ مِن الاحتجاجِ يقبَلُها، فإذا قَبِلَها لَزِمته عنها درجةٌ أخرى فوقَها، ثمَّ كذلك إلى أن يصِلَ إلى الإذعانِ بالحَقِّ⁽²⁾.

٨- قولُه تعالى في دَعوةِ يُوسُفَ للتَّوحيدِ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فيه الإرشادُ إلى طَريقٍ نافعٍ مِن طُرُقِ الجِدالِ، والمقابلةِ بينَ الحَقِّ والباطِلِ، وهو بيانُ ما في الحَقِّ مِن الخيرِ والمنافعِ العاجلةِ والآجلةِ، وما في الباطِلِ مِن ضِدِّ ذلك؛ قال تعالى في دعوةِ يوسُفَ للتوحيد: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فذكَرَ ما في الشِّركِ مِن القُبحِ وسُوءِ الحالِ، واتِّباعِ الظُّنونِ الباطلةِ، وأنَّ كُلَّ طائفةٍ مِن طوائفِ الشِّركِ لهم مَعبودٌ؛ إمَّا نارٌ أو صَنمٌ، أو قبرٌ أو مَيِّتٌ، أو غيرُ ذلك من المعبوداتِ المتفَرِّقةِ التي لا تَملِكُ لنَفسِها ولا لأهلِها نَفعًا ولا ضَرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، وكلُّ طائفةٍ تُضَلِّلُ الأخرى، وكُلُّهم ضالُّونَ هالِكونَ، فهل هذه الأربابُ والمعبوداتُ خيرٌ أم اللهُ الواحِدُ القهَّارُ؟ فذكَرَ له ثلاثةَ أوصافٍ عامَّةٍ عَظيمةٍ:

الأوَّل: أنَّه اللهُ الذي له الأسماءُ والصِّفاتُ العُليا، ومنه النِّعَمُ كُلُّها، وبذلك استحَقَّ أن يكونَ اللهَ المألوهَ، إلهَ أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).

السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

الثَّاني: أنَّه الواحِدُ المتفرِّدُ بكُلِّ صِفةِ كَمالٍ، المتوحِّدُ بنُعوتِ الجلالِ والجَمالِ، الذي لا شريكَ له في شَيءٍ مِن الأفعالِ.

الثَّالث: أنَّه القهَّارُ لكُلِّ شَيءٍ؛ فجميعُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ كُلُّهم مقهورونَ بقُدرتِه، خاضِعونَ لعَظَمتِه، مُتذَلِّلونَ لعِزَّتِه وجَبَروتِه، فمَن هذه صِفاتُه العظيمةُ هو الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له وحدَه، لا شريكَ له⁽¹⁾.

٩- قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ...﴾ مِن فوائدِ هذه الآياتِ: أنَّه يُبدأُ بالأهَمِّ فالأهمِّ، وأنَّه إذا سُئِلَ المفتي- وكان السَّائِلُ حاجتُه في غيرِ سؤالِه أشَدُّ- أنَّه ينبغي له أن يُعلِّمَه ما يحتاجُ إليه قبل أن يجيبَ سؤالَه؛ فإنَّ هذا علامةٌ على نُصحِ المعَلِّمِ وفطنتِه، وحُسنِ إرشادِه وتَعليمِه؛ فإنَّ يوسُفَ لَمَّا سأله الفَتَيانِ عن الرُّؤيا قدَّمَ لهما قبل تعبيرِها دعوتَهما إلى اللهِ وحدَه لا شريكَ له، فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ...﴾⁽²⁾، وهذه طريقةٌ على كُلِّ ذي علمٍ أن يسلُكَها، خاصةً مع الجُهَّالِ والفَسَقةِ إذا استفتاه واحدٌ منهم؛ أن يقَدِّمَ الهدايةَ والإرشادَ والمَوعظةَ والنَّصيحةَ أوَّلًا، ويَدعوَه إلى ما هو أولى به وأوجَبُ عليه ممَّا استفتى فيه، ثمَّ يُفتيَه بعد ذلك⁽³⁾.

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي

---

(1) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٠).

(2) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١٠).

(3) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أصلٌ في عبارةِ الرُّؤيا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ إيذانٌ بأنَّ الله تعالى علَّمَه عُلومًا أُخرَى، وهي علومُ الشَّريعةِ والحِكمةِ، والاقتصادِ والأمانةِ(٢).

٣- إذا قيل: إنَّ قَولَ يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ظاهِرُه أنَّ يوسفَ عليه السَّلامُ كان داخلًا في هذه المِلَّةِ ثمَّ ترَكَها.

فالجوابُ عن ذلك من وجهينِ:

الأوَّل: أنَّ المُرادَ بالتَّركِ هو عدمُ التَّلَبُّسِ بذلك مِن الأصلِ، لا أنَّه قد كان تَلَبَّس به، ثُمَّ تَرَكه، كما يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾، فالتركُ كما يكونُ للداخلِ في شيءٍ، ثمَّ ينتقِلُ عنه، يكونُ لمن لم يدخُلْ فيه أصلًا، وليس مِن شَرطِه أن يكونَ قد كان داخلًا فيه ثمَّ ترَكَه ورجَع عنه(٣)، ويوسفُ عليه السلام لما كان على التَّوحيدِ والإيمانِ الصَّحيحِ؛ صحَّ قَولُه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فترَكَ مِلَّتَهم وأعرض عنهم، ولم يوافِقْهم على ما كانوا عليه(٤).

الثاني: أنَّ يوسفَ عليه السَّلامُ كان عبدًا لهم بحَسَبِ زعمِهم، واعتقادِهم الفاسدِ، ولعلَّه قبلَ ذلك كان لا يُظهِرُ التَّوحيدَ والإيمانَ؛ خوفًا منهم على سبيلِ التَّقِيَّةِ، ثُمَّ إنَّه أظهرَه في هذا الوقتِ، فكان هذا جاريًا مجرَى تركِ مِلَّةِ أولئكَ الكفرةِ بحَسَبِ الظَّاهِرِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٥٦).

٤- قولُه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إنَّما قال يوسفُ عليه السَّلامُ ذلك؛ تَرغيبًا لِصاحِبَيه في الإيمانِ والتَّوحيدِ، وتَنفيرًا لهما عمَّا كانا عليه مِن الشِّركِ والضَّلالِ(١)، فذَكَر آباءَه؛ لِيُرِيَهما أنَّه مِن بيتِ النُّبوَّةِ؛ لِيُقوِّيَ رغبَتَهما في الاستماعِ إليه، واتِّباعِ قولِه(٢).

٥- لم يذكُرِ اللهُ تعالى جُحودَ الصَّانعِ إلَّا عن فرعونِ موسى، وأمَّا الذين كانوا في زمَنِ يوسُفَ، فالقرآنُ يدُلُّ على أنَّهم كانوا مقرِّينَ بالله وهم مُشرِكونَ به؛ ولهذا كان خِطابُ يوسُفَ للمَلِك وللعزيزِ ولهم يتضَمَّنُ الإقرارَ بوجودِ الصَّانعِ، كقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٣).

٦- الحُكمُ لله وحدَه، ورسُلُه يبلِّغونَ عنه؛ فحُكمُهم حُكمُه، وأمرُهم أمرُه، وطاعتُهم طاعتُه، فما حكمَ به الرَّسولُ وأمَرَهم به وشرَعَه مِن الدِّينِ، وجبَ على جميعِ الخلائقِ اتِّباعُه وطاعتُه؛ فإنَّ ذلك هو حكمُ اللهِ على خَلقِه؛ قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وهذه القاعدةُ هي أساسُ دينِ الله تعالى على ألسنةِ جميعِ رسُلِه، لا تختلفُ باختلافِ الأزمِنةِ والأمكِنةِ(٤).

٧- لم يَكتَفِ يوسفُ عليه السَّلامُ بمجرَّدِ تأويلِ رُؤياهما مع أنَّ فيه دَلالةً على فَضلِه؛ لأنَّهما لَمَّا نَعَتاه عليه السَّلامُ بالانتظامِ في سِمْطِ(٥) المحسِنين، وأنَّهما قد عَلِما ذلك حيث قالا: ﴿إنَّا نَراكَ مِن المحسِنين﴾، تَوسَّم عليه السَّلامُ فيهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٤).

(٥) السِّمطُ: الخيطُ ما دام فيه الخَرَزُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٤).

خيرًا، وتَوجُّهًا إلى قَبولِ الحقِّ، فأراد أن يَخرُجَ آثِرَ ذي أثيرٍ(١) عمَّا في عُهدتِه مِن دعوةِ الخلقِ إلى الحقِّ، فمَهَّد قبلَ الخوضِ في ذلك مُقدِّمةً تَزيدُهما عِلمًا بعِظَمِ شأنِه، وثقةً بأمرِه، ووُقوفًا على عُلوِّ طبَقتِه في بَدائعِ العُلومِ؛ تَوسُّلًا بذلك إلى تحقيقِ ما يتَوخَّاه، وقد تَخلَّص إليها مِن كلامِهما(٢).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ لم يعيِّنْ من هو صاحِبُ البُشرى، ومن هو صاحبُ المصيرِ السَّيئِ؛ تلطُّفًا، وتحرُّجًا من المواجهةِ بالشَّرِّ والسوءِ(٣).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فيه أنَّ عِلمَ التَّعبيرِ مِن العُلومِ الشَّرعيَّة، وأنَّه يُثابُ الإنسانُ على تعلُّمِه وتعليمِه، وأنَّ تعبيرَ المَرائي داخِلٌ في الفتوَى؛ فلا يجوزُ الإقدامُ على تعبيرِ الرُّؤيا من غيرِ عِلمٍ(٤).

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فيه أنَّ من وقع في مكروهٍ وشِدَّةٍ، لا بأس أن يستعينَ بمن له قدرةٌ على تخليصِه، أو الإخبارِ بحالِه، وأنَّ هذا لا يكونُ شكوى للمخلوقِ؛ فإنَّ هذا من الأمورِ العاديَّةِ التي جرى العُرفُ باستعانةِ النَّاسِ بعضِهم ببعضٍ(٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على جوازِ إطلاقِ اسمِ (الربِّ)- مع الإضافةِ- على غيرِ الله تعالى، وكذا

---

(١) آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كلِّ شيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولُه تعالى: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾، أمَّا بلا إضافةٍ فلا يجوزُ إطلاقُه إلَّا على اللهِ فقط⁽¹⁾.

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نسيانَ الخيرِ يكونُ مِن الشَّيطانِ⁽²⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ فيه تأخيرُ الفاعلِ عن المفعولِ؛ للاهتمامِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عند النَّفسِ حينَ وُرودِه عليها فضلَ تمكُّنٍ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن يقولُ: ما صَنَعا بعدَما دخَلا معه السِّجنَ؟ فأُجيبَ بأنَّه: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي﴾⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ فيه التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿أَرَانِي﴾ دون الماضي (رَأيتُني)؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ الماضيةِ⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يَعني عِنَبًا؛ ففيه تَسْميةُ الشَّيءِ بما يَؤُولُ إليه؛ لِكَونِه

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المقصودَ مِن العَصْرِ⁽١⁾.

- قولُه: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ فيه إجراءُ الضَّميرِ مَجرى اسمِ الإشارةِ (ذلك)؛ فإنَّ اسمَ الإشارةِ يُشارُ به إلى مُتعدِّدٍ، والسِّرُّ في المصيرِ إلى إجراءِ الضَّميرِ مَجرى اسمِ الإشارةِ مع أنَّه لا حاجةَ إليه بعدَ تأويلِ المرجعِ بما ذُكِر أو بما رُئِي: أنَّ الضَّميرَ إنَّما يَتعرَّضُ لنفسِ المرجعِ مِن حيثُ هو مِن غيرِ تعرُّضٍ لحالٍ مِن أحوالِه؛ فلا يَتسنَّى تأويلُه بأحَدِ الاعتبارَينِ إلَّا بإجرائِه مَجرى اسمِ الإشارةِ الَّذي يدُلُّ على المشارِ إليه بالاعتبارِ الَّذي جَرى عليه في الكلامِ⁽٢⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ للمُستفادِ مِن ﴿نَبِّئْنَا﴾ وهو عَرْضُ رُؤْياهما عليه، واستِفسارُها منه عليه السَّلامُ⁽٣⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا...﴾ هذه الجملةُ جوابٌ عن كلامِهما؛ ففُصِلتْ- أي: لم تُعطَفْ على التي قبلَها- على أسلوبِ حِكايةِ جُمَلِ التَّحاوُرِ⁽٤⁾.

- وقولُه: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ...﴾ فيه تَخصيصُ الطَّعامِ بالذِّكرِ؛ لكونِه عَريقًا في ذلك بحسَبِ الحالِ، مع ما فيه مِن مُراعاةِ حُسنِ التَّخلُّصِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٠).

إليه ممَّا استعبَراه مِن الرُّؤيَيَيْنِ المتعلِّقتَين بالشَّرابِ والطَّعامِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ما في اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشارةِ إلى عُلوِّ درَجتِه، وبُعدِ مَنزلتِه(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ تعليلٌ لِمَا قبلَها، أي: علَّمَني ذلك؛ لأنِّي ترَكتُ مِلَّةَ أولئك(٣)، فأخبَر بأنَّ سَببَ عِنايةِ اللهِ به أنَّه انفرَدَ في ذلك المكانِ بتَوحيدِ اللهِ، وترْكِ مِلَّةِ أهلِ المدينةِ، فأرادَ اللهُ اختيارَه لدَيهم(٤).

- قولُه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن كُفرِهم باللهِ تعالى بسَلبِ الإيمانِ به؛ للتَّنصيصِ على أنَّ عِبادتَهم له تعالى مع عِبادةِ الأوثانِ ليسَت بإيمانٍ به تعالى، كما هو زَعمُهم الباطلُ(٥).

- قولُه: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فيه تَكرارُ ﴿هُمْ﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ، وحَسَّن ذلك الفَصْلُ(٦)؛ وقيل: للدَّلالةِ على أنَّهم خُصوصًا كافِرون بالآخرةِ، وأنَّ غيرَهم كانوا قومًا مؤمِنين بها، وهم الَّذين على مِلَّةِ إبراهيمَ(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٠).

وذكَر أبو حيان كلامَ الزمخشري، ثم قال: (وليسَت عندنا «هم» تدلُّ على الخصوصِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٧)

قال السمين الحلبي: (قلتُ: لم يَقُل الزمخشري: إن «هم» تدلُّ على الخصوصِ، وإنَّما قال: تكرير «هم» للدلالة، فالتكريرُ هو الذي أفاد الخصوصَ، وهو معنًى حَسَنٌ فهِمه أهلُ البيانِ). ((الدر المصون)) (٦/ ٤٩٧).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

- قُدِّم ذِكرُ تَركِه لِملَّتِهم على ذِكرِ اتِّباعِه لملَّةِ آبائِه؛ لأنَّ التَّخليَةَ متقدِّمةٌ على التَّحليةِ(١).

- وجملةُ ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في قوَّةِ البيانِ لِمَا اقتضَتْه جُملَةُ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ مِن كَونِ التَّوحيدِ صار كالسَّجيَّةِ لهم؛ عُرِف بها أسلافُه بينَ الأممِ، وعَرَّفهم بها لِنَفْسِه في هذه الفرصةِ(٢).

- وصيغةُ الجُحودِ ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ﴾ تَدُلُّ على المبالَغةِ في انتفاءِ الوصفِ عن الموصوفِ(٣).

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، وأُدخِلتْ على المقصودِ بالنَّفيِ(٤).

- وجملةُ ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ زيادةٌ في الاستئنافِ والبيانِ؛ لقصدِ الترغيبِ في اتِّباعِ دِينِ التَّوحيدِ بأنَّه فضلٌ(٥).

- قولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فيه وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ الرَّاجعِ إلى النَّاسِ- حيث لم يَقُلْ: (أَكْثَرَهم)-؛ لزيادةِ توضيحٍ وبَيانٍ، ولِقَطعِ تَوهُّمِ رُجوعِه إلى المجموعِ الموهِمِ لعدَمِ اختِصاصِ غيرِ الشَّاكرِ بالنَّاسِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

- قولُه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ناداهُما بعُنوانِ الصُّحبَةِ؛ ليُقبِلا عليه ويَقْبَلا مَقالَتَه(١)- وذلك على أحدِ وَجْهي التفسيرِ- والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، مصدَّرةٌ بتوجيهِ الخطابِ إلى الفَتَيَيْنِ بطَريقِ النِّداءِ المستَرعِي سَمْعَهما إلى ما يَقولُه؛ للاهتمام به(٢).

- قولُه: ﴿أَأَرْبَابٌ﴾ فيه استفهامٌ تقريريٌّ؛ أراد به تَقْريرَهما بإبطالِ دينِهما(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه لما قال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾، قابَل تَفرُّقَ أربابِهم بقولِه: ﴿الْوَاحِدُ﴾، وجاء بصِفةِ ﴿الْقَهَّارُ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّه تعالى له هذا الوصفُ الَّذي مَعناه الغَلَبةُ والقُدرةُ التَّامَّةُ، وإعلامًا بعُرُوِّ أصنامِهم عن هذا الوصفِ الَّذي لا يَنبَغي أن يُعبَدَ إلَّا المتَّصِفُ به(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ فيه قَصْرٌ إضافيٌّ، ومعنى قَصْرِها على أنَّها أسماءٌ، أنَّها أسماءٌ لا مُسمَّياتِ لها؛ فليس لها في الوجودِ إلَّا أسماؤُها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٦).

- وفي قولِه: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ لم يَذكُرِ المسمَّياتِ؛ تربيةً لِمَا يقتَضيه المقامُ من إسقاطِها عن مَرتَبةِ الوُجودِ، وإيذانًا بأنَّ تَسميَتَهم في البُطلانِ حيث كانت بلا مُسمًّى، كعِبادتِهم حيث كان بلا مَعبودٍ(١).

- قولُه: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فيه كنايةٌ عن بُطْلانِها؛ إذ إنزالُ السُّلطانِ كنايةٌ عن إيجادِ دَليلِ إلهيَّتِها في شَواهِدِ العالَمِ، وليس ثَمَّةَ سُلطانٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ تعالى(٢).

- وجملةُ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ انتقالٌ مِن أدلَّةِ إثباتِ انْفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إلى التَّعليمِ بامْتِثالِ أمْرِه ونَهْيِه؛ لأنَّ ذلك نتيجةُ إثباتِ الإلهيَّةِ والوَحْدانيَّةِ له؛ فهي بيانٌ لجُملَةِ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مِن حيث ما فيها مِن مَغنى الحُكمِ(٣).

- وجملةُ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خُلاصةٌ لِما تَقدَّم مِن الاستدلالِ، أي: ذلك الدِّينُ لا غَيرُه ممَّا أنتُم عليه وغيرُكم، وهو بمنزلةِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ لقولِه: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٤).

٦- قولُه تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ فيه افتتاحُ خِطابِهما بالنِّداءِ؛ اهتمامًا بما يُلقيه إليهما مِن التعبيرِ، وخاطبَهما بوصْفِ صاحبي السِّجنِ أيضًا(١).

- قولُه: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، إنَّما أخبَرَهما عليه السَّلامُ بذلك تَحقيقًا لِتَعبيرِه وتأكيدًا له. وفيه التَّعبيرُ عمَّا رَأَياه مِن الرُّؤيَيَيْنِ بالأمرِ، وعن طلَبِ تَأويلِه بالاستفتاءِ؛ تَهويلًا لأمرِه، وتفخيمًا لشأنِه؛ إذِ الاستفتاءُ إنَّما يَكونُ في النَّوازِلِ المشْكِلَةِ الحُكمِ، المبهَمَةِ الجوابِ، ووحَّد الأمرَ مع تَعدُّدِ رُؤياهما؛ لأنَّه واردٌ على حسَبِ ما وحَّدَه في قولِهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾(٢).

- وفيه أيضًا إيثارُ صيغةِ الاستِقْبالِ ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾ مع سَبْقِ استفتائِهما في ذلك؛ لأنَّهما بصَددِه إلى أن يَقضيَ عليه السَّلامُ مِن الجوابِ وَطَرَه(٣).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾، فيه إيثارُ التَّعبيرِ بهذا عن صيغةِ المضارعِ (أنَّه سيَنجو)؛ مبالَغةً في الدَّلالةِ على تحقُّقِ النَّجاةِ حسَبما يُفيدُه قولُه تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وهو السِّرُّ في إيثارِ ما عليه النَّظْمُ الكريمُ، على أن يُقالَ: (للَّذي ظنَّه ناجيًا)، وإنَّما ذُكِر بوَصْفِ النَّجاةِ؛ تمهيدًا لِمَناطِ التَّوصيَةِ بالذِّكرِ عند الملِكِ(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٠).

الآيات (٤٣-٤٩)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟
أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠
أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ
يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِجَافٌ﴾: أي: مَهازيلُ في غايةِ الضَّعفِ والهُزالِ، وأصلُ (عجف): يدلُّ على هُزالٍ(١).

﴿تَعْبُرُونَ﴾: أي: تفسِّرونَ، والتَّعبيرُ: تفسيرُ ما تدُلُّ عليه الرُّؤيا، وتأويلُ إشاراتِها ورُموزِها، وأصلُ (عبر): يدلُّ على النُّفوذِ والمُضيِّ في الشَّيءِ(٢).

﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾: أي: أخلاطُ أحلامٍ، لا تأويلَ لها، وأصلُ (ضغث): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨١).

على التِباسِ الشَّيءِ بعضِه ببعضٍ، والأحلامُ جمعُ حُلْمٍ، وهو ما يراه الإنسانُ في نومِه⁽¹⁾.

﴿وَادَّكَرَ﴾: أي: تَذكَّرَ، وأصلُ (ذكر): يدلُّ على خِلافِ النِّسيانِ⁽²⁾.

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: حِينٍ ومُدَّةٍ منَ الدَّهرِ، وأصلُ إطلاقِ الأُمَّةِ على المُدَّةِ الطويلةِ هو أنَّها زمَنٌ ينقَرِضُ في مِثلِه جِيلٌ، والجِيلُ يُسمَّى أُمَّةً⁽³⁾.

﴿دَأَبًا﴾: أي: مُلازَمةً لعادتِكم في الزِّراعةِ، والدَّأْبُ: العادةُ والمُلازَمةُ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على مُلازمةٍ ودَوامٍ⁽⁴⁾.

﴿تُحْصِنُونَ﴾: أي: تدَّخِرونَ وتَخزِنونَ، والإحصان: الإحرازُ، وهو إلقاءُ الشَّيءِ فيما هو كالحِصنِ- وهو الحِرزُ والمَلجأُ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على الحِفظِ والحِياطةِ والحِرزِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٣).
قال أبو حيانَ في قولِه تعالى: ﴿وَادَّكَرَ﴾: (وأصلُه: «واذْتكَر» أُبدِلَتِ التَّاءُ دالًا، وأُدْغِمَتِ الذَّالُ فيها، فصار «ادَّكَرَ»). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٣٨).

﴿يُغَاثُ﴾: أي: يُمطَرُ؛ مِن الغَيثِ: وهو المَطَرُ⁽¹⁾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقال مَلِكُ مصرَ: إنِّي رأيتُ في منامي سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ نَحيلاتٍ مِن الهُزالِ، ورأيتُ سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسَبعَ سُنبُلاتٍ يابساتٍ، يا أيُّها الأشرافُ والكُبَراءُ أخبِروني عن هذه الرُّؤيا، إن كنتُم على علمٍ بتفسيرِ الرُّؤى، قالوا: رؤياك هذه أخلاطُ أحلامٍ لا تأويلَ لها، وما نحن بتفسيرِ الأحلامِ المختلطةِ بعالِمينَ، وقال الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسُفَ، وتذكَّرَ بعدَ مُدَّةٍ ما نَسيَ مِن أمرِ يوسُفَ، قال: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ هذه الرُّؤيا، فابعَثوني إلى يوسُفَ المسجونِ؛ لآتيَكم بتفسيرِها، وعندما وصل الرَّجُلُ إلى يوسُفَ قال له: يوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ فسِّرْ لنا رؤيا مَن رأى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ هَزيلاتٍ، ورأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ؛ لعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وأصحابِه فأُخبِرُهم؛ لِيعلموا تأويلَ ما سألتُك عنه، وليعلَموا مكانتَك وفَضلَك.

قال يوسُفُ لسائلِه عن رُؤيا المَلِك: تفسيرُ هذه الرُّؤيا: أنَّكم تزرعونَ سبعَ سِنينَ مُتتابعةً جادِّينَ ليَكثُرَ العَطاءُ، فما حصدتُم منه في كلِّ مرَّةٍ فادَّخِروه واترُكوه في سُنبُله؛ ؛ لئلَّا يَفسُدَ، إلَّا قليلًا ممَّا تأكُلونَه من الحُبوبِ، ثمَّ يأتي بعد هذه السِّنينَ الخِصْبةِ سبعُ سنينَ شديدةُ الجَدْبِ، يُؤكَلُ فيهنَّ كلُّ ما ادَّخَرتُم لهنَّ مِن قَبلُ، إلَّا قليلًا ممَّا تَحفَظونَه وتدَّخِرونَه، ثمَّ يأتي مِن بعدِ هذه السِّنينَ المُجدِبةِ عامٌ يُمطَرُ فيه النَّاسُ، فيرفَعُ اللهُ تعالى عنهم الشِّدَّةَ، ويَعصِرونَ فيه الثِّمارَ؛ مِن كثرةِ الخِصْبِ والنَّماءِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بطلَ السَّببُ الذي أمَرَ به يوسُفُ عليه السَّلامُ- وهو تذكيرُ السَّاقي به- أثار اللهُ سُبحانه سَببًا يُنفِّذُ به ما أراد مِن رئاستِه⁽¹⁾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾.

أي: وقال مَلِكُ مِصرَ⁽²⁾ لجُلَسائِه: إنِّي رأيتُ في المنامِ سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى⁽³⁾!

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

أي: ورأيتُ في منامي سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسبعَ سُنبُلاتٍ أُخرَى يابسة⁽⁴⁾!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٩٨).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (سمَّاه القرآنُ هنا ملكًا، ولم يسمِّه فرعونَ؛ لأنَّ هذا الملكَ لم يكنْ مِن الفراعنةِ ملوكِ مصرَ القبطِ، وإنَّما كان ملكًا لمصرَ أيامَ حَكَمها «الهِكْسُوسُ»، وهم العمالقةُ، وهم مِن الكنعانيين، أو مِن العربِ، ويُعبِّر عنهم مؤرخو الإغريقِ بملوكِ الرعاةِ، أي: البدوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٠) ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦١)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي: وسبعًا أخرَ يابساتٍ قد استُحصدنْ يأكُلْنَ الخضرَ، فحُذِف اكتفاءً بدلالةِ الأولِ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٤٩).

وممن نصَّ على أنَّ المراد: أكلُ السَّنابلِ اليابساتِ للخُضْرِ، كما وقع بين البقَرِ السِّمانِ =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

أي: قال المَلِكُ لِمن حَولَه: يا أيُّها الأشرافُ، أخبِروني بتفسيرِ رُؤياي إن كنتُم على عِلمٍ ودرايةٍ بذلك(١).

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾.

أي: قال الأشرافُ للمَلِك: رُؤياك هذه ليسَت بشيءٍ، إنَّما هي أخلاطُ أحلامٍ، لا حقيقةَ لها(٢).

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

أي: ولَسْنا على علمٍ بتفسيرِ الأحلامِ المُختلِطةِ(٣).

= والعِجافِ: ابن الجوزي، القرطبي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

وقال الشوكاني: (والمعنَى: وأرى سبعًا أُخَرَ يابِساتٍ، وكان قد رأى أنَّ السَّبعَ السُّنبلاتِ اليابِساتِ قد أدْرَكتِ الخضْرَ والتَوَتْ عليها حتَّى غَلَبَتها، ولعلَّ عدمَ التَّعَرُّضِ لذِكرِ هذا في النَّظمِ القرآنيِّ للاكتفاءِ بما ذُكِر مِن حالِ البقراتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧)، وممن نصَّ على نحو هذا المعنَى: السمعاني والواحدي والبغوي والزمخشري والرازي وأبو حيان. ينظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٧٨، ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٢). =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

أي: وقال الذي نجا من الفَتَيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ، وتذكَّرَ بعدَ مُدَّةٍ مِن الزَّمنِ ما كان من شأنِ يوسُفَ مِن عِلمِه بتعبيرِ الرُّؤى، وما أوصاه به مِن ذِكرِ أمْرِه عند سَيِّدِه المَلِكِ⁽¹⁾.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

أي: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ رُؤيا المَلِكِ، فابعَثوني أذهَبْ إلى يوسُفَ المَسجونِ؛ لأسألَه تَعبيرَها⁽²⁾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

أي: فأرسَلوه إليه، فقال له: يا يوسُفَ، يا كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِك وأفعالِك، أخبِرْنا بتعبيرِ رُؤيا سبعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبعُ بقراتٍ هَزْلى، وسَبعِ سُنبُلاتٍ

= وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: الزجاج، وابن جرير، وابن الجوزي. يُنظر: المصادر السابقة. وقيل المراد: أنَّهم نفَوا عن أنفُسِهم العلمَ بتأويلِ الرُّؤى قاطبةً. وممن اختار هذا القول: ابنُ جزي، وأبو حيانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

خُضرٍ، وسَبعِ سُنبُلاتٍ أخرى يابسةٍ(١).

﴿ لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: فسِّرْ هذه الرُّؤيا؛ لَعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وجُلَسائِه ليَعلَموا تعبيرَها، ويَعلَموا عِلمَك وفَضلَك، فتخرُجَ مِن السِّجنِ(٢).

﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ (٤٧) ﴾.

﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا ﴾.

أي: قال يوسُفُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُفَسِّرًا رُؤيا المَلِك: تَزرعونَ سَبعَ سَنواتٍ خِصبةٍ مُتَتابعةٍ، على عادتِكم في الزِّراعةِ(٣).

﴿ فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴾.

أي: اترُكوا محصولَ زَرعِكم في سُنبُلِه؛ لئلَّا يَفسُدَ، وكُلوا منه قليلًا بقَدرِ حاجتِكم، وادَّخِروا أكثرَ مَحصولِكم(٤).

﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ (٤٨) ﴾.

﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴾.

أي: ثُمَّ يجيءُ مِن بعدِ السِّنينَ السَّبعِ الخِصبةِ سَبعُ سَنواتٍ شَديدةِ الجَدبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

يُؤكَلُ فيهنَّ جميعُ ما ادَّخَرتُم لأجلِهنَّ مِن مَحصولِ زَرعِكم في السنين السبعِ الخصبةِ، إلَّا قليلًا منه يبقَى في حِرزِه(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو في القُنوتِ: اللهُمَّ أنجِ سَلَمةَ بنَ هِشامٍ، اللهمَّ أنجِ الوليدَ بنَ الوَليدِ، اللهمَّ أنجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهُمَّ أنجِ المُستَضعفينَ مِن المُؤمنينَ، اللهمَّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَرَ، اللهمَّ سِنينَ كَسِني يوسُفَ(٢)))(٣).

وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: ((إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا رأَى مِنَ النَّاسِ إدبارًا قال: اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبْعِ يُوسُفَ))(٤).

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾.

أي: ثمَّ يجيءُ مِن بعدِ سَبعِ السَّنواتِ المُجدِبةِ عامٌ يُمطِرُ اللهُ فيه النَّاسَ الأمطارَ الكثيرةَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

قال القرطبي: (﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: ممَّا تحبِسونَ لِتَزرعوا؛ لأنَّ في استبقاءِ البَذرِ تحصينَ الأقواتِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٤).

(٢) قال ابنُ حجر: (والمرادُ «بسني يوسف» ما وقَع في زمانِه عليه السلامُ مِن القحطِ في السنينِ السبعِ، كما وقَع في التنزيلِ، وقد بيَّن ذلك في الحديثِ الثاني حيث قال: «سبعًا كسبعِ يوسفَ»، وأُضِيفتْ إليه؛ لكونِه الذي أنذَر بها، أو لكونِه الذي قام بأمورِ الناسِ فيها). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٩٣).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٢) واللفظ له، ومسلم (٦٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ معناه يُمطرونَ، وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥١).=

﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾.

أي: وفي ذلك العامِ يَعصِرُ النَّاسُ الأعنابَ والدُّهنَ وغيرَ ذلك(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ هذا جَزمٌ منهم بما لا يَعلَمونَ، وتعَذُّرٌ منهم بما ليس بعُذرٍ، فجمَعوا بين الجهلِ والجَزمِ بأنَّها أضغاثُ أحلامٍ، والإعجابِ بالنَّفسِ، بحيث إنَّهم لم يقولوا: لا نعلَمُ تأويلَها، وهذا من الأمورِ التي لا تنبغي لأهلِ الدِّينِ والحِجا(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ من أراد أن يتعلَّمَ مِن رجلٍ شَيئًا، فإنَّه يجِبُ عليه أن يُعظِّمَه، وأن يُخاطِبَه بالألفاظِ المُشعِرةِ بالإجلالِ(٣).

= وقال الواحدي: (ويجوزُ أن يكونَ مِن قولِهم: أغاثه الله، إذا أنقَذه مِن كربٍ أو غمٍّ. ومعناه يُنقَذُ الناسُ فيه مِن كربِ الجدبِ). ((البسيط)) (١٢/ ١٣٩).

قال ابن جرير: (وهذا خبرٌ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ للقومِ عمَّا لم يكنْ في رؤيا مَلِكِهم، ولكنَّه مِن عِلمِ الغيبِ الذي آتاه الله؛ دلالةً على نبوَّتِه، وحُجَّةً على صِدقِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٢).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ هذا ألَّا يكونَ غيبًا، بل علمُ العبارةِ أعطَى انقطاعَ الجدبِ بعدَ سبعٍ، ومعلومٌ أنَّه لا يقطعُه إلا خصبٌ شافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٠).

وقال السعدي: (ولعلَّ استدلالَه على وجودِ هذا العامِ الخصبِ، مع أنَّه غيرُ مصرَّحٍ به في رُؤيا الملك؛ لأنَّه فهِم مِن التقديرِ بالسبعِ الشدادِ، أنَّ العامَ الذي يَلِيها يزولُ به شدَّتُها، ومِن المعلومِ أنَّه لا يزولُ الجدبُ المستمرُّ سبعَ سنينَ متوالياتٍ، إلا بعامٍ مخصبٍ جدًّا، وإلَّا لما كانَ للتقديرِ فائدةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ويُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) (ص: ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٥).

٣- ينبغي للمَسؤولِ أن يدُلَّ السَّائلَ على أمرٍ ينفعُه ممَّا يتعلَّقُ بسُؤالِه، ويُرشِدُه إلى الطَّريقِ التي ينتَفِعُ بها في دينِه ودُنياه؛ فإنَّ هذا مِن كمالِ نُصحِه وفِطنتِه، وحُسنِ إرشادِه؛ فإنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لم يقتصِرْ على تعبيرِ رُؤيا المَلِك، بل دلَّهم مع ذلك على ما يصنعونَ في تلك السِّنينَ المُخصِباتِ مِن كثرةِ الزَّرعِ، وكَثرةِ جِبايتِه، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾(١).

٤- ينبغي ويتأكَّدُ على المعَلِّم استعمالُ الإخلاصِ التامِّ في تعليمِه، وألَّا يجعَلَ تعليمَه وسيلةً لمعاوَضةِ أحدٍ في مالٍ أو جاهٍ أو نفعٍ، وألَّا يمتنِعَ مِن التَّعليم، أو لا ينصَح فيه، إذا لم يَفعَل السائلُ ما كلَّفَه به المعلِّمُ؛ فإنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ وصَّى أحدَ الفَتَيينِ أن يذكُرَه عند ربِّه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلم يذكُرْه ونَسِيَ، فلمَّا بدَت حاجتُهم إلى سؤالِ يوسُفَ أرسَلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلًا مُستفتيًا عن تلك الرُّؤيا قائلًا: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فلم يعنِّفْه يوسفُ ولا وبَّخَه لِتَركِه ذِكرَه، بل أجابه عن سؤالِه جوابًا تامًّا مِن كلِّ وَجهٍ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...﴾(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- اللهُ سُبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابًا، ولَمَّا دنا فرَجُ يوسُفَ عليه السَّلامُ، رأى مَلِكُ مصرَ في النَّومِ تلك الرُّؤيا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...﴾ هذه الآيةُ مِن أُصولِ التَّعبيرِ⁽¹⁾.

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...﴾ فيه صِحَّةُ رُؤيا الكافرِ⁽²⁾.

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ فيه جوازُ تَسميةِ الكافرِ مَلِكًا⁽³⁾.

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فيه أنَّ مَن قال: إنَّ الرُّؤيا لأوَّلِ عابرٍ، ليس عامًّا في كلِّ رُؤيا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ولم تَسقُطْ بقَولِهم ذلك، فتُخَصُّ تلك القاعدةُ بما يَحتمِلُ مِن الرُّؤيا وُجوهًا فيُعبَّرُ بأحدِها فتقَعُ عليه⁽⁴⁾.

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ هذا مِن لُطفِ اللهِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لو عبَّرَها ابتداءً- قبل أن يَعرِضَها المَلِكُ على الملأِ مِن قَومِه وعُلمائِهم فيَعجِزوا عنها- لم يكن لها ذلك الموقعُ، ولكِنْ لَمَّا عرَضَها عليهم فعَجَزوا عن الجوابِ، وكان المَلِكُ مهتَمًّا لها، فعبَّرَها يوسُفُ- وقَعَت عندهم موقعًا عظيمًا⁽⁵⁾.

٧- قال الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ إنَّما وصفَه بالصِّدِّيقِ- وهو المُبالِغُ في الصِّدقِ- لأنَّه جرَّبَ أحوالَه، وعرَفَ صِدقَه في تأويلِ رُؤياه

---

(1) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(3) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(4) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(5) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٩).

ورُؤيا صاحِبِه(١).

٨- قوله: ﴿أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ﴾ أي: في تأويلِ رؤيا ذلك، ولم يُغيِّرْ لفظَ الملكِ؛ لأنَّ التعبيرَ يكونُ على وَفقِه، كما بيَّنوه(٢).

٩- قال الله تعالى حاكيًا عن يوسفَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أشار إلى إبقاءِ ما فضَل عن أقواتِهم في سنبلِه؛ ليكونَ أسلمَ له من إصابةِ السوسِ الذي يصيبُ الحبَّ إذا تراكَم بعضُه على بعضٍ، فإذا كان في سنبلِه دفَع عنه السوسَ(٣).

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في القَولِ بالمصالحِ الشَّرعيَّةِ- التي هي حِفظُ الأديانِ والنُّفوسِ، والعُقولِ والأنسابِ والأموالِ- فكُلُّ ما تضمَّنَ تحصيلَ شَيءٍ من هذه الأمورِ فهو مصلحةٌ، وكلُّ ما يُفوِّتُ شيئًا منها فهو مَفسَدةٌ، ودَفعُه مصلحةٌ، ولا خِلافَ أنَّ مقصودَ الشَّرائعِ إرشادُ النَّاسِ إلى مصالِحِهم الدُّنيويَّةِ؛ ليحصُلَ لهم التمَكُّنُ مِن معرفةِ الله تعالى وعبادتِه المُوصِلَتينِ إلى السَّعادةِ الأُخرويَّة، ومراعاةُ ذلك فضلٌ مِن اللهِ- عزَّ وجَلَّ- ورحمةٌ(٤).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ فيه أنَّ جِبايةَ الأرزاقِ- إذا أُريدَ بها التَّوسِعةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٣).

النَّاسِ مِن غيرِ ضَررٍ يَلحَقُهم- لا بأسَ بها؛ لأنَّ يوسُفَ أمَرَهم بجِبايةِ الأرزاقِ والأطعِمةِ في السِّنينَ المُخصِباتِ؛ للاستعدادِ للسِّنينَ المُجدِبة، وأنَّ هذا غيرُ مُناقِضٍ للتوكُّلِ على اللهِ، بل يتوكَّلُ العَبدُ على اللهِ ويعمَلُ بالأسبابِ التي تنفَعُه في دينِه ودُنياه⁽¹⁾.

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ هذا زيادةٌ على ما وقعَ السُّؤالُ عنه، فيُستدَلُّ به على أنَّه لا بأسَ بذلك في تعبيرِ الرُّؤيا والفتوى⁽²⁾.

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أحكامُ هذا العامِ المبارَكِ ليست مُستنبَطةً مِن رؤيا الملِكِ وإنَّما تلَقَّاها عليه السَّلامُ مِن جهةِ الوحيِ، على أحدِ القولينِ، فبشَّرهم بها بعدَما أوَّلَ الرُّؤيا بما أوَّلَ، وأمرَهم بالتَّدبيرِ اللَّائقِ في شأنِه؛ إبانةً لِعُلوِّ كَعبِه ورُسوخِ قَدمِه في الفضلِ، وأنَّه مُحيطٌ بما لَمْ يَخطُرْ ببالِ أحدٍ، فضلًا عمَّا يُرى صورتُه في المنامِ على نحوِ قولِه لِصاحِبَيهِ عندَ استِفْتائِهما في مَنامِهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]، وإتمامًا للنِّعمةِ عليه حيث لم يُشارِكْه عليه السَّلامُ في العِلمِ بوُقوعِها أحدٌ، ولو برؤيةِ ما يَدُلُّ عليها في المنامِ⁽³⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).

– قولُه: ﴿إِنِّي أَرَى﴾، أي: (رَأيتُ)، وإيثارُ صيغةِ المضارِعِ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ(١).

– قولُه: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ فيه العُدولُ إلى صيغةِ المضارعِ؛ لاستِحْضارِ الصُّورةِ؛ تعجُّبًا(٢).

– وبينَ ﴿سِمَانٍ﴾ و﴿عِجَافٌ﴾ مُزاوَجةٌ بَلاغيَّةٌ حسَنةٌ؛ ذلك أنَّ ﴿عِجَافٌ﴾ جَمعُ عَجْفاءَ، والقياسُ في جَمْعِ عَجْفاءَ (عُجْفٌ)، لكنَّه صِيغَ هنا بوَزنِ فِعَالٍ؛ لِمُزاوَجةِ (سِمَانٍ)(٣).

– وفي قولِه: ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث لم يَقُل: (سبعُ عِجافٍ) بالإضافةِ؛ لأنَّ التَّمييزَ موضوعٌ لبيانِ الجنسِ، والصِّفةُ ليست بصالحةٍ؛ لذلك فلا يُقالُ: ثلاثةُ ضِخامٍ وأربعةُ غِلاظٍ، وأمَّا قولُك: ثلاثةُ فُرسانٍ وخمسةُ رُكبانٍ؛ فلِجَرَيانِ الفارسِ والرَّاكبِ مَجرى الأسماءِ(٤).

– قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن التَّعبيرِ بالإفتاءِ؛ لِتَشريفِهم، وتَفخيمِ أمرِ رؤياه(٥).

– قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فيه الجمعُ بينَ الماضِي والمستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، واللَّامُ في ﴿لِلرُّؤْيَا﴾ للبيانِ، أو لتقويةِ العاملِ المؤخَّرِ لرعايةِ الفواصِلِ، أو لِتَضمينِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ معنى فِعلٍ متعَدٍّ باللَّامِ، كأنَّه قيل: (إن كُنتم تَنتدِبون لعِبارتِها)(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨١).

- وتَقديمُ ﴿لِلرُّؤْيَا﴾ على عامِلِه وهو ﴿تَعْبُرونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ مع الاهتمامِ بالرُّؤيا في التَّعبيرِ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قال الملأُ للمَلِكِ؟ فقيل: قالوا: هي ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾⁽²⁾.

- وجمَعوا الأحلامَ وهي رُؤيا واحدةٌ؛ مُبالَغةً في وصفِها بالبُطلانِ، كما في قولِهم: فلانٌ يَركَبُ الخيلَ، ويَلبَسُ العَمائمَ، لِمَن لا يَملِكُ إلَّا فرَسًا واحدًا، وعِمامةً فَرْدةً؛ تَزيُّدًا في الوصفِ، فهؤلاء أيضًا تَزيَّدوا في وصْفِ الحُلمِ بالبطلانِ، فجعَلوه أضغاثَ أحلامٍ. أو جمَعوها لِتَضمُّنِها أشياءَ مُختلِفةً مِن البقَراتِ السَّبعِ السِّمانِ والسَّبعِ العِجافِ، والسَّنابلِ السَّبعِ الخُضرِ والأُخَرِ اليابساتِ. وقيل: ويجوزُ أن يكونَ قد قَصَّ عليهم مع هذه الرُّؤيا رُؤيا غيرَها⁽³⁾.

- جملةُ: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ فيها ابتداءُ الكَلامِ بضَميرِ السَّاقي ﴿أَنَا﴾، وجَعَله مُسنَدًا إليه؛ وجَعَل خبَرَه فِعليًّا ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ لِقَصدِ استِجْلابِ تَعجُّبِ الملِكِ مِن أن يَكونَ السَّاقي يُنبِّئُ بتَأويلِ رُؤيا استَعْصَت على عُلماءِ بَلاطِ الملِكِ، مع إفادةِ تَقَوِّي الحُكْمِ، وهو إنباؤُه إيَّاهم بتأويلِها⁽⁴⁾.

- وضمائرُ جمْعِ المخاطَبِ في ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ مُخاطَبٌ بها الملِكُ على وجْهِ التَّعظيمِ⁽⁵⁾.

- وقولُه أيضًا: ﴿فَأَرْسِلُونَ﴾ فيه حذفُ المعمولِ؛ حيثُ لم يُسمِّ لهم المُرسَلَ

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨١).

(2) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨١).

(3) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨١).

(4) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).

(5) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إليه؛ لأنَّه أراد أنْ يُفاجِئَهم بخبرِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ بعدَ حُصولِ تعبيرِه؛ ليكونَ أوقعَ؛ إذ ليس مِثلُه مَظِنَّةً أنْ يكونَ بينَ المساجِينِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ مِن بابِ بَراعةِ الاستِهْلالِ؛ حيث وصَفه بالمبالَغةِ في الصِّدقِ حسَبَما شاهَده وذاق أحوالَه وجرَّبَها، وتَعرَّف صِدقَه في تأويلِ رُؤياه ورُؤيا صاحبِه، حيث جاء كما أوَّلَ؛ لِكَونِه بصَدَدِ اغتنامِ آثارِه، واقتباسِ أنوارِه(٢).

- قولُه: ﴿أَفْتِنَا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ حيث قال: ﴿أَفْتِنَا﴾، ولم يَقُلْ كما قال هو وصاحبُه أوَّلًا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ لأنَّه عايَنَ عُلوَّ رُتبتِه عليه السَّلامُ في الفضلِ، فعبَّر عن ذلك بالإفتاءِ، وأيضًا في قولِه: ﴿أَفْتِنَا﴾ مع أنَّه المستفتي وحْدَه إشعارٌ بأنَّ الرُّؤيا ليسَت له، بل لِغَيرِه ممَّن له مُلابَسةٌ بأمورِ العامَّةِ، وأنَّه في ذلك مَعْبَرٌ وسَفيرٌ(٣).

- وكلَّمَه كلامَ مُحترِزٍ فقال: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يَبُتَّ القولَ في ذلك مُجاراةً معه على نَهجِ الأدبِ، واحترازًا عن المجازفةِ؛ لأنَّه ليس على يقينٍ مِن الرُّجوعِ؛ فربَّما اختُرِم دونَه، ولا مِن عِلمِهم؛ فرُبَّما لم يَعلَموا، أو معنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لعلَّهم يعلَمون فضْلَك ومَكانَك مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

العلم، فيَطلُبوك، ويُخلِّصوك مِن مِحنتِك(١).

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (لعلَّ) كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿أَفْتِنَا﴾(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ خبَرٌ في مَعنى الأمرِ: (ازْرَعوا)(٣)؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ إنجازِ المأمورِ به، فيُجعَلُ كأنَّه وُجِد، فهو يُخبِرُ عنه، والدَّليلُ على كونِه في معنى الأمرِ قولُه: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِن بَعْدِ ذلك﴾ أي: مِن بعدِ السِّنينَ السَّبعِ المذكوراتِ، وإنَّما لم يَقُلْ: (مِن بعدِهنَّ) قصدًا إلى الإشارةِ إلى وَصفِهنَّ؛ فإنَّ الضَّميرَ ساكتٌ عن أوصافِ المرجعِ بالكُلِّيَّةِ(٥).

- قولُه: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ أمْرَه عليه السَّلامُ بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٥).

(٣) لكن قال أبو حيان: (ولا يدلُّ الأمرُ بتركِه في سنبلِه على أنَّ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ في معنى ازْرَعوا، بل ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إخبارُ غيبٍ بما يكونُ منهم مِن توالي الزرعِ سبعَ سنين. وأمَّا قولُه: ﴿فَذَرُوهُ﴾ فهو أمرُ إشارةٍ بما يَنبغي أن يَفعلوه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٥)، وتبعه السمينُ فقال: (قلت: هذا هو الظاهرُ، ولا مَدْخَلَ لأمرِه لهم بالزِّراعةِ؛ لأنَّهم يَزْرعون على عادتِهم، أمَرَهم أو لم يأمرْهم، وإنَّما يحتاجُ إلى الأمرِ فيما لم يكنْ مِن عادةِ الإنسانِ أن يفعلَه كتَرْكِه في سُنْبلِه). ((الدر المصون)) (٦/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).

كان لوقتِ الضَّرورةِ، وفيه تَلويحٌ بأنَّه تأويلٌ لأكلِ العِجافِ السِّمانَ، واللَّامُ في ﴿لَهُنَّ﴾ تَرشيحٌ لذلك؛ فكأنَّ ما ادُّخِرَ في السَّنابلِ مِن الحبوبِ شيءٌ قد هُيِّئَ وقُدِّم لهنَّ كالَّذي يُقدَّمُ للنَّازلِ، وإلَّا فهو في الحقيقةِ مُقدَّمٌ للنَّاسِ فيهِنَّ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث عبَّر عنه بالعامِ، ولم يُعبِّرْ عنه بالسَّنةِ؛ تَحاشِيًا عن المدلولِ الأصليِّ لها مِن عامِ القَحطِ، وتَنبيهًا مِنْ أوَّلِ الأمرِ عَلى اختِلافِ الحالِ بينَه وبينَ السَّوابقِ(٢).

- قولُه: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ فيه التَّعرُّضُ لِذكرِ العَصرِ- مع جَوازِ الاكتفاءِ عنه بذِكرِ الغيثِ المستلزِمِ له عادةً، كما اكتُفي به عن ذِكرِ تَصرُّفِهم في الحبوبِ-؛ إمَّا لأنَّ استِلزامَ الغيثِ له ليس كاستِلزامِه للحبوبِ؛ إذِ المذكوراتُ يتَوقَّفُ صَلاحُها على مَبادٍ أخرى غيرِ المطَرِ، وإمَّا لمراعاةِ جانبِ المستفتي باعتبارِ حالتِه الخاصَّةِ به بِشارةً له، وهي الَّتي يَدورُ عليها حُسْنُ موقعِ تَغليبِه على النَّاسِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٠-٥٣)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٞ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣) ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ خَطْبُكُنَّ ﴾: أي: أمرُكنَّ وشَأْنُكنَّ. والخَطْبُ: الأمرُ العظيمُ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الأمرِ يقَعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ[1].

﴿ حَصْحَصَ ﴾: أي: وضَحَ وتَبيَّنَ، وأصلُ (حصَّ): يدلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ وتَمكُّنِه[2].

﴿ لَأَمَّارَةٌ ﴾: أي: كثيرةُ الأمرِ، وأصلُ (أمر): خلافُ النَّهيِ[3].

المعنَى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المَلِكَ لَمَّا علِمَ بتأويلِ رُؤياه قال لأعوانِه: أخرِجوا هذا

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٣).

[3] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠).

الرجُلَ المعبِّرَ للرُّؤيا من السِّجنِ، وأحضِروه لي، فلمَّا جاءه رسولُ المَلِك يدعوه، قال يوسُفُ للرَّسولِ: ارجِعْ إلى سَيِّدِك المَلِك، واطلُبْ منه أن يسألَ النِّسوةَ اللَّاتي جَرَحْنَ أيديَهنَّ عن حقيقةِ أمْرِهنَّ وشأنِهنَّ معي؛ لتظهَرَ الحقيقةُ للجميعِ، وتتَّضِحَ براءتي، إنَّ رَبِّي عليمٌ بصَنيعِهنَّ وأفعالِهنَّ، لا يخفى عليه -سُبحانه- شَيءٌ مِن ذلك، فدعا المَلِكُ النِّسوةَ اللَّاتي جرَحْنَ أيديَهنَّ، وقال لهنَّ: ما شأنُكنَّ حين راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه يومَ الضِّيافةِ؟ فهل رأيتُنَّ منه ما يَريبُ؟ قُلنَ: معاذَ اللهِ ما عَلِمْنا عليه أدنى شيءٍ يَشِينُه، عند ذلك قالت امرأةُ العزيزِ: الآنَ ظهرَ الحَقُّ بعدَ خفائِه، فأنا التي حاوَلْتُ فِتنَتَه بإغرائِه فامتنَعَ، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في كُلِّ ما قاله، ذلك القَولُ الذي قُلْتُه في تنزيهِه والإقرارِ على نفسي: ليعلَمَ يوسُفُ أنِّي لم أخُنْه بالكَذِبِ عليه حالَ غَيبتِه عنِّي، وأنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ أهلَ الخيانةِ، ولا يُرشِدُهم في خيانتِهم، قالت امرأةُ العزيزِ: وما أُزَكِّي نفسي ولا أُبَرِّئُها؛ إنَّ النَّفسَ لَكثيرةُ الأمرِ لصاحِبِها بعمَلِ المعاصي؛ طلبًا لمَلذَّاتِها، إلَّا مَن عصَمَه الله، إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ مَن تاب مِن عبادِه، رحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾.

أي: ولَمَّا عَلِمَ المَلِكُ بتأويلِ رُؤياه قال: أخرِجوا الذي عبَّرَ رُؤيايَ هذه مِن السِّجنِ، وأحضِروه إليَّ(١).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾.

أي: فلمَّا جاء يوسفَ رسولُ المَلِك؛ ليُخرِجَه من السِّجنِ، قال له يوسُفُ: ارجِعْ إلى سيِّدِك المَلِك فاسأَلْه ما شأنُ النِّساءِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ؛ ليعلَمَ صِحَّةَ براءتي(١).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لو لبثتُ في السِّجنِ طولَ لُبثِ يوسُفَ، لأجبتُ الدَّاعيَ(٢)))(٣).

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بمَكرِ النِّساءِ بي وبغيري من النَّاسِ عليمٌ، لا يخفى عليه ذلك(٤).

﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ﴾.

﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ﴾.

أي: فرجَع رسولُ الملكِ إليه، وأخبَره برسالةِ يوسفَ، فدعا الملكُ النسوةَ اللاتي قطَّعن أيديهنَّ وامرأةَ العزيزِ، فقال لهن: ما شأنكنَّ وخبَرُكنَّ حين راودتُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ١٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٢) قال ابن حجر: «لأجَبْتُ الدَّاعِي» أي لأسرعتُ الإجابةَ في الخروجِ مِن السِّجنِ ولَمَا قَدَّمْتُ طَلَبَ البراءةِ، فوصَفَه بشِدَّةِ الصَّبرِ، حيثُ لم يُبادِرْ بالخروجِ، وإنَّما قاله صلَّى الله عليه وسلَّم تواضعًا، والتَّواضعُ لا يَحُطُّ مرتبةَ الكبيرِ، بل يَزيدُه رِفعةً وجلالًا، وقيلَ هو مِن جنسِ قولِه: «لا تُفَضِّلوني على يُونُسَ» وقد قيلَ: إنَّه قالَه قبلَ أنْ يعلمَ أنَّه أفضلُ مِن الجميعِ. ((فتح الباري)) (٦/ ٤١٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١)، واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٣).

يوسُفَ عن نفسِه(١)؟!

﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾.

أي: قال النِّسوةُ للمَلِك: معاذَ اللهِ أن يكونَ يوسُفُ متَّهمًا بسوءٍ، ما عَلِمْنا على يوسُفَ مِن ذنبٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ(٢)!

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: الآن تبيَّنَ الحَقُّ وظهر، أنا راودتُ يوسُفَ عن نفسِه، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في قولِه: هي راودَتْني عن نفسي(٣).

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ (٥٢)﴾.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: قالت امرأةُ العزيزِ: ذلك الإقرارُ والاعترافُ بالحَقِّ؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أكذِبْ عليه، ولم أرْمِه بالذَّنبِ في حالِ غَيبتِه عنِّي(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

(٤) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ تيميَّة، وأبو حيانَ، وابنُ القيمِ، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا، واستظهره ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨) و (١٥/ ١٣٩ - ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٩ - ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ مُرادَها بذلك زوجُها، أي: ليعلمَ أني حين أقررتُ أنِّي راودتُ يوسُفَ، أنِّي لم أخُنْه بالغيبِ، أي: لم يجْرِ مني إلَّا مجرَّدُ المراودةِ، ولم أُفسِدْ عليه فِراشَه، ويحتملُ أنَّ =

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

أي: وصدَعتُ بالحَقِّ؛ لأنَّ الله لا يسَدِّدُ حِيَلَ مَن خان الأماناتِ، بل يُبطِلُ كَيدَهم، ويَحرِمُهم الهِدايةَ(١).

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان في الكلامِ السَّابقِ نوعُ تَزكيةٍ لنَفسِها، وأنَّه لم يجْرِ منها ذنبٌ في شأنِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ استدركَتْ فقالت(٢):

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾.

أي: ولسْتُ أُبرِّئُ نفسي من الخطأِ والهَمِّ بذلك الإثمِ، والقيامِ بالمكائدِ

= المراد بذلك: ليعلمَ يوسُفُ حين أقررتُ أنِّي أنا الذي راودتُه، وأنَّه صادِقٌ، أني لم أخُنْه في حالِ غيبتِه عنِّي). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦).
والاحتمالُ الأولُ هو اختيارُ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥).
وقيل: القائل هو يوسُفُ، والمعنى: ما فعلتُه مِن عدَمِ خُروجي من السِّجنِ مع رسولِ المَلِك، وطَلَبي من المَلِك أن يسأل النسوةَ اللاتي قطَّعنَ أيديَهنَّ عن قصَّتِهنَّ، إنَّما فعَلْتُه ليعلمَ العزيزُ أنِّي لم أرتكِبْ فاحشةً مع زوجتِه في حالِ غَيبتِه عنِّي. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ- ونسبه لعامة المفسِّرين- والزمخشري، والجلال السيوطيُّ، والألوسي، ونسبه الشوكانيُّ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٩، ٤٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١).
وممن قال مِن السلف أنَّ هذا من قولِ يوسفَ: مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وعكرمة، وابنُ أبي الهذيلِ، والضحَّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، والسديُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٥١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

والحِيَلِ؛ لأجلِ ذلك(١).

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

أي: لا أدَّعي براءةَ نفسي؛ لأنَّ نُفوسَ العبادِ كثيرًا ما تأمُرُهم بما تَهواه من المعاصي، إلَّا مَن رَحِمَ الله فعصَمَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

واختار أنَّ هذا قولُ امرأةِ العزيزِ: ابنُ تيمية، وأبو حيان، وابنُ القيم، وابنُ كثيرٍ، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨) و (١٥/ ١٣٩-١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٩-٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

قال ابن تيمية: (ما ذُكِرَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] إنما يناسِبُ حالَ امرأة العزيزِ، لا يناسِبُ حال يوسف؛ فإضافةُ الذنوبِ إلى يوسُفَ في هذه القضيةِ فِريةٌ على الكتابِ والرَّسولِ، وفيه تحريفٌ للكَلِم عن مواضعه، وفيه الاغتيابُ لنبيٍّ كريم، وقولُ الباطلِ فيه بلا دليلٍ، ونِسبتُه إلى ما نزَّهَه الله منه، وغيرُ مُستبعَدٍ أن يكونَ أصلُ هذا من اليهودِ أهلِ البُهتِ، الذين كانوا يرمونَ موسى بما برَّأه الله منه، فكيف بغيرِه من الأنبياءِ؟!). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤٩، ١٥٠).

وقيل: هو قولُ يوسُفَ عليه الصَّلاة والسَّلام. ونسبه الخازن إلى أكثر المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٤). واختاره ابنُ جريرٍ وغيره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ قيل: هو مِن قولِ المرأةِ. وقال القشيري: فالظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾، وقولَه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من قولِ يوسُفَ. قلت: إذا احتمَل أن يكونَ مِن قولِ المرأةِ فالقولُ به أولَى حتى نبرئَ يوسفَ مِن حلِّ الإزارِ والسراويلِ، وإذا قدَّرناه مِن قولِ يوسفَ فيكونُ مما خطَر بقلبِه، على ما قدَّمناه مِن القولِ المختارِ في قولِه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

قال ابنُ عطية: (﴿النَّفْسَ﴾ اسمُ جنسٍ، فصحَّ أن تقعَ ﴿مَا﴾ مكان «من»؛ إذ هي كذلك في صفاتِ مَن يعقلُ، وفي أجناسِه... ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ ظرفيةً، والمعنى: إنَّ النفسَ =

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مِن شأنِه أنَّه كثيرُ الصَّفحِ عن ذنوبِ عبادِه التَّائبينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعذِّبُهم، ويقبَلُ توبتَهم، ويوفِّقُهم للخيرِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ يدلُّ على فضيلةِ العِلمِ؛ فإنَّه سُبحانه جعل علمَ يوسُفَ عليه السَّلامُ سببًا لخَلاصِه مِن المِحنةِ الدُّنيويَّةِ، فكيف لا يكونُ العِلمُ سَببًا للخَلاصِ مِن المِحَنِ الأُخرويَّةِ(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيه سَعيُ الإنسانِ في براءةِ نَفسِه؛ لئلَّا يُتَّهمَ بخيانةٍ أو نَحوِها، خصوصًا الأكابرَ، ومَن يُقتدى بهم(٣)، فتبرئةُ العِرضِ مِن التُّهَمِ الباطلةِ مَقصِدٌ شَرعيٌّ(٤).

= لأمارةٌ بالسوءِ إلا مدةَ رحمةِ الله العبدَ، وذهابِه عن اشتهاءِ المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٠).

قال ابنُ القيِّم: (فتأمَّلْ: ما أعجَبَ أمْرَ هذه المرأةِ؛ أقَرَّت بالحَقِّ، واعتَذَرت عن محبوبِها، ثمَّ اعتَذَرت عن نَفسِها، ثمَّ ذَكَرت السَّببَ الحامِلَ لها على ما فعَلَت، ثمَّ ختمت ذلك بالطَّمَعِ في مَغفرةِ اللهِ ورَحمتِه، وأنَّه إن لم يرحَمْ عَبدَه وإلَّا فهو عُرضةٌ للشَّرِّ!! فوازِنْ بين هذا وبين تقديرِ كَونِ هذا الكلام كَلامَ يُوسُفَ عليه السَّلامُ لفظًا ومعنًى، وتأمَّلْ ما بين التَّقديرينِ مِن التفاوُتِ! ولا يُستبعَدُ أن تَقولَ المرأةُ هذا وهي على دينِ الشِّركِ؛ فإنَّ القومَ كانوا يُقِرُّونَ بالرَّبِّ سُبحانه وتعالى وبحَقِّه، وإن أشركوا معه غيرَه، ولا تنْسَ قَولَ سَيِّدِها لها في أوَّلِ الحالِ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾). ((روضة المحبين)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٨).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ هذه حِكمةٌ عظيمةٌ تحِقُّ بأن يُؤتَسى بها، وهي تطَلُّبُ المسجونِ باطلًا أن يبقى في السِّجنِ حتى تتبيَّنَ براءتُه من السبَبِ الذي سُجِنَ لأجلِه، وهي راجِعةٌ إلى التحلِّي بالصبرِ حتى يظهرَ النَّصرُ(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في اعترافِ امرأةِ العزيزِ بحضرةِ المَلِك عِبرةٌ بفضيلةِ الاعترافِ بالحَقِّ، وتبرئةِ البَريءِ ممَّا أُلصِقَ به، ومِن خشيةِ عِقابِ الله الخائنينَ(٢).

٥- مِنْ عَجائبِ الجَزاءِ في الدُّنيا أنَّه لمَّا بَغَتْ على يوسف عليه السلام المرأةُ بدَعْواها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أنطَقَها الحقَّ بقولِها: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾(٣).

٦- عاقبَ اللهُ كلَّ خائنٍ بأنَّه يُضِلُّ كَيدَه ويُبطِلُه، ولا يهديه لمقصودِه وإن نال بعضَه، فالذي ناله سببٌ لزيادةِ عُقوبتِه وخَيبتِه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أُطلِقَت الهدايةُ- التي هي الإرشادُ إلى الطريقِ المُوصلةِ إلى تيسيرِ الوُصولِ- وأُطلِقَ نفيُها على نفيِ ذلك التَّيسيرِ، أي: أنَّ سُنَّةَ الله في الكونِ جَرَت على أنَّ فُنونَ الباطِلِ - وإن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٥٩).

راجَت أوائِلُها- لا تلبَثُ أن تنقَشِعَ(١).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أصلٌ في التَّواضُعِ، وكَسرِ النَّفسِ، وهَضمِها(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ دليلٌ على أنَّ هذا وصفُ النَّفسِ مِن حيثُ هي، وأنَّها لا تخرُجُ عن هذا الوَصفِ إلَّا برَحمةٍ مِن اللهِ وعنايةٍ منه؛ لأنَّ النَّفسَ ظالِمةٌ جاهِلةٌ، والظُّلمُ والجَهلُ لا يأتي منهما إلَّا كُلُّ شَرٍّ، فإنْ رَحِمَ اللهُ العبدَ، ومَنَّ عليه بالعِلمِ النَّافعِ، وسُلوكِ طريقِ العَدلِ في أخلاقِه وأعمالِه، خرَجَت نفسُه مِن هذا الوَصفِ، وصارت مُطمَئِنَّةً إلى طاعةِ اللهِ وذِكرِه، ولم تأمُرْ صاحِبَها إلَّا بالخيرِ، ويكونُ مآلُها إلى فضلِ الله وثوابِه؛ قال تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] فعلى العبدِ أن يسعَى في إصلاحِ نَفسِه، وإخراجِها مِن هذا الوصفِ المذمومِ، وهو أنَّها أمَّارةٌ بالسُّوءِ، وذلك بالاجتهادِ، وتخَلُّقِها بأحسَنِ الأخلاقِ، وسُؤالِ اللهِ على الدَّوامِ، وأن يُكثِرَ مِن الدعاءِ المأثورِ(٣): ((اهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ؛ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عنِّي سَيِّئَها؛ لا يصرِفُ عني سَيِّئَها إلَّا أنت))(٤).

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ هذا يدُلُّ على أنَّه ليس كلُّ نفسٍ أمَّارةً بالسُّوءِ، بل ما رَحِمَ ربِّي ليس فيه النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ، وقد ذكَرَ طائفةٌ مِن النَّاسِ أنَّ النَّفسَ لها ثلاثةُ أحوالٍ: تكونُ أمَّارةً بالسُّوءِ، ثم تكونُ لوَّامةً، أي: تفعلُ الذَّنبَ، ثمَّ تلومُ عليه، أو تتلوَّمُ فتترَدَّدُ بين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطولًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٣).

الذَّنبِ والتَّوبة، ثمَّ تصيرُ مُطمَئِنَّةً[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ...﴾ الذي فَعلَه يُوسُف مِن الصَّبْر والتَّوَقُّف إلى أن تَفَحَّصَ المَلِكُ عن حالِه هو اللَّائِق بالحَزْم والعَقْل، وبَيانُه مِن وُجوه:

الأوَّل: أنَّه لو خَرَج في الحالِ فرُبَّما كان يَبْقَى في قلبِ المَلِك مِن تلك التُّهْمَةِ أثَرُها، فلمَّا الْتَمَس مِن المَلِكِ أن يَتَفَحَّص عن حالِ تلك الواقِعَة دَلَّ ذلك على بَراءَتِه مِن تلك التُّهْمَة، فبعدَ خُروجِه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُلَطِّخَه بتلك الرَّذيلةِ، وأن يَتَوَسَّل بها إلى الطَّعْنِ فيه.

الثَّاني: أنَّ الإنسانَ الذي بَقِيَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنين إذا طَلَبه المَلِكُ وأمَر بإخراجِه؛ الظَّاهِرُ أنَّه يُبادِرُ بالخُروجِ، فحيثُ لم يَخرُجْ عرَف منه كونَه في نِهايةِ العَقْلِ والصَّبرِ والثَّباتِ، وذلك يَصيرُ سَبَبًا لأن يَعتَقِدَ فيه بالبَراءَةِ عن جَميعِ أنواعِ التُّهَمِ، ولأن يَحكُمَ بأنَّ كُلَّ ما قِيلَ فيه كان كَذِبًا وبُهتانًا.

الثَّالِث: أنَّ الْتِماسَه مِن المَلِك أن يَتَفَحَّصَ عن حالِه مِن تلك النِّسْوَة يَدُلُّ أيضًا على شِدَّةِ طَهارَتِه؛ إذ لو كان مُلَوَّثًا بوجهٍ ما، لكان خائفًا أن يَذكُرَ ما سبَق[2].

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، إنَّما قال: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ وسَكَتَ عنِ امرأةِ العَزيزِ، وفي ذلك عدةُ أوجهٍ:

الأول: أنَّه جعَلَ السُّؤالَ عن النِّسوةِ اللاتي قطَّعنَ أيديَهنَّ دونَ امرأةِ العزيزِ؛

---

[1] يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤٣).

[2] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٦٦).

تسهيلًا للكشفِ عن أمرِها؛ لأنَّ ذِكرَها مع مكانةِ زَوجِها من المَلِك ربَّما يصرِفُ المَلِكَ عن الكشفِ؛ رعيًا للعزيز، ولأنَّ حديثَ المتَّكأِ شاع بينَ الناسِ، وأصبحت قضيَّةُ يوسفَ عليه السلام مشهورةً بذلك اليوم، وأيضًا فإنَّ النسوةَ كنَّ شواهدَ على إقرارِ امرأةِ العزيزِ بأنَّها راودَتْ يوسُفَ عليه السلامُ عن نفسِه(١).

الثاني: أنَّه سكَت عنها، أدبًا واحترامًا، وحُسْنَ عِشْرَةٍ(٢) ورعايةً لِذِمَامِ العَزيزِ، ووفاءً له فهو زوجُها(٣).

الثالثُ: أنَّ في سؤالِه عنها تهمةً، ربَّما صار بها متَّهمًا(٤).

الرابعُ: خَوْفًا مِن كَيْدِها، وعَظيمِ شَرِّها، واحترازًا عن مكرِها(٥).

٣- في قولِه: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ حثٌّ للمَلِكِ على الجِدِّ في التَّفتيشِ؛ لِتتبيَّنَ بَرءاتُه، وتتَّضِحَ نَزاهتُه؛ إذ السُّؤالُ ممَّا يُهيِّجُ الإنسانَ على الاهتمامِ في البحثِ للتَّقصِّي عمَّا توجَّه إليه؛ لأنَّه يأنفُ مِن الجهلِ، وأمَّا الطَّلبُ فمِمَّا قد يُتسامَحُ ويُتساهَلُ فيه، ولا يُبالَى به؛ لذا لم يَقُلْ: فاسأَله أن يُفتِّشَ عن ذلك(٦).

٤- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ذَكَرَ يُوسفُ عليه السَّلامُ السُّؤالَ عن تَقْطِيعِ الأَيْدِي، ولم يذكُرْ مُراودتَهنَّ له؛ تَنَزُّهًا منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١)، ((روح البيان)) للخلوتي (٤/ ٢٧١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٤٧).

عن نِسْبَةِ ذلك إليهنَّ، ولذلك لم يَنْسِبِ المُراودةَ فيما تَقَدَّمَ إلى امرأةِ العَزيزِ إلَّا بعدَ أنْ رَمَتْه بدائِها وانسَلَّتْ. وقد اكتَفَى هنا بالإشارَةِ الإجماليَّةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فجَعَل عِلْمَ اللَّهِ سبحانه بما وَقَع عليه مِن الكيدِ منهنَّ مُغْنيًا عن التَّصريحِ(١)، مُجاملةً معَهنَّ، واحتِرازًا عن سوءِ قالَتِهنَّ عندَ المَلِكِ وانتِصابِهنَّ للخُصومةِ؛ مُدافَعةً عن أنفُسِهنَّ متى سَمِعنَ بنِسْبتِه لهنَّ إلى الفسادِ(٢). وقيل: اقتصَر على وصفِهنَّ بتَقطيعِ الأيدي، ولم يُصرِّحْ بمُراودَتِهنَّ له؛ لأنَّه كان يَطمَعُ في صَدْعِهنَّ بالحقِّ، وشَهادتِهنَّ بإقرارِها بأنَّها راوَدَتْه عن نفسِه، فاستَعصَم(٣).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ في قَولِ المَلِك لهنَّ: ﴿رَاوَدتُّنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ براءتَه كانت متحَقِّقةً عند كلِّ مَن عَلِمَ القِصَّةَ(٤).

٦- في قَولِه تعالى عن امرأةِ العزيزِ: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ وكذا عن النِّسوةِ: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ إشارةٌ إلى نَفي ما قد ذَكَرَه طائفةٌ مِن المفسِّرينَ مِن أنَّه وُجِدَ مِن يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعضُ المقَدِّماتِ، مثلُ حَلِّ السَّراويلِ، والجلوسِ مَجْلِسَ الخاتِنِ، فلو كان قد بَدَتْ منه هذه المقَدِّماتُ لكانت المرأةُ قد رأتْ ذلك، وقولُه تعالى: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فدلَّ ذلك على أنَّ المرأةَ لم تَرَ منه سوءًا(٥).

٧- قولُ امرأةِ العزيزِ: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا القولُ منها- وإنْ لم يكُنْ سأل عنه- إظهارٌ لتوبتِها، وتحقيقٌ لِصدقِ يوسُفَ وكَرامتِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٠).

لأنَّ إقرارَ المُقِرِّ على نفسِه أقوى من الشَّهادةِ عليه، فجمع اللهُ تعالى ليوسُفَ- لإظهارِ صِدقِه- الشَّهادةَ والإقرارَ، حتى لا يخامِرَ نَفسًا ظَنٌّ، ولا يُخالِطَها شَكٌّ(١).

٨- تَمَدَّحَت امْرأةُ العَزيز بِعَدَم الخِيانَة على أَبلَغِ وَجهٍ بِقَولِها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ إذْ نَفَت الخِيانَة في المَغيبِ، وهو حائِل بينه وبين دِفاعِه عن نَفسِه، وحالةُ المَغيب أَمكَن لِمُريدِ الخِيانَة أن يَخونَ فيها مِن حالَةِ الحَضرَةِ؛ لأنَّ الحاضِر قد يَتَفَطَّن لِقَصْدِ الخائِن فَيَدفَع خِيانَتَه بالحُجَّة(٢).

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، هذا السُّؤالُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ دُون طلَبِ الفَهمِ؛ لأنَّ السائِلَ عالِمٌ بالأمْرِ المسؤولِ عنه، وإنَّما يُريدُ السائلُ حَثَّ المسؤولِ عن عِلمِ الخَبرِ على ما يُريدُ(٣).

- وقدَّمَ سُؤالَ النِّسوةِ؛ لِيُظهِرَ بَراءَةَ ساحَتِه عمَّا رُمِي به وسُجِن فيه؛ لِئَلَّا يَتسلَّقَ به الحاسِدون إلى تَقْبيحِ أمْرِه عِندَه، ويَجعَلوه سُلَّمًا إلى حَطِّ مَنزلتِه لدَيْه، ولِئَلَّا يَقولوا: ما خُلِّد في السِّجنِ بضعةَ سِنينَ إلَّا لأمْرٍ عَظيمٍ، وجُرْمٍ كبيرٍ، حقَّ به أن يُسجَنَ ويُعذَّبَ، ويُستَكَفَّ شَرُّه(٤).

- جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ وتعريضٌ بأنَّ الكشْفَ المطلوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨٧).

سيَنْجَلي عن بَراءتِه، وظهورِ كَيْدِ الكائداتِ له؛ ثِقةً باللهِ ربِّه أنَّه ناصِرُه⁽¹⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

- جُملَةُ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الجُمَلَ الَّتي سبقَتْها تُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ عمَّا حصَل مِن الملِكِ لَمَّا أُبلِغَ إليه اقتراحُ يوسُفَ عليه السَّلامُ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ فيها مُبالَغةٌ في النَّفْيِ والتَّنزيهِ، وتَعجُّبٌ مِن نَزاهتِه وعِفَّتِه عليه السَّلامُ⁽³⁾.

- وجملةُ ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ مُبيِّنةٌ لإجمالِ النَّفْيِ الَّذي في ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، وفيها مُبالَغةٌ في نَفْيِ جِنْسِ السُّوءِ عنه بتَنْكيرِ ﴿سُوءٍ﴾، وزيادةِ ﴿مِنْ﴾⁽⁴⁾.

- وجاءت جُملةُ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ مَفصولةً -أي: غيرَ مَعطوفةٍ على التي قَبْلَها-؛ لأنَّها حِكايةُ جوابٍ عن سؤالِ الملِكِ، والتَّعبيرُ بالماضِي ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ مع أنَّه لم يَثبُتْ إلَّا مِن إقرارِها الذي لم يَسبِقْ؛ لأنَّه قريبُ الوقوعِ؛ فهو لتقريبِ زَمَنِ الحالِ مِن المضيِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ ثُبوتَ الحقِّ بقولِ النِّسوةِ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

فيَكونَ الماضِي على حقيقتِه(١).

- وفي قولِها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ تقديمُ اسمِ الزَّمانِ ﴿الْآنَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: الآن لا قبْلَه؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما قَبلَ ذلك الزمانِ كان زَمنَ باطلٍ، وهو زمنُ تُهمةِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ بالمراودةِ؛ فالقَصرُ قَصْرُ تعيينٍ؛ إذ كان الملكُ لا يَدري أيُّ الوقتَينِ وقتُ الصِّدقِ؛ أهو وقتُ اعترافِ النِّسوةِ بنزاهةِ يُوسفَ عليه السَّلامُ، أم هو وقتُ رمْيِ امرأةِ العزيزِ إيَّاه بالمُراودةِ(٢).

- وجملةُ ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾ فيها تَقديمُ المسنَدِ إليه ﴿أَنَا﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿رَاوَدْتُهُ﴾ وهو يُفيدُ القَصْرَ؛ وذلك لإبطالِ أن يَكونَ هو راوَدَها، فهذا إقرارٌ مِنها على نَفْسِها، وشَهادةٌ لِغَيرِها بالبراءةِ، وزادَت فأكَّدَت صِدقَه بـ (إنَّ) واللَّامِ في: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ كالاحتِراسِ ممَّا يقْتَضيه قولُها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] مِن أنَّ تَبرئةَ نَفْسِها مِن هذا الذَّنْبِ العظيمِ ادِّعاءٌ بأنَّ نَفْسَها بَريئةٌ بَراءةً عامَّةً فقالتْ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾(٤).

- جُملَةُ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؛ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

لا أدَّعي بَراءةَ نَفْسي مِن ارتكابِ الذَّنبِ؛ لأنَّ النُّفوسَ كثيرةُ الأمرِ بالسُّوءِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ مع التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ؛ لتربيةِ مَباديْ المغفرةِ والرَّحمةِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).

الآيات (٥٤-٥٧)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾: أي: أجعَلْه مِن خُلَصائي دونَ غيري، أو أُفوِّضْ إليه أمرَ مَملكتي، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه(١).

﴿مَكِينٌ﴾: أي: مُتمكِّنٌ ممَّا أردتَ، نافذُ القولِ، أو: ذو مَكانةٍ ومنزلةٍ خاصَّةٍ(٢).

﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أي: يَنزِلُ، وأصْلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ(٣).

المعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ مَلِكَ مصرَ قال حين عَلِمَ بَراءةَ يوسُفَ: جيئُوني به أجعَلْه مِن خُلَصائي وأهلِ مَشورتي، فلَمَّا جاء يوسُفُ، وكلَّمه المَلِكُ، وعرَفَ براءتَه، وعظيمَ أمانتِه، وحُسنَ خُلُقِه؛ قال له: إنَّك اليومَ عندنا عظيمُ المَكانةِ، ومُؤتَمَنٌ على كلِّ شَيءٍ، وأراد يوسُفُ أن ينفعَ العبادَ، ويُقيمَ العدلَ بينهم، فقال للمَلِكِ: اجعَلْني واليًا على خزائنِ مِصرَ؛ فإنِّي خازنٌ أمينٌ، ذو عِلمٍ وبصيرةٍ بما أتولَّاه، وكما أنعَمَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٢)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيَّان (ص: ٢٨٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨).

على يوسُفَ بالخَلاصِ مِن السِّجنِ، مكَّنَ له في أرضِ مصرَ ينزِلُ منها أيَّ مَنزِلٍ شاءَه، يُصيبُ اللهُ برَحمتِه مَن يشاءُ مِن عبادِه المتَّقينَ، ولا يُضيعُ أجرَ مَن أحسَنَ شيئًا مِن العمَلِ الصَّالحِ، ولَثوابُ الآخرةِ عندَ اللهِ لأهلِ الإيمانِ والتَّقوى- الَّذين يخافونَ عِقابَ اللهِ، ويُطيعونَه في أمرِه ونَهيِه- أعظَمُ مِن ثوابِ الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾.

أي: وقال مِلِكُ مصرَ لَمَّا عَلِمَ بَراءةَ يوسُفَ، وعرَفَ فضْلَه وعِلْمَه، وحِكمتَه وحُسْنَ خُلُقِه، وصَبْرَه وعِفَّتَه: ائتوني بيوسُفَ مِن السِّجنِ أجعَلْه مِن خاصَّتي وأهلِ مَشورَتي، خالِصًا لنَفْسي لا يُشارِكُني فيه أحدٌ⁽¹⁾.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾.

أي: فلَمَّا كلَّمَه المَلِكُ، ورَأى فضْلَه وخِصالَه الحميدةَ، زادت مكانتُه لديه، فقال له: إنَّك قد صِرْتَ عندنا ذا مَكانةٍ وأمانةٍ، مُتمكِّنًا ممَّا أردْتَ، أمينًا على ما نأتَمِنُك عليه⁽²⁾.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٠، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

وقال القرطبيُّ: ﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾: أي: متمكِّنٌ، نافذُ القولِ، ﴿أَمِينٞ﴾: لا تخافُ غدرًا. ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٢).

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلها:

أنَّه لَمَّا وصَفه الملِكُ بالتَّمكُّنِ عنده والأمانةِ، طلَبَ مِن الأعمالِ ما يُناسِبُ هذينِ الوصفينِ(١).

﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قال له يوسُفُ طلبًا للمصلحَةِ العامَّةِ: وكِّلْني على خَزائنِ الأموالِ والطَّعامِ في أرضِ مصرَ؛ لحفْظِها وتدْبيرِها(٢).

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾.

أي: إنِّي حافظٌ وخازنٌ، أمينٌ للخَزائنِ الَّتي استودعْتَني، ذو عِلْمٍ وبصَرٍ بما أتولَّاه منها، فأعْلَمُ كيفيَّةَ تدْبيرِها والتَّصرُّفِ فيها، دون أنْ يضيعَ شيءٌ منها في غيرِ مَحلِّه(٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿نَشَاءُ﴾ بالنُّونِ، بجَعلِ الفِعلِ للَّهِ تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٤) قرأ بها ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجَّة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٦)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ١١).

٢- قِراءةُ ﴿يَشَاءُ﴾ بالياءِ، بجَعلِ الفِعلِ لِيوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ (١).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

أي: ومِثْلَ ما أنعَمْنا على يوسُفَ بإنجائِه مِن السِّجنِ، وتقريبِه إلى قَلْبِ المَلِكِ، أقْدَرْناه في أرضِ مصرَ، يتَّخذُ منها منزِلًا حيث يشاءُ (٢).

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

أي: نُصيبُ برحمتِنا في الدُّنيا والآخِرةِ مَن نشاءُ مِن عِبادِنا، كما رَحِمْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ (٣).

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: ولا نُبْطِلُ جَزاءَ الَّذينَ أحْسَنوا أعمالَهم بالطَّاعةِ، وترْكِ المَعصيةِ، فنُثيبُهم في الدُّنيا والآخِرةِ كما أثَبْنا يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ (٤).

كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٦).

قال ابنُ عاشورٍ: (قرأ الجمهورُ ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ بنونِ العظمةِ، أي: حيث يشاءُ اللهُ، أي: حيث نأمرُه أو نُلهمُه، والمعنى متَّحدٌ؛ لأنَّه لا يشاء إلَّا ما شاءه اللهُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضَعْنا صبْرَ يُوسفَ على أذى إخوتِه، وصبْرَه على الحبسِ بسببِ امرأةِ العزيزِ؛ فلهذا أعقَبَه اللهُ عزَّ وجلَّ السَّلامةَ والنَّصرَ والتَّأييدَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٦).

وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلها:

لَمَّا كان عِزُّ الدُّنيا لا يُعَدُّ في الحقيقةِ إلَّا إنْ كان موصولًا بنَعيمِ الآخِرةِ؛ نبَّهَ على ما له في الآخِرةِ ممَّا لا يُعَدُّ هذا في جنْبِه شيئًا، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولَثوابُ اللَّهِ في الآخِرةِ خيرٌ مِن ثَوابِ الدُّنيا، للمُؤمنينَ المتَّقينَ، الَّذينَ يُؤمنونَ بِما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، ويمتثِلونَ ما أمَرَ اللَّهُ تعالى به، ويجتنِبونَ ما نهَى عنه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه فَضيلةُ العِلْمِ؛ عِلْمِ الأحكامِ والشَّرعِ، وعِلْمِ تعبيرِ الرُّؤيا، وعِلْمِ التَّدبيرِ والتَّربيةِ، وأنَّه أفضَلُ مِن الصُّورةِ الظَّاهِرةِ، ولو بلَغَ الشَّخصُ في الحُسْنِ جَمالَ يوسُفَ؛ فإنَّ يوسُفَ- بسَبَبِ جَمالِه- حصَلَت له تلك المِحنةُ والسِّجنُ، وبسَبَبِ عِلْمِه حصَلَ له العِزُّ والرِّفعَةُ والتَّمكينُ في الأرضِ؛ فإنَّ كلَّ

---

[1] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٣٣).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

خيرٍ في الدُّنيا والآخِرةِ مِن آثارِ العِلْمِ وموجِباتِه(١).

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ هذه الآيةُ أصْلٌ لوُجوبِ عرْضِ المَرءِ نفسَه لولايةِ عمَلٍ مِن أمورِ الأُمَّةِ إذا علِمَ أنَّه لا يصلُحُ له غيرُه؛ لأنَّ ذلك مِن النُّصحِ للأُمَّةِ، وخاصَّةً إذا لم يكُنْ ممَّن يُتَّهمُ على إيثارِ منفعَةِ نفسِه على مصلحَةِ الأُمَّةِ، وقد علِمَ يوسُفُ عليه السَّلامُ أنَّه أفضلُ النَّاسِ هنالك؛ لأنَّه كان المُؤمنَ الوحيدَ في ذلك القُطْرِ، فهو لإيمانِه باللَّهِ يبُثُّ أصولَ الفضائلِ الَّتي تقتَضيها شَريعةُ آبائِه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، عليهم السَّلامُ(٢).

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ يُثابُ على حَسَناتِه في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فيه أنَّ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ، والإحسانَ إلى العبادِ سببٌ يُنالُ به العِلمُ، وتُنالُ به خيراتُ الدُّنيا والآخرةِ، فجعل اللهُ الإحسانَ سببًا لنَيلِ هذه المراتبِ العاليةِ(٤).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه أنَّ اللَّهَ واسِعُ الجودِ والكرَمِ؛ يجودُ على عبْدِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٢).

بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ خيرَ الآخرةِ له سَبَبانِ: الإيمانُ والتَّقوى، وأنَّه خيرٌ مِن ثَوابِ الدُّنيا ومُلْكِها، وأنَّ العبدَ ينبَغي له أن يدعُوَ نفسَه ويُشوِّقَها لِثَوابِ اللَّهِ، ولا يدَعَها تحزَنُ إذا رأَت أهلَ الدُّنيا ولذَّاتِها وهي غيرُ قادرةٍ عليها، بل يُسلِّيها بثَوابِ اللَّهِ الأُخرويِّ وفضلِه العظيمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١).

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ الآيةُ فيها مِن العِبرةِ: أنَّ المَظلومَ المَحسودَ إذا صبَرَ واتَّقى اللَّهَ، كانت له العاقِبةُ(٢).

٧- مَن ترَكَ للَّهِ شيئًا عوَّضَه اللَّهُ خيرًا منه؛ كما ترَكَ يوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ امرأةَ العزيزِ للَّهِ، واختارَ السِّجنَ على الفاحِشةِ، فعوَّضَه اللَّهُ أنْ مكَّنَه في الأرضِ يتبوَّأُ منها حيث يشاءُ، فتأمَّلْ كيف جَزاهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى على ضِيقِ السِّجنِ أنْ مكَّنَه في الأرضِ ينزِلُ منها حيث يشاءُ، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وأذلَّ له العزيزَ وامرأتَه، وأقرَّتِ المرأةُ والنِّسوةُ ببَراءتِه، وهذه سُنَّتُه تعالى في عِبادِه قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامةِ(٣).

٨- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الطَّاعةَ تُثمِرُ الرِّزقَ في الدُّنيا، ويُعطَى المؤمنُ الأجرَ عليها في الدُّنيا، ولا يَنقُصُ ذلك مِن ثوابِه عند اللَّهِ شيئًا، كما يُعطَى الكافِرُ بالشَّيْءِ يَسكُنُ له في الدُّنيا، ولا يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥).

لهُ في الآخِرَةِ نَصيبٌ(١).

٩- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نَيْلَ الدُّنيا- إذا لم يَشغَلْ عنِ الآخِرةِ- غيرُ مَذموم، ويكونُ المُعْطَى به مرحومًا، غيرَ مَسْخوطٍ عليه، وأنَّه وإنْ كان كذلك فأَجْرُ الآخِرةِ خَيْرٌ منه؛ لقولِه تبارك وتعالى مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الولايةُ لها رُكنانِ: القوَّةُ والأمانةُ، قال اللَّهُ تعالى عن صاحبِ مصرَ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقال تعالى أيضًا عنِ ابنةِ الرَّجلِ الصَّالحِ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(٣) [القصص: ٢٦]، فالولاياتُ الكِبارُ والصِّغارُ لا بُدَّ لِمُتولِّيها أن يكونَ كُفؤًا في قُوَّتِه وأمانتِه وعِلمِه بأمورِ الولايةِ؛ لأنَّ المَلِكَ لَمَّا كلَّمَ يوسُفَ ورأى مِن عِلمِه وخِبرتِه بالأمورِ وحُسنِ نَظَرِه؛ استخلَصَه لنفسِه، وقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقال يوسفُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فعلَّلَ ذلك بكمالِ حِفظِه لِما تحتَ يدِه وتصَرُّفِه، وكمالِ عِلمِه بوجوهِ المُستخرَجِ والمُنصَرفِ، وحُسنِ التَّدبيرِ(٤).

٢- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: في هذه الآيةِ ما يُبيحُ للرَّجلِ الفاضِلِ أنْ يعمَلَ للرَّجلِ الفاجِرِ والسُّلطانِ الكافِرِ بما يقْتَضيه الشَّرعُ والعدْلُ، بشرْطِ أنْ يعلَمَ أنَّه يفوِّضُ إليه في فعْلٍ لا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من سورة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٩).

يعارِضُه فيه، فيُصلِحُ منه ما شاء، وأمَّا إذا كان عمَلُه بحسبِ اختيارِ الفاجرِ وشَهواتِه وفُجورِه، فلا يجوزُ ذلك⁽¹⁾.

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ دلَّ ثناءُ يوسُفَ على نفْسِه أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يُثنِيَ على نفسِه بالحقِّ إذا جُهِلَ أمْرُه، ولا يكونُ ذلك مِن التَّزكيةِ المَنهِيِّ عنها⁽²⁾.

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ طلَبِ الولايةِ- كالقَضاءِ ونحوِه- لِمَن وَثِقَ مِن نفْسِه بالقِيامِ بحُقوقِه⁽³⁾، فهذا الطلبُ لم يكنْ حِرصًا مِن يوسُفَ عليه السلام على الولايةِ، وإنَّما هو رغبةٌ منه في النَّفعِ العامِّ، وقد عرَفَ مِن نفْسِه مِن الكَفاءةِ والأمانةِ والحفْظِ ما لم يكونوا يعرِفونَه⁽⁴⁾.

٥- قال تعالى حِكايةً عن يوسُفَ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ اقتِراحُ يوسُفَ عليه السَّلامُ ذلك، إعدادٌ لنفْسِه للقيامِ بمصالحِ الأُمَّةِ، على سُنَّةِ أهلِ الفضْلِ والكَمالِ مِن ارتِياحِ نُفوسِهم للعمَلِ في المصالحِ؛ ولذلك لم يسأَلْ مالًا لنفْسِه ولا عرَضًا مِن مَتاعِ الدُّنيا، ولكنَّه سأَلَ أنْ يُوَلِّيَه خَزائنَ المملَكةِ؛ ليحفَظَ الأموالَ، ويعدِلَ في توزيعِها، ويرفُقَ بالأُمَّةِ في جمْعِها وإبلاغِها لمَحَالِّها⁽5⁾.

٦- سُؤالُ الولايةِ ذمَّه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ⁽6⁾، وأمَّا سُؤالُ يوسُفَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨).

(٦) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة. =

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾؛ فلأنَّه كان طريقًا إلى أنْ يدعُوَهم إلى اللَّهِ، ويعدِلَ بين النَّاسِ، ويرفَعَ عنهم الظُّلمَ، ويفعَلَ مِن الخيرِ ما لم يكونوا يفعلونَه، مع أنَّهم لم يكونوا يعرِفونَ حالَه، وقد عَلِمَ بتأويلِ الرُّؤيا ما يَؤولُ إليه حالُ النَّاسِ، ففي هذه الأحوالِ ونحوِها ما يُوجِبُ الفَرقَ بين مِثلِ هذه الحالِ وبين ما نُهِيَ عنه⁽¹⁾.

٧- قال اللَّهُ تعالى مُخبِرًا عن يوسُفَ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ لم يقُلْ: إنِّي حسيبٌ كريمٌ، وإنْ كان كما قال النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ: ((الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ))⁽²⁾، ولا قال: إنِّي جميلٌ مليحٌ، إنَّما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألَها بالحفْظِ والعلْمِ، لا بالنَّسَبِ والجَمالِ⁽³⁾.

٨- إذا كانت اللَّذَّةُ مَطْلوبَةً لنَفْسِها فهي إنَّما تُذَمُّ إذا أعقَبَت ألَمًا أعظمَ منها، أو منَعَت لَذَّةً خيرًا منها، وتُحْمَدُ إذا أعانَت على اللَّذَّةِ المُستقِرَّةِ؛ وهو نَعيمُ الآخرةِ الَّتي هي دائمةٌ عظيمةٌ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁽⁴⁾.

٩- في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دليل على ذِكْرِ العُمومِ وإرادةِ الخُصوصِ؛ إذْ لا مَحالَةَ تمكينُ يوسُفَ لم يكُنْ في جَميعِ الأرْضِ،

= وما أخرجه البخاري (٢٢٦١) ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري.

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٥١).

بلْ كان بأرْضِ مصرَ، دُون سائرِ الأرْضِ⁽¹⁾.

١٠- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ يدلُّ على أنَّ الأمورَ مُعلَّقةٌ بالمشيئةِ الإلهيَّةِ، والقُدرةِ المَحْضةِ⁽²⁾.

١١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ حالَ يوسُفَ عليه السَّلامُ في الآخرةِ خيرٌ مِن حالتِه العظيمةِ في الدُّنيا⁽³⁾.

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ على أنَّ الإصابةَ تُطلقُ على الخيرِ أيضًا؛ إذ يصحُّ أنْ يُقالَ: أصابَه بخيرٍ، وأصابَه بِشرٍّ⁽⁴⁾.

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ في الكلامِ حذفٌ؛ للإيذانِ بسُرْعةِ الإتيانِ به، والتَّقديرُ: فأتَوا به، فلَمَّا كلَّمَه... فكأنَّه لم يكنْ بين الأمرِ بإحضارِه والخِطابِ معه زَمانٌ أصلًا⁽⁵⁾.

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ للمُبالغَةِ، أي: أَجْعَلْه خالِصًا لِنَفْسي، خاصًّا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٨).

أو تكونُ الألفُ واللامُ في كلمةِ ﴿الْأَرْضِ﴾ للعهدِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).

بي، لا يُشارِكُني فيه أحدٌ، وهذا كِنايةٌ عن شِدَّةِ اتِّصالِه به، والعَمَلِ معه(١).

- قولُه: ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ اليومُ ليس بمِعْيارٍ لمُدَّةِ المَكانةِ والأمانةِ، بلْ هو آنُ التَّكلُّمِ، والمرادُ تحديدُ مَبْدَئِهما؛ احتِرازًا عنِ احتمالِ كونِهما بعد حينٍ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فيه عَدَمُ ذِكرِ إجابةِ الملِكِ إلى ما سأَلَه يوسُفُ عليه السَّلامُ مِن جَعْلِه على خَزائنِ الأرضِ؛ إيذانًا بأنَّ ذلك أمرٌ لا مَردَّ له، غَنيٌّ عنِ التَّصريحِ به، لا سِيَّما بَعْدَ تَقْديمِ ما يَندرِجُ تحتَه مِن أحْكامِ السَّلطنةِ بحَذافيرِها، مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ في التَّعبيرِ عنِ الجَعْلِ المَذْكورِ بالتَّمْكينِ في الأرضِ، مع الإسْنادِ إلى ضَميرِ اللَّهِ عزَّ سلطانُه: تَشْريفٌ له عليه السَّلامُ، ومُبالغةٌ في كَمالِ وِلايتِه، وإشارةٌ إلى حُصولِ ذلك مِن أوَّلِ الأمرِ، لا أنَّه حصَلَ بعدَ السُّؤالِ(٤).

- قولُه: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ كِنايةٌ عنْ تصرُّفِه في جميعِ مَمْلكةِ مصرَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فهو عند حُلولِه بمكانٍ منَ المَمْلكةِ لو شاءَ أنْ يَحُلَّ بغيرِه لَفَعل(١).

– وجُملةُ ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ إلى آخرِها تذْييلٌ لِمُناسبةِ عُمومِه لخُصوصِ ما أصابَ يوسُفَ عليه السَّلامُ منَ الرَّحمةِ في أحوالِه في الدُّنيا، وما كان له مِن مواقِفِ الإحسانِ الَّتي كان ما أُعطِيَه منَ النِّعَمِ وشَرَفِ المَنْزلةِ جزاءً لها في الدُّنيا؛ لأنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحسنين(٢).

– قولُه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ مَدارَ المَشيئةِ المَذكورةِ إحسانُ مَن تُصيبُه الرَّحمةُ المَرْقومةُ، وأنَّها أجْرٌ له؛ ولِدَفْعِ تَوَهُّمِ انحصارِ ثَمَراتِ الإحسانِ فيما ذُكِرَ منَ الأجرِ العاجِلِ قيل على سبيلِ التَّوكيدِ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه وضْعُ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا..﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ إذ التقديرُ: (خَيْرٌ لهم)، أي: للمُحسِنينَ المَذكورينَ، وإنَّما قيل: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ المُرادَ بالإحسانِ إنَّما هو الإيمانُ والثَّباتُ على التَّقوى، المُستفادُ من جَمْعِ صِيغتَيِ الماضي ﴿آمَنُوا وَكَانُوا﴾ والمستقبَلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾(٤).

– والتَّعبيرُ في جانِبِ الإيمانِ بصيغةِ الماضي ﴿آمَنُوا﴾ وفي جانِبِ التَّقوى بصيغةِ المُضارِعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ عَقْدُ القلْبِ الجازمُ، فهو حاصلٌ دُفعةً واحدةً، وأمَّا التَّقوى فهي مُتَجدِّدةٌ بتجدُّدِ أسبابِ الأمرِ والنَّهْيِ، واختلافِ الأعمالِ والأزمانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٠).

الآيات (٥٨-٦٢)

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُنكِرُونَ﴾: أي: لا يعرِفونَه، وأصْلُ (نكر): يدلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يسكُنُ إليها القلبُ(١).

﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: الجَهازُ: ما يَحتاجُ إليه المُسافِرُ مِن زادٍ، ومَتاعٍ، وكُلِّ ما يُحمَلُ، وأصلُ (جهز): يدُلُّ على شَيءٍ يُحوَى(٢).

﴿أُوفِي﴾: أي: أُتِمُّ ولا أَبْخَسُ، وأصْلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ(٣).

﴿الْمُنْزِلِينَ﴾: أي: المُضِيفينَ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه(٤).

﴿رِحَالِهِمْ﴾: أي: أمتعتِهم وأوعِيَتِهم، جمعُ رَحْلٍ: وهو كلُّ شيءٍ يعَدُّ للرَّحيلِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٢).

مِن وِعاءٍ للمَتاعِ ومَركبٍ للبَعيرِ، وأصْلُ (رحل): يدلُّ على مُضِيٍّ في سفَرٍ[١].

﴿بِضَاعَتَهُمْ﴾: أي: أثمانَ الطَّعامِ التي دَفَعوها[٢].

﴿انقَلَبُوا﴾: أي: رجَعوا، وانصَرَفوا، وأصْلُ (قلب): صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ بعد أنْ حلَّ بهم الجَدبُ في أرضِهم؛ ليَجلِبوا منها الطَّعامَ، فدَخَلوا على يوسفَ، فعَرَفهم ولم يَعرِفوه؛ لطولِ المدَّةِ، وتغيُّرِ هيئتِه، وقد أمَرَ يوسُفُ بإكرامِهم وحُسنِ ضيافتِهم، ثمَّ أعطاهم مِن الطَّعامِ ما طلَبوا، وكانوا قد أخبَروه أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يُحضِروه معهم- يُريدونَ شَقيقَه- فقال: ائتوني بأخيكم مِن أبيكم، ألم تَرَوا أنِّي أوفيتُ لكم الكَيلَ، وأكرَمتُكم في الضِّيافةِ، وأنا خيرُ المُضيفينَ لِمَن نزَلَ بي؟ فإنْ لم تأتوني به فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تأتوا إليَّ. قالوا: سنبذُلُ جُهدَنا لإقناعِ أبيه أنْ يُرسِلَه معنا، ولن نُقصِّرَ في ذلك. وقال يوسُفُ لغِلمانِه: اجعَلوا ثمَنَ ما أخَذوه في أمتعتِهم سِرًّا؛ رجاءَ أن يَعرِفوه إذا انصرفوا إلى أهلِهم، لكي يرْجِعوا إلينا مرَّةً أُخرى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

أي: وجاء إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ لَمَّا أصابَهم القحطُ؛ ليأتوا بالطَّعامِ لأهليهم، فدخَلوا على يُوسفَ، فعرَفَهم حين رآهم، وهم لا يعرِفونَه(١).

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾.

أي: ولَمَّا أوفى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلٍّ واحدٍ منهم بعيرَه، قال لهم: ائتوني بأخيكم هذا الَّذي ذكَرتُموه لِي مِن أبيكم؛ لِتَزْدادوا حِملَ بعيرٍ آخرَ(٢).

ثم قال يوسُفُ ترغيبًا لإخوتِه في الرُّجوعِ إليه:

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾.

أي: ألَا ترَونَ أنَّ عادتي هي إتمامُ الكيلِ دائمًا، وأنِّي لا أبْخَسُ النَّاسَ شيئًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

عرَفهم يوسفُ عليه السلام لأنَّه فارَقَهم رِجالًا، وهم لم يعرفوه؛ لأنَّهم فارَقوه صَبِيًّا، وهو الآنَ رجلٌ عليه أُبَّهَةُ الملكِ، ورَونقُ الرئاسةِ، وعندَه الخدَمُ والحشمُ، ولعدمِ خطورِه ببالِهم لطولِ العهدِ، مع هيبةِ الملكِ وعزِّ السلطانِ، وقيل: لتوهُّمِهم أنَّه هَلَكَ، وقيلَ: كانوا بَعيدًا منه، فلم يَعْرِفُوهُ، وقيلَ غيرُ ذلك. ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير البقاعي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ﴾ يقتضي وقوعَ حديثٍ منهم عن أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يحضُرْ معهم، وإلَّا لكان إنباءُ يوسفَ عليه السلامُ لهم بهذا يُشعرُهم أنَّه يكلِّمُهم عارفًا بهم، وهو لا يريدُ أن يكشفَ ذلك لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

أي: وأنا خيرُ المُضيفينَ في مصرَ لِمَن نزَلَ بي، وسأُحسِنُ إليكم، وأُكرِمُكم إذا أتيتُم بأخيكم(١).

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾.

أي: فإنْ لم تُحضِروا إليَّ أخاكم حين تأتونَ إليَّ في المرَّةِ التَّاليةِ، فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تقرُبوا أرضَ مصرَ(٢).

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ حين أمَرَهم أن يأتوا إليه بأخيهم: سنسأَلُ أباه يعقوبَ أن يترُكَه يسافِرُ معنا، وسنجتهِدُ في إقناعِه حتَّى نأتِيَ به معنا، وإنَّا لفاعِلونَ ما أمرْتَنا به(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣). قال الخازِنُ: (هذا هو نهايةُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ لأنَّهم كانوا مُحتاجينَ إلى تحصيلِ الطَّعامِ، ولا يُمكنهم تحصيلُه إلَّا مِن عنده؛ فإذا منَعَهم منَ العَودِ كان قد ضَيَّق عليهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٨).

قال أبو السعود: (﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ... فيه دليلٌ على أنَّهم كانوا على نيةِ الامتيارِ مرةً بعدَ أُخرَى، وأنَّ ذلك كان معلومًا له عليه السلامُ). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٩).

وقيل: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا أنزلُكم عندي منزلةَ القريبِ، فلا أُنزلُكم عندي كما أنزلتُكم هذه المرةَ، ولم يُردْ أنَّهم لا يقربون بلادَه، ولا يعودونَ إليه؛ لأنَّه على العودِ حثَّهم. ينظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المُرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي: فاعلون ما أمَرْتَنا به من جلْب أخينا إليك: القرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير =

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لغِلمانِه: اجْعَلوا أثمانَ ما اشتَرَوه من الطَّعامِ في أمتِعَتِهم، من حيث لا يشعُرونَ(١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لكي يعرِفوا بِضاعتَهم(٢) إذا انصَرَفوا إلى أهلِهم، وفتَحوا أمتِعَتَهم فوجَدوها؛

= السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

وقيل: المُرادُ: وإنَّا لفاعلون ما وَعَدْناك منَ المُراودةِ، وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابنُ عاشورٍ: (والبِضاعةُ: المالُ أو المتاعُ المُعَدُّ للتِّجارةِ، والمُرادُ بها هنا الدَّراهمُ الَّتي ابتاعوا بها الطَّعامَ، كما في التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

(٢) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يعرفونها﴾ أي: بضاعتَهم: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والشوكانيُّ، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يعرفونَ حقَّ ردِّها والتكرُّمَ بذلك: السمرقندي، والزمخشري، وابنُ عطيةَ، وأبو حيان، وابنُ جُزَي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩١).

قال الألوسي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي يعرفون حقَّ ردِّها والتكرُّمِ بذلك، فـ «لعلَّ» على ظاهرِها، وفي الكلامِ مضافٌ مقدَّرٌ، ويحتملُ أن يكونَ المعنَى: «لكي يعرفوها»، فلا يحتاجُ إلى تقديرٍ، وهو ظاهرُ التعلُّقِ بقولِه: ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي: رجَعوا ﴿إِلى أَهْلِهِمْ﴾؛ فإنَّ معرفتَهم لها مقيَّدةٌ بالرجوعِ، وتفريغِ الأوعيةِ قطعًا، وأمَّا معرفةُ حقِّ التكرُّمِ في ردِّها، وإن كانت في ذاتِها =

لكي يرجِعوا إلينا مرَّةً أُخرى(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه كان يُباشِرُ الأمورَ بنفسِه، كما هو فِعْلُ الكُفاةِ الحَزَمَةِ، لا يثِقُ فيه بغيرِه(٢).

٢- في قولِ يوسُفَ لإخوتِه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ مشروعيَّةُ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ المُرسَلينَ، وقرَّرتْها هذه الشريعةُ(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ...﴾ لم يعرِّفْهم نفْسَه لأسبابٍ فيها مَنفعةٌ لهم ولأبيهم وله، وتمامٌ لِما أرادَه اللَّهُ تعالى بهم مِن الخيرِ في هذا البَلاءِ، وأيضًا فلو عرَّفَهم نفْسَه في أوَّلِ مرَّةٍ لم يقَعِ الاجتماعُ بهم وبأبيه ذلك الموقِعَ العظيمَ،

= غيرَ مقيَّدةٍ بذلك، لكن لما كان ابتداؤُها حينئذٍ قيِّدت به). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

قال ابنُ القيِّم: (قولُه لفتيانِه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنَّه تسبَّبَ بذلك إلى رُجوعِهم، وقد ذكروا في ذلك معانيَ: منها أنَّه تخوَّفَ ألَّا يكونَ عندهم ورِقٌ يرجعون بها، ومنها أنَّه خشِيَ أن يضرَّ أخْذُ الثَّمنِ بهم، ومنها أنَّه رأى لؤمًا أخْذَ الثَّمنِ منهم [أي: مع حاجتِهم إليه]، ومنها أنَّه أراهم كرَمَه في ردِّ البِضاعةِ؛ ليكون أدْعَى لهم إلى العَودِ، ومنها أنَّه علِمَ أنَّ أمانتَهم تُحوجُهم إلى العَودِ؛ ليردُّوها إليه). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٣٥).

ولم يَحُلَّ ذلك المَحَلَّ، وهذه عادةُ اللَّهِ سبحانه في الغاياتِ العظيمةِ الحميدةِ: إذا أرادَ أنْ يُوصِّلَ عبْدَه إليها هيَّأَ لها أسبابًا مِن المِحَنِ والبَلايا والمَشاقِّ، فيكونُ وُصولُه إلى تلك الغاياتِ بعدها كوُصولِ أهلِ الجنَّةِ إليها بعدَ الموتِ وأهوالِ البرزَخِ، والبعْثِ والنُّشورِ، والموقِفِ والحِسابِ، والصِّراطِ، ومُقاساةِ تلك الأهوالِ والشَّدائدِ، وكما أُدخِلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ تعالى عليه وآله وسلَّمَ إلى مكَّةَ ذلك المَدخَلَ العظيمَ، بعد أنْ أخرَجَه الكفَّارُ ذلك المَخْرَجَ، ونصَره ذلك النَّصرَ العزيزَ، بعد أنْ قاسى مع أعداءِ اللَّهِ ما قاساه⁽¹⁾.

٢- قولُه تعالى إخبارًا عن يوسُفَ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أوضحُ حُجَّةٍ، وأبلَغُها نِهايةً في مدحِ النَّفْسِ وتزكيتِها عندَ الحاجَةِ، ألَا تَرَاهُ يقولُ في سُورةِ (المؤمنين): ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، فقدْ سَمَّى يوسُفُ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم نَفْسَه بخَيرِ المُنْزِلينَ في المعنى الذي أرادَه، ولم يكُنْ مُنْكَرًا عليه، ولا مُستَقْبَحًا منه، وفيه حُجَّةٌ لمَنْ يقولُ إذا أرادَ مَدْحَ إنسانٍ: فُلانٌ خَيرُ مَن فَعَلَ كذا، وفُلانٌ أَحسَنُ النَّاسِ وَجْهًا، وإنْ كان في النَّاسِ مَنْ هو خَيْرٌ مِنه وأَحسَنُ، إذا أَضْمَرَ القائلُ ناسَ عَصْرِه، وعَزَلَ مَنْ تَقَدَّمَهُم مِن الأفضَلِ بنِيَّتِه، فلا يكونُ كاذِبًا ولا آثِمًا بِمَا يدلُّ عليه ظاهِرُ قولِه⁽²⁾.

٣- قولُه: ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لم يَقُلْه يوسفُ عليه السَّلامُ بطريقِ الامْتِنانِ، بل لحثِّهم على تحقيقِ ما أَمَرَهم به. والاقتِصارُ في الكَيْلِ على ذِكْرِ الإيفاءِ؛ لأنَّ مُعاملَتَه عليه السَّلامُ معهم في ذلك كمُعامَلَتِه مع غيرِهم في

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦١٩).

مُراعاةِ مَواجِبِ العدْلِ، وأمَّا الضِّيافَةُ فليس للنَّاسِ فيها حقٌّ، فخَصَّهم في ذلك بما شاء⁽¹⁾.

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ لفظُ (نُراود) يُصَوِّرُ الجُهْدَ الَّذي يعلَمون أنَّهم باذِلُوه⁽²⁾، ففيه تنبيهٌ على عِزَّةِ المَطْلَبِ وصُعوبَةِ مَنالِه⁽³⁾، فقد كان إخوةُ يوسُفَ يعلَمونَ كيف يضِنُّ أبوهم بأخيهم الأصغرِ- وبخاصَّةٍ بعد ذَهابِ يُوسفَ- فقد أظهَروا أنَّ الأمرَ ليس ميسورًا، وإنَّما في طريقِه عَقباتٌ مِن مُمانَعَةِ أبيهم، وأنَّهم سيُحاولونَ إقناعَه، مع توكيدِ عزمِهم- على الرَّغمِ مِن هذه العَقباتِ- على إحضارِه معهم حين يعودونَ⁽⁴⁾.

٥- المالُ قد يُضافُ إلى المالِكِ الَّذي قد ملَكَه في بعضِ الأوقاتِ بعد زَوالِ مُلْكِه عنه، كقولِه تعالى: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ فأضافَ البِضاعةَ إليهم بعد اشْتِرائِهم بها طعامًا⁽⁵⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ وقَعَ الإخبارُ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عَدَمَ مَعْرفتِهم به أمْرٌ ثابتٌ مُتَمَكِّنٌ منهم، وأنَّ إنكارَهم له كان أمرًا مُستمرًّا في حالتَيِ المَحْضَرِ والمغِيبِ، وكان الإخبارُ عن مَعْرفتِه إيَّاهم بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ المُفيدةِ

---

(1) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨).

(2) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠١٦).

(3) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٩).

(4) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠١٥).

(5) يُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (٤/ ٢٨٦).

للتَّجدُّدِ(١)؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَعْرفتَه إيَّاهم حَصَلَت بحِدْثانِ رُؤيتِه إيَّاهم، دون تَوَسُّمٍ وتأمُّلٍ(٢).

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ قَرَنَ مفعولَ ﴿مُنكِرُونَ﴾ الَّذي هو ضَميرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ بلامِ التَّقويةِ في ﴿لَهُ﴾ ولم يَقُلْ: (وهم مُنكِرونَه)؛ لزيادةِ تقْويةِ جهْلِهم بمَعْرفتِه(٣).

- وتقْديمُ المجْرورِ بلامِ التَّقويةِ ﴿لَهُ﴾ على ﴿مُنكِرُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتِمامِ بتعلُّقِ نُكْرتِهم إيَّاه؛ للتَّنْبيهِ على أنَّ ذلك مِن صُنْعِ اللَّهِ تعالى، وإلَّا فإنَّ شَمائلَ يوسُفَ عليه السَّلامُ ليستْ ممَّا شأنُه أنْ يُجْهَلَ ويُنْسى(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا بالواوِ، وقالَه بعدُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّه ذكَرَ هنا أوَّلَ مجيئِهم إلى يُوسفَ، فناسبَتْه الواوُ الدَّالَّةُ على الاستئْنافِ، وذكَرَ بعدُ عند انصرافِهم عنه عطفًا على (لَمَّا دَخَلُوا)، فَناسبَتْه الفاءُ الدَّالَّةُ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ(٥).

---

(١) قال السكاكي: (فالفعلُ موضوعٌ لإفادةِ التجدُّدِ، ودخولُ الزمانِ الذي مِن شأنِه التغيرُ في مفهومِه مؤذنٌ بذلك). ((مفتاح العلوم)) (ص: ٢١٨).

وقال بهاء الدين السبكي: (المرادُ في هذا المكانِ بقولِهم: الفعلُ المتجددُ أنَّه للإخبارِ بتجدُّدِ الشيءِ ووقوعِه بعدَ أن لم يكنْ... بخلافِ قولِنا: الفعلُ المضارعُ للتجدُّدِ، فمعناه: أنَّ الشيءَ يتجدَّدُ وقتًا بعدَ وقتٍ ويتكرَّرُ). ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) (١/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ نكَّرَ الأخَ ولم يقُلْ: (بأخيكم) وإنْ كان قد عَرَفَه وعَرَفَهم؛ مُبالَغةً في كونِه لا يُريدُ أن يَتعرَّفَ لهم، ولا أنَّه يَدْري مَن هو، إظهارًا لعَدَمِ مَعْرفتِه بأخيهم إلَّا مِن ذِكْرِهم إيَّاه عنده، فعَدَلَ عنِ الإضافةِ المقتضِيَةِ المعرِفَةَ إلى التَّنكيرِ؛ تَنابُهًا في التَّظاهُرِ بجهْلِه به، كما في الفَرقِ بين قولِ القائلِ: مرَرْتُ بغُلامِك، ومرَرْتُ بغُلامٍ لك؛ ففي التَّعريفِ يكونُ المُتكلِّمُ عارفًا بالغُلامِ، وفي التَّنكيرِ يكونُ جاهِلًا به؛ فالتَّعريفُ يُفيد فرعَ عَهْدٍ في الغُلامِ بين المُتكلِّمِ وبين المُخاطَبِ، والتَّنكيرُ لا عَهْدَ فيه البتَّةَ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ هذه الجُملةُ كِنايةٌ عنِ الوعْدِ بأنْ يُوفِيَ لهم الكَيلَ، ويُكرِمَ ضِيافتَهم إنْ أتَوا بأخيهم⁽²⁾.

- وفيها تَخصيصُ الرُّؤيةِ بالإيفاءِ؛ لوُقوعِ الخِطابِ في أثنائِه، وأمَّا الإحسانُ في الإنزالِ فقد كان مُستمِرًّا فيما سبَق ولَحَقَ؛ ولذلك أخبَرَ عنه بالجُملةِ الاسميَّةِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الاستقبالِ- مع كونِ هذا الكلامِ بعد التَّجهيزِ- للدَّلالةِ على أنَّ ذلك عادةٌ له مُستمِرَّةٌ⁽⁴⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ ولم يقُلْ: (فإنْ لم تفعَلوا)؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان مَقصودُ يوسُفَ عليه السَّلامُ بالأمرِ ومَرْمَى غَرَضِه بالتَّكليفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٨).

منه استِحْضارَ أخيه، لم يَكْتَفِ في الشَّرطيَّةِ الدَّاعِيَةِ لهم إلى الجِدِّ في الامتثالِ، والسَّعْيِ في تَحْقيقِ المأمورِ به بالإشارةِ الإجْماليَّةِ إلى الفعْلِ الَّذي وَرَد به الأمرُ، بأنْ يقولَ: (فإنْ لم تفعَلوا)، بل أعادَه بعينِه مُتعلِّقًا بمَفعولِه؛ تحقيقًا لِمَطلَبِه، وإعرابًا عن مَقصِدِه(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ فيه التَّأكيدُ- بعد الجُملةِ الفعليَّةِ المُصَدَّرةِ بالسِّينِ- بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدَةِ بحرفَيِ التَّأكيدِ: (إنَّ) واللَّامِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٦٧)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٤).

الآيات (٦٣-٦٦)

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مَتَاعَهُمْ﴾: أي: طعامَهم، أو أوعِيَتَهم، والمتاعُ: كُلُّ ما يُنتفَعُ به على وجهٍ ما، وأصلُ (متع): يدلُّ على منفعةٍ(١).

﴿مَا نَبْغِي﴾: أيْ: أيَّ شيءٍ نطلُبُ وراءَ هذا، أو ماذا نريدُ؟ وأصلُ (بغي): يدل على طلَبِ الشَّيءِ(٢).

﴿نَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: أي: نَجلِبُ إليهم الطَّعامَ؛ مِن قَولِهم: مار أهلَه يَميرُهم: إذا حملَ إليهم أقواتَهم مِن غيرِ بَلدِه(٣).

﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: أي: حِمْلَ جَمَلٍ، يُكَالُ لَنَا، وقيل: حِمْلَ حمارٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٠)، ((المفردات)) =

﴿مَوْثِقًا﴾: أي: عهدًا وميثاقًا، وأصْلُ (وثق): يدلُّ على عقْدٍ وإحكام(١).

﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾: أي: تُمْنَعوا وتُغْلَبوا؛ مِن الإحاطة: وهو لفظٌ عامٌّ لجميعِ وُجوهِ الغَلَبة والقَسرِ، وأصْلُ (حوط): يدلُّ على الشَّيءِ يُطِيفُ بالشَّيءِ(٢).

﴿وَكِيلٌ﴾: أي: شَهيدٌ(٣) علينا، كفيلٌ بالوفاءِ، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: فلَمَّا رجَعوا إلى أبيهم قصُّوا عليه ما كان مِن إكرامِ العزيزِ لهم، وقالوا: إنَّه لن يُعطيَنا مُستقبَلًا إلَّا إذا كان معنا أخونا الَّذي أخبَرناه به، فأرسِلْه معنا نُحضِرِ الطَّعامَ وافيًا، ونتعهَّدُ لك بحِفظِه. قال لهم أبوهم: كيف آمَنُكم عليه وقد أمِنتُكم على أخيه يوسُفَ مِن قَبلُ، والتَزمتُم بحِفظِه فلم تَفُوا بذلك؟! فلا أثِقُ بالتزامِكم وحِفظِكم، ولكِنِّي أثِقُ بحِفظِ الله؛ خيرِ الحافِظينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ، أرجو أن يرحَمَني، فيحفَظَه ويَرُدَّه عليَّ.

ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: يا أبانا ماذا نطلُبُ أكثَرَ مِن هذا؟! هذا ثمَنُ بضاعتِنا رَدَّه العزيزُ إلينا، فكُنْ مُطمَئِنًّا

= للراغب (ص: ٧٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦١).

(٣) والشَّهيد وكيلٌ بمعنى أنَّه موكولٌ إليه القيامُ بما أُشهِدَ عليه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).

على أخينا، وأرسِلْه معنا؛ لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظ أخانا، ونزداد حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ، وذلك كَيلٌ يسيرٌ عليه. قال لهم يعقوبُ: لن أترُكَه يذهَبُ معكم حتَّى تتعَهَّدوا وتحلِفوا لي باللَّهِ أن ترُدُّوه إليَّ، إلَّا أن تُغْلَبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصَه، فلَمَّا أعطَوه عهدَ اللَّهِ على ما طلَبَ، قال يعقوبُ: اللَّهُ على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شَهادتُه علينا، وحِفظُه لنا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا رجعوا مِن مصرَ مُمْتارينَ، بادروا بما كان أهمَّ الأشياءِ عندهم مِن التَّوطئةِ لإرسالِ أخيهم معهم، وذلك قبل فتْحِ مَتاعِهم وعلْمِهم بإحسانِ العزيزِ إليهم مِن ردِّ بِضاعتِهم(١).

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾.

أي: فلَمَّا رجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم يعقوبَ قالوا له: يا أبانا مُنِعَ منَّا الكيلُ في المستقبَلِ إنْ لم تُرسِلْ معنا أخانا الصَّغيرَ إلى مصرَ(٢).

﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ ﴾.

أي: فأرْسِلْ معنا أخانا؛ حتَّى يُمْكِنَنا العودةُ إلى مصرَ وأخْذُ الطَّعامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

أي: وإنَّا لأخينا لحافِظونَ مِن أنْ يَنالَه في سَفَرِه سوءٌ، فلا تخَفْ عليه [1].

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأبنائِه: ماذا أفادَ ائتِمانُكم على أخيه يوسُفَ مِن قبلُ، حتَّى آمَنَكم على أخيكم هذا الَّذي تسألونَني أنْ أُرسِلَه معكم؟ لقد فرَّطْتُم في يوسُفَ وحُلْتُم بيني وبينه، فكيف آمَنُكم على أخيه؟! فلا أثِقُ بالتِزامِكم وحفْظِكم[2].

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾.

أي: فاللَّهُ خيرٌ حافظًا لأخيكم منكم ومِن كلِّ أحدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥).

الأكثرونَ على أنَّ قولَه: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ يدلُّ على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك الوقتِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٠).

وقال الألوسي: (هذا- كما ترَى- ميلٌ منه عليه السَّلامُ إلى الإذْنِ والإرسالِ؛ لِما رأى فيه من المصلحةِ، وفيه أيضًا من التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى ما لا يخفى). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وهم قدِ اقتنعوا بجوابِه، وعَلِموا منه أنَّه مُرسِلٌ معهم أخاهم؛ ولذلك لم يراجعوه في شأنِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

وقال آخرون: لا يدلُّ قولُه: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ على أنَّه أَذِنَ في ذَهابِ ابنِه بنيامين في ذلك =

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أي: واللَّهُ أرحمُ الرَّاحمينَ بخَلْقِه، وسيرحَمُ ضعْفي وكِبَري، ووَجْدي بفقْدِ وَلَدي، وأرجو منه أنْ يحفَظَه ويرُدَّه عليَّ⁽¹⁾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: ولَمَّا فتَحَ إخوةُ يوسُفَ مَتاعَهم الَّذي حمَلوه مِن مصرَ، وجَدوا ثمَنَ الطَّعامِ الَّذي دفَعوه إلى يوسُفَ قد رجَعَ إليهم في رِحالِهم⁽²⁾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم يعقوبَ حينذاك؛ ترغيبًا في إرسالِ أخيهم معهم، وتطييبًا لنفْسِه: يا أبانا ماذا نُريدُ بعدَ هذا الإكرامِ؟! هذا ثمَنُ الطَّعامِ رُدَّ إلينا بعدَ أنْ أُوفِيَ لنا كيلُنا⁽³⁾!

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

= الوقتِ، والآيةُ على هذا القولِ فيها وجهانِ: الأوَّلُ: التَّقديرُ أنَّه لو أَذِنَ في خُروجِه معهم لكان في حفْظِ اللهِ، لا في حفْظِهم. الثَّاني: أنَّه لَمَّا ذكَرَ يُوسفَ قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي: ليوسفَ؛ لأنَّه كان يعلَمُ أنَّه حيٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

أي: ونشتَري لأهلِنا طعامًا مِن مصرَ إذا أرسَلْتَ معنا أخانا، ونحفَظُه ممَّا تخافُ عليه(١).

﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

أي: ونزدادُ حِمْلَ بعيرٍ لأخينا(٢)، ذلك(٣) حِمْلٌ يسيرٌ(٤).

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾.

أي: قال يعقوبُ: لن أُرْسِلَ معكم أخاكم إلى مصرَ حتَّى تُعْطوني يمينًا وعهدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧).

(٢) والمعنى: أنَّه يُكالُ لهم حملُ جملٍ مِن أجلِ أخيهم؛ لأنَّه كان يُعطي باسمِ كلِّ رجلٍ حملَ بعيرٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) المشارُ إليه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو قَولُه: ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾.

والمعنى على ذلك: أنَّه كيلٌ يَسيرٌ على هذا الرجُلِ الذي نأتيه؛ لسَخائه، وحِرصِه على البذلِ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٠).

أو المعنى: كيلٌ يَسيرٌ: أي: سريعٌ لا حَبْسَ فيه، وقال به مقاتل، والمراد: أنَّه إذا جاء معنا عجَّلَ الملِكُ لنا الكيلَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).

وقيل: المشارُ إليه هو ما جاؤوا به، والمعنى: ذلك الذي جِئْناك به كيلٌ يسيرٌ لا يكفينا، ومِمَّن اختاره: البغوي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٠). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

مُؤكَّدًا أنْ تردُّوه إليَّ، إلَّا أنْ تُغلَبوا جميعُكم بأمرٍ لا قِبَلَ لكم به، فلا تقْدِروا على تخليصِ أخيكم وردِّه معكم(١).

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أي: فلَمَّا أعطى أولادُ يعقوبَ أباهم عُهودَهم على أنْ يردُّوا إليه أخاهم، قال يعقوبُ: اللَّهُ شهيدٌ علينا بالوفاءِ بما نقولُ جميعًا، أنا وأنتم تَكْفِينا شَهادتُه وحفْظُه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ فيه التَّفويضُ إلى اللَّهِ تعالى، والاعتمادُ عليه في جميعِ الأمورِ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ كلُّ ذلك زيادةٌ في التَّوثيقِ؛ لِمَا حصَلَ له مِن المُصيبةِ بيوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنْ كان الاعتمادُ في حفْظِه إنَّما هو على اللَّهِ، وهذا مِن بابِ (اعْقِلْها وتوكَّلْ)(٤).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- العُقودُ تنعَقِدُ بما يدُلُّ عليها مِن قَولٍ وفِعلٍ، لا فَرقَ بين عُقودِ التبرُّعاتِ، وعُقودِ المُعاوضاتِ؛ لأنَّ يوسُفَ صلَّى الله عليه وسلَّم ملَّكَ إخوتَه بضاعتَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٥).

التي اشتَرَوا بها مِيرتَهم مِن حيثُ لا يشعُرونَ، ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، وذلك مِن دونِ إيجابٍ وقبولٍ قوليٍّ؛ لأنَّ الفِعلَ والرِّضا يدلُّ على ذلك(١).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ لَمَّا كان المُفرِحُ مُطلَقَ الرَّدِّ، بُنِيَ قولُه: ﴿رُدَّتْ﴾ للمفعولِ(٢).

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فيه أنَّ سوءَ الظَّنِّ- مع وُجودِ القرائنِ الدَّالَّةِ عليه- غيرُ ممنوعٍ ولا مُحرَّمٍ(٣).

٤- قيل: قد صدَّقَت هذه القِصَّةُ المَثَلَ السَّائرَ، وهو قولُهم: (البَلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنطِقِ)؛ فإنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ قال: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تُغْلَبوا عليه، فابْتُلِيَ بذلك، وأُحيطَ بهم، وغُلِبوا عليه(٤).

٥- قولُه: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ لَمَّا كان يعقوبُ غيرَ مُختارٍ لإرسالِ ابنِه وألحُّوا عليه في ذلك، علَّقَ إرسالَه بأخذِ المَوْثِقِ عليهم، وهو الحلِفُ باللَّهِ؛ إذْ به تُؤَكَّدُ العُهودُ وتُشَدَّدُ(٥).

٦- قولُه: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ جعَلَ الحلِفَ باللَّهِ مَوْثِقًا منه؛ لأنَّ تأكيدَ العُهودِ به مأذونٌ فيه مِن جِهَتِه تعالى، فهو إذنٌ منه عزَّ وجلَّ(٦).

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

- قولُه: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي: حِيلَ بيننا وبين الكَيْلِ في المُستقبَلِ؛ لأنَّ رُجوعَهم بالطَّعامِ المُعَبَّرِ عنه بالجَهازِ قَرينةٌ أنَّ المنْعَ منَ الكَيلِ يقَعُ في المستقبَلِ، ولأنَّ تركيبَ ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ يُؤْذِنُ بذلك؛ إذ جَعَلوا الكَيلَ ممنوعَ الابتداءِ منهم؛ لأنَّ (مِن) حرفُ ابتداءٍ، فهم يُريدونَ قولَ يوسُفَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾؛ لأنَّهم إذا أُنْذِروا بمَنْعِ الكَيْلِ فقد مُنِعَ الكَيلُ، ويكونُ ﴿مُنِعَ﴾ يُرادُ به في المُستَأْنَفِ، وإلَّا فقد كِيلَ لهم، وجاؤوا أباهم بالمِيرَةِ، لكنْ لَمَّا أُنْذِروا بمَنْعِ الكَيلِ قالوا: ﴿مُنِعَ﴾⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فيه تأكيدُ حِفْظِه بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، وبحرفِ التَّوكيد (إنَّ)⁽²⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الاستفهامُ ﴿هَلْ آمَنُكُمْ﴾ إنكارِيٌّ فيه معنى النَّفيِ؛ فهو يَستَفْهِم عن وجْهِ التَّأكيدِ في قولِهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽³⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٤)، (تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٨).

– قولُه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على السُّؤالِ، كأنَّه قِيلَ: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم:...(١)؛ فجُملةُ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ استِئنافًا بَيانِيًّا؛ لتَرَقُّبِ السَّامعِ أنْ يعلَمَ ماذا صدَرَ منهم حين فَجَأَهُم وِجْدانُ بضاعتِهم في ضِمْنِ متاعِهم؛ لأنَّه مُفاجأةٌ غَريبةٌ، ولهذه النُّكْتةِ لم يُعْطَفْ بالفاءِ(٢).

– قولُه: ﴿مَا نَبْغِي﴾ يحتملُ أنْ يكونَ للاستفهامِ الإنْكاريِّ بتنْزيلِ المُخاطَبِ منزِلةَ مَن يَتَطَلَّبُ منهم تَحصيلَ بُغْيَةٍ، فيُنْكِرونَ أنْ تكونَ لهم بُغْيَةٌ أُخرى، أي: ماذا نطلُبُ بعد هذا(٣)؟!

– قولُه: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، مُوَضِّحةٌ لِما دلَّ عليه الإنكارُ مِن بُلوغِ اللُّطْفِ غايتَه، والجُملُ بَعدَها معطوفةٌ عليه؛ فهو استئنافٌ مُوَضِّحٌ لقولِه: ﴿مَا نَبْغِي﴾. وقولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ مَعطوفٌ على محذوفٍ، أي: رُدَّتْ إلينا، فنستَظْهِرُ بها، ونَمِيرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملِكِ(٤).

– وكرَّروا حِفْظَ الأخِ بقولِهم: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾؛ مُبالَغةً في الحضِّ على إرْسالِه(٥).

– قولُه: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ استئنافٌ وقَعَ تَعْليلًا لِمَا سَبَق، كأنَّه قيل: أيُّ حاجةٍ إلى الازْدِيادِ؟ فقيل ما قيل، أو ذلك الكَيلُ الزَّائدُ شيءٌ قليلٌ لا يُضايقُنا فيه الملِكُ، أو سَهْلٌ عليه لا يَتعاظَمَه أو أيَّ مَطْلبٍ نطلُبُ مِن مُهِمَّاتِنا، والجُملةُ الواقِعةُ بعدَه تَوضيحٌ وبَيانٌ لِمَا يُشْعِرُ به الإنْكارُ مِن كونِهم فائزينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٦).

ببعضِ المَطالِبِ، أو مُتَمكِّنينَ مِن تَحْصيلِه(١).

– وجُملةُ ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ زيادةٌ في إظهارِ حِرْصِهم على سلامَةِ أخيهم؛ لأنَّ في سلامَتِه فائدةً لهم بازديادِ كَيلِ بَعيرٍ؛ لأنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لا يُعْطي المُمْتارَ أكثرَ مِن حِمْلِ بَعيرٍ منَ الطَّعامِ؛ فإذا كان أخوهم معهم أعْطاه حِمْلَ بَعيرٍ في عِدادِ الإخوةِ، وبه تظْهَرُ المُناسَبةُ بين هذه الجُملةِ والَّتي قبْلَها، وهذه الجُمَلُ مُرَتَّبةٌ تَرْتيبًا بَديعًا؛ لأنَّ بعضَها مُتَوَلِّدٌ عن بعضٍ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

– قولُه: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ تذكيرٌ لهم بأنَّ اللَّهَ تعالى رقيبٌ على ما وقَعَ بينهم، وهذا توكيدٌ للحَلِفِ(٣). وإيثارُ صِيغةِ الاستِقبالِ ﴿نَقُولُ﴾؛ لاسْتِحضارِ صُورَتِه المُؤدِّي إلى تَثَبُّتِهم، ومُحافظتِهم على تَذَكُّرِه ومُراقبَتِه(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢).

الآيتان (٦٧-٦٨)

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٦٨)﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: وقال لهم أبوهم لَمَّا أرادوا الذَّهابَ إلى مصرَ: يا أبنائي إذا دخَلتُم أرضَ مصرَ فلا تدخُلوا مِن بابٍ واحدٍ، ولكن ادخُلوها مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ، وإنِّي إذ أُوصيكم بهذا لا أدفَعُ عنكم شيئًا قضاه اللَّهُ عليكم، فما الحُكمُ إلَّا للَّهِ وَحدَه، عليه اعتَمَدتُ ووَثِقتُ، وعليه وَحدَه يعتَمِدُ المؤمِنونَ، ولَمَّا دخَلوا من أبوابٍ مُتفَرِّقةٍ كما أمَرَهم أبوهم، ما كان ذلك لِيَدفعَ قضاءَ اللَّهِ عنهم، ولكِنْ حاجة في نَفسِه قضاها، وهي دخولُهم متفرِّقينَ شفقةً عليهم، وإنَّ يعقوبَ لصاحِبُ عِلمٍ عظيمٍ بأمرِ دينِه علَّمَه اللَّهُ له، ولكنَّ أكثرَ النَّاسَ لا يعلمونَ ما يَعلَمُه يعقوبُ عليه السَّلامُ مِن أمرِ دينِه وعواقِبِ الأمورِ ودقائِقِ الأشياءِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾.

أي: وقال يعقوبُ لأبنائِه لَمَّا أرادوا الخروجَ إلى مصرَ: يا بَنيَّ لا تدخُلوا مصرَ مِن بابٍ واحدٍ، وادخُلوا مِن أبوابٍ مُتعدِّدةٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾.

أي: هذا الاحترازُ سببٌ لا يَرُدُّ قدَرَ اللَّهِ، فما أَقْدِرُ أنْ أدفَعَ عنكم بوَصيتِّي هذه مِن قضاءِ اللَّهِ مِن شيءٍ؛ لأنَّ اللَّهَ إذا قدَّرَ شيئًا فلا بُدَّ مِن وُقوعِه، ولا ينفَعُ الحذَرُ مع القدَرِ⁽¹⁾.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾.

أي: ما الحُكمُ والقضاءُ إلَّا للَّهِ وحدَه؛ يحكُمُ في خلْقِه، ويقضي فيهم بما يشاءُ⁽²⁾.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

= (١٣/ ٢٠).

قال السمعاني: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّه خافَ العينَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٧). وذكَر الرازي أنَّ عليه إطباقَ المتقدِّمينَ مِن المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨١).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ :ابنُ عبَّاس، ومحمَّد بنُ كعبٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠).

قال القُرطبيُّ: (خاف عليهم العَينَ؛ لكونِهم أحَدَ عشَرَ رجُلًا لرجُلٍ واحدٍ، وكانوا أهلَ جَمالٍ وكمالٍ وبَسطةٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٦).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وإنَّما نهاهم أن يدخلوها من بابٍ واحدٍ؛ خشيةَ أن يسترعيَ عددُهم أبصارَ أهلِ المدينةِ وحُرَّاسِها، وأزياؤهم أزياءُ الغُرباءِ عن أهلِ المدينةِ، أن يُوجِسوا منهم خِيفةً من تجسسٍ أو سرقةٍ، فربَّما سجنوهم، أو رصَدوا الأعينَ إليهم، فيكون ذلك ضرًّا لهم، وحائلًا دون سُرعةِ وُصولِهم إلى يُوسفَ عليه السَّلامُ، ودون قضاءِ حاجتِهم. ولمَّا كان شأْنُ إقامةِ الحُرَّاسِ والأرصادِ أن تكون على أبوابِ المدينةِ، اقتصَرَ على تحذيرِهم منَ الدُّخولِ من بابٍ واحدٍ، دون أنْ يُحذِّرَهم منَ المشيِ في سكةٍ واحدةٍ من سِكَكِ المدينةِ، ووَثِقَ بأنَّهم عارِفونَ بسِكَكِ المدينةِ، فلم يخْشَ ضلالَهم فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠، ٢١)، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

أي: على اللَّهِ وحدَه اعتمدتُ ووَثِقتُ، لا على ما وصَّيتُكم به مِن دُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ، وعليه فلْيُفوِّضِ المُفوِّضونَ أمورَهم(١).

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ، كما أمَرَهم أبوهم، ما كان ينفَعُهم دُخولُهم بتلك الصِّفةِ شيئًا ممَّا قضاهُ اللَّهُ عليهم(٢).

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

أي: لكِنْ(٣) أمَرَهم يعقوبُ بدُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ؛ لِحاجةٍ في نفْسِه أنفَذَها حين أمَرَهم بذلك، فلم يدَّخِرْ تلك النَّصيحةَ عنهم؛ لِيطمئنَّ قلبُه بأنَّه لم يترُكْ شيئًا يظُنُّه نافعًا لهم إلَّا أبلَغَه إليهم؛ شفَقَةً منه، وحِرصًا على تنبيهِهم للأخطارِ الَّتي قد تعرِضُ لهم، وتعليمِهم الأخذَ بالأسبابِ مع التَّوكُّلِ على اللَّهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

(٣) الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ مُنقطعٌ بمعنى (لكن)؛ فالحاجةُ الَّتي في نفْسِ يعقوبَ عليه السَّلامُ ليست بعضًا مِن الشَّيءِ المَنْفِيِّ إغناؤه عنهم منَ اللهِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

قال ابنُ حزمٍ: (يعقوبُ عليه السَّلامُ أمَرَهم أن يدخلوا مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ؛ إشفاقًا عليهم؛ إمَّا من إصابةِ العينِ، وإمَّا من تعرُّضِ عدُوٍّ أو مُستريبٍ بإجماعِهم، أو ببعضِ ما يُخَوِّفُه عليهم، وهو =

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾.

أي: وإنَّ يعقوبَ لصاحِبُ عِلْمٍ عظيمٍ؛ لِتعْليمِنا إيَّاه(١).

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ ما يعلَمُه نَبِيُّنا يعقوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أمْرِ الدِّينِ، وعواقِبِ الأُمورِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يُراعِيَ الأسبابَ المُعتبَرَةَ في هذا العالَم، ومأمورٌ أيضًا بأنْ يعتقِدَ ويجزِمَ بأنَّه لا يصِلُ إليه إلَّا ما قدَّرَه اللَّهُ تعالى، وأنَّ الحذَرَ لا يُنْجِي

= عليه السَّلامُ مُعترفٌ أنَّ فعْلَه ذلك، وأمْرَه إيَّاهم بما أمَرَهم به من ذلك لا يُغْني عنهم مِن اللهِ شيئًا يُريدُه عزَّ وجلَّ بهم، ولكن لمَّا كانت طبيعةُ البشَرِ جاريةً في يعقوبَ عليه السَّلامُ، وفي سائرِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ- كما قال تعالى حاكيًا عنِ الرُّسلِ أنَّهم قالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]- حمَلَهم ذلك على بعضِ النَّظرِ المُخفِّفِ لحاجةِ النَّفْسِ ونِزاعِها، وتَوْقِها إلى سَلامةِ مَن يُحِبُّ، وإنْ كان ذلك لا يُغْني شيئًا. ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) (٤/ ٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (هو ثناءٌ على يعقوبَ عليه السَّلامُ بالعلْمِ والتَّدبيرِ، وأنَّ ما أسداه مِن النُّصحِ لهم هو مِن العلْمِ الَّذي آتاه اللهُ، وهو مِن علْمِ النُّبوةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (المعنى أنَّ اللهَ أمَرَ يعقوبَ عليه السَّلامُ بأخْذِ أسبابِ الاحتياطِ والنَّصيحةِ، مع علْمِهِ بأنَّ ذلك لا يُغني عنهم مِن اللهِ مِن شيءٍ قدَّرَه لهم؛ فإنَّ مُرادَ اللهِ تعالى خَفِيٌّ عن النَّاسِ، وقد أمَرَ بسُلوكِ الأسبابِ المُعتادةِ، وعلِمَ يعقوبُ عليه السَّلامُ ذلك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمون تطلُّبَ الأمرينِ، فيُهمِلون أحدَهما؛ فمنهم مَن يُهمِلُ معرفةَ أنَّ الأسبابَ الظَّاهريَّةَ لا تدفَعُ أمرًا قدَّرَه اللهُ وعلِمَ أنَّه واقعٌ، ومنهم مَن يُهمِلُ الأسبابَ، وهو لا يعلَمُ أنَّ اللهَ أراد في بعضِ الأحوالِ عدَمَ تأثيرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥).

مِن القدَرِ؛ فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يحذَرَ من الأشياءِ المُهلِكةِ، والأغذيةِ الضَّارَّةِ، ويسعى في تحصيلِ المنافعِ، ودفعِ المَضارِّ بقدْرِ الإمكانِ. ثمَّ إنَّه مع ذلك ينبغي أنْ يكونَ جازمًا بأنَّه لا يصِلُ إليه إلَّا ما قدَّرَه اللَّهُ، ولا يحصُلُ في الوُجودِ إلَّا ما أرادَه اللَّهُ؛ فقولُه عليه السَّلامُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ إشارةٌ إلى رِعايةِ الأسبابِ المُعتبَرةِ في هذا العالَمِ، وقولُه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ الالتفاتِ إلى الأسبابِ، وإلى التَّوحيدِ المحْضِ، والبَراءةِ عن كلِّ شيءٍ سِوى اللَّهِ تعالى⁽¹⁾.

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المُسلِمَ يجِبُ عليه أنْ يُحذِّرَ أخاه ممَّا يخافُ عليه، ويُرْشِدَه إلى ما فيه طريقُ السَّلامةِ والنَّجاةِ؛ فإنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ، والمُسلِمُ أخو المُسلِمِ⁽²⁾.

٣- قال اللَّهُ تعالى حِكايةً عن قولِ يعقوبَ لأولادِه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يكونُ ما أمرْتُكم به مُغنِيًا غَناءً مُبتدِئًا من عند اللَّهِ، بل هو الأدَبُ والوقوفُ عند ما أمَرَ اللَّهُ، فإنْ صادَفَ ما قدَّرَه فقد حصَلَ فائدتانِ، وإنْ خالَفَ ما قدَّرَه حصَلَت فائدةُ امتثالِ أوامِرِه، واقتِناعِ النَّفْسِ بعدَمِ التَّفريطِ⁽³⁾.

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١).

أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فيه إثباتُ أنَّ العينَ حقٌّ⁽¹⁾، هذا على القولِ بأنَّه أمَرهم بذلك لخوفِه عليهم مِن العينِ.

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ حجَّةٌ في الاحترازاتِ خشيةَ العينِ؛ لأنَّ يعقوبَ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نبيٌّ وقد فكَّرَ في هذا، وربُّه جلَّ وعلا- وإنْ كان قد بيَّنَ أنَّ احترازَهم لم يُغْنِ عنهم شيئًا - فلم يُنْكِرْ وَصاةَ أبيهم بذلك، وقال نبيُّنا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ((العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابِقَ القَدَرِ، سبقَتْه العينُ))⁽²⁾، هذا على القولِ بأنَّه خافَ عليهم مِن العينِ.

٣- قولُه تعالى عن يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الحُكْمُ هنا هو مِن الحُكم الكونيِّ، ويُقابلُه الحُكْمُ الدِّينيُّ، كقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾⁽³⁾ [المائدة: ١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ حُجَّةٌ على مَن ينفي القَدَرَ؛ لأنَّ العينَ- وإنْ كانت حقًّا - فليست تصيبُ إلَّا بقَدَرٍ⁽⁴⁾، هذا على القولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢١).

والحديث أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس.

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢٢).

بأنَّه أمَرهم بذلك لخوفِه عليهم مِن العينِ.

٥- لم يُوصِهم يعقوبُ عليه السلامُ بالتَّفرُّقِ في الكَرَّةِ الأُولى؛ لأنَّهم كانوا مجهولينَ مَغْمورينَ بين النَّاسِ⁽¹⁾، مع شُغْلِ النَّاسِ بما هم فيه مِن القَحْطِ⁽²⁾، أو لأنَّ محبوبَه فيهم، وهو بنيامينُ الَّذي كان يتسَلَّى به عن شقيقِه يوسفَ، ولم يَكُنْ فيهم في الكَرَّةِ الأُولَى، فأهملَ أمرَهم، ولم يَحتفِلْ بهم لسوءِ صَنيعِهم فِي يُوسفَ⁽³⁾.

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وإعادةُ فِعْلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ زَمَنِ القَولينِ، وإنْ كانا معًا مُسَبَّبَينِ على إيتاءِ مَوْثِقِهم⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ بيانٌ للمُرادِ بالنَّهيِ في قولِه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾؛ لأنَّ عدَمَ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ ليس مُستلزِمًا للدُّخولِ مِن أبْوابٍ مُتفرِّقةٍ، فلو دخَلُوا مِنْ بابينِ مثلًا كانوا قد امتثلوا النهيَ عَنِ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ، وفي دُخولِهم مِن بابَيْنِ أو ثلاثةٍ بَعضُ ما في الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ؛ مِن نوعِ اجتماعٍ مُصَحِّحٍ لوُقوعِ المحْذورِ؛ فأوضَحه وبيَّنَه بقولِه: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، ولم يَكتَفِ بهذا الأمْرِ، مع كَونِه مُستلزِمًا للنَّهيِ السابقِ؛ إظهارًا لكَمالِ العِنَايةِ، وإيذانًا بأنَّه المُرادُ بالأمْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠).

المذْكورِ، لا تَحقيقُ شَيْءٍ آخرَ⁽¹⁾.

– قولُه: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ (المُتفرِّقةُ) أرادَ بها المُتَعدِّدةَ؛ لأنَّه جعَلَها في مُقابَلةِ الواحدِ، ووجْهُ العُدولِ عنِ المُتَعدِّدةِ إلى المُتَفرِّقةِ: الإيماءُ إلى عِلَّةِ الأمْرِ؛ وهي إخفاءُ كونِهم جماعةً واحدةً⁽²⁾.

– وفي قولِه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ زِيدَتْ (مِن)؛ لتَوكيدِ عُمومِ (شيءٍ) في سِياقِ النَّفْيِ⁽³⁾.

– وجُملةُ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في مَوْضِعِ البَيانِ لجُملةِ ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ليُبيِّنَ لهم أنَّ وصيَّتَه بأخْذِ الأسبابِ مع التَّنْبيهِ على الاعتمادِ على اللَّهِ هو مَعْنى التَّوكُّلِ الَّذي يَضِلُّ في فَهمِه كثيرٌ منَ النَّاسِ اقتِصارًا وإنكارًا؛ ولذلك أتَى بجُملةِ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمرًا لهم ولغيرِهم، على مَعْنى أنَّه واجِبُ الحاضِرينَ والغائِبينَ، وأنَّ مَقامَه لا يختصُّ بالصِّدِّيقينَ، بل هو واجِبُ كلِّ مؤمنٍ⁽⁴⁾.

– قوله: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: عليه دُون غَيرِه؛ فأفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ قَصْرَ التوكُّلِ على اللهِ تعالى⁽⁵⁾.

– وجمَع بين الحَرفينِ (الواو والفاء) في عَطفِ الجُملةِ على الجُملةِ؛ كأنَّ الواوَ للعَطفِ، والفاءَ لإفادة التسبُّبِ؛ فإنَّ فِعلَ الأنبياءِ سببٌ لأنْ يُقتدَى بهم⁽⁶⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦) و(٤/ ٢٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: منَ الأبوابِ المُتفرِّقةِ منَ البلدِ، وإنَّما اكْتَفى بذِكْرِه؛ لاستلزامِه الانتهاءَ عمَّا نُهُوا عنه(١). وقد أَغْنَت جُملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ عن جُمَلٍ كثيرةٍ؛ وهي: أنَّهم ارْتَحَلوا ودخلوا من حيث أمَرَهم أبوهم، ولَمَّا دخلوا مِن حيث أمَرَهم سَلِموا ممَّا كان يخافُه عليهم، وما كان دُخولُهم مِن حيث أمَرَهم يُغْني عنهم مِنَ اللَّهِ مِن شيءٍ لو قدَّرَ اللَّهُ أنْ يُحاطَ بهم؛ فالكلامُ إيجازٌ(٢).

- قولُه: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي﴾ فيه الجمْعُ بين صِيغَتَي الماضي والمستقبَلِ؛ لتحقيقِ المُقارَنةِ الواجبةِ بين جَوابِ (لَمَّا) ومَدْخولِه ﴿دَخَلُوا﴾؛ فإنَّ عدَمَ الإغناءِ بالفعْلِ إنَّما يتحقَّقُ عند نُزولِ المحذورِ لا وقتَ الدُّخولِ، وإنَّما المُتحقِّقُ حينئذٍ ما أفادَه الجمْعُ المذكورُ مِن عدَمِ كونِ الدُّخولِ المذكورِ مُغْنِيًا فيما سيأتي(٣).

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ في تأكيدِ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ، وتنْكيرِ (العِلْم)، وتَعليلِه بالتَّعليمِ المُسْنَدِ إلى ذاتِه سبحانه: دَلالةٌ على جَلالةِ شأْنِ يعقوبَ عليه السَّلامُ وعُلوِّ مَرتبةِ عِلمِه وفَخَامتِه(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٩-٧٧)

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿آوَى﴾: أي: ضَمَّ، والمأوى: المَكانُ الَّذي يُرْجَعُ إليه ليلًا أو نهارًا، وأصْلُ (أوي): يدلُّ على تجمُّعٍ(١).

﴿تَبْتَئِسْ﴾: أي: تحزَنْ وتَغتمَّ؛ مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ(٢).

﴿السِّقَايَةَ﴾: أي: الصُّواعَ الذي كان يشربُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

وأصْلُ (سقي): يدلُّ على إشرابِ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه(١).

﴿الْعِيرُ﴾: أي: الإبِلُ التي عليها الأحمالُ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَعيرُ، أي: تذهبُ وتجيءُ، وأصْلُ (عير): يدلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ(٢).

﴿صُوَاعَ﴾: الصُّواعُ: السِّقايَةُ، وكان يُسقَى بها المَلِكُ، ثم جُعِلَت صاعًا يُكالُ به(٣).

﴿زَعِيمٌ﴾: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ(٤).

﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾: أي: برِحالِهم، وأصْلُ (وعي): يدلُّ على ضمِّ شيءٍ(٥).

﴿دِينِ الْمَلِكِ﴾: أي: حُكمِه وقَضائِه، أو: سلطانِه(٦)، وأصلُ (دين): يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ(٧).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤، ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري))، (١/ ١٢١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٥).

(٦) قال ابنُ جريرٍ: (وهذه الأقوالُ ... مُتقارِبَةُ المعاني، لأنَّ مَن أخَذه في سلطانِ الملكِ عامَلَه بعَمَلِه، فبرِضاه أخَذَه إذًا لا بغيرِه، وذلك منه حكمٌ عليه، وحكمُه عليه قضاؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٦).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

﴿تَصِفُونَ﴾: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيتِه ونعْتِه، وأصْلُ (وصف): تحْليةُ الشَّيءِ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

﴿جَزَاؤُهُ﴾ مُبتدأٌ، و﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ، خبرٌ على نيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: جزاؤُه استِرقاقُ مَن وُجِدَ في رَحْلِه، و﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ مُبتدأٌ وخبَرٌ، مُستأنَفٌ مُؤكِّدٌ لمعنى الأوَّلِ ومُقَرِّرٌ لحُكمِه، أي: فاسترِقاقُه جزاؤُه؛ كقولِك: حقُّ الضَّيفِ أن يُكرَمَ، فهو حَقُّه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مُبتدأً، والجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ خبرًا له، على إقامةِ الظَّاهرِ ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مَقامَ المُضمَرِ (هو)، والأصلُ: جزاؤُه مَن وُجِدَ في رحْلِه فهو هو، أي: فهو الجزاءُ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولَمَّا دخلَ إخوةُ يوسُفَ عليه في مَنزلِ ضِيافتِه ومعهم شَقيقُه، ضمَّ يوسُفُ إليه شقيقَه، وقال له سِرًّا: إنِّي أنا أخوك فلا تحزَنْ، ولا تغتمَّ بما صنَعوه بي وبك فيما مضى، وأمَرَه بكتمانِ ذلك عنهم، فلَمَّا جهَّزهم يوسُفُ، وحمَّلَ إبلَهم بالطَّعامِ، جعَلَ الإناءَ- الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ ويكيلُ للنَّاسِ به- في متاعِ أخيه الشَّقيقِ مِن حيثُ لا يشعُرُ أحَدٌ، ولَمَّا رَكِبوا ليَسيروا نادى مُنادٍ قائلًا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٢٩، ٥٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧).

يا أصحابَ هذه العِيرِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقونَ، فقال أولادُ يعقوبَ مُقبِلينَ على المُنادي: ما الَّذي تَفقِدونَه؟ قال المُنادي ومَن بحَضرتِه: نَفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه المَلِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ، ومُكافأةُ مَن يُحضِرُه مِقدارُ حِملِ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، وقال المنادي: وأنا بحِملِ البَعيرِ مِن الطَّعامِ ضامِنٌ وكَفيلٌ.

قال إخوةُ يوسُفَ: لقد تحقَّقتُم ممَّا شاهَدتُموه منَّا أنَّنا ما جِئنا أرضَ مصرَ مِن أجلِ الإفسادِ فيها، وليست السرقةُ مِن صِفاتِنا ، قال المُنادي ومَن معه لإخوةِ يوسُفَ: فما عُقوبةُ السَّارقِ عِندَكم إن كُنتُم كاذبينَ في قَولِكم؟ قال إخوةُ يوسُفَ: جزاءُ السَّارقِ أن يُسلَّمَ إلى مَن سرَقَ منه؛ حتَّى يكون عبدًا عنده، مثلَ هذا الجزاءِ- وهو الاستِرقاقُ- نَجزي الظَّالِمينَ بالسَّرِقةِ، وهذا دينُنا وسُنَّتُنا في أهلِ السَّرِقةِ، ورَجَعوا بإخوةِ يوسُفَ إليه، فقام يوسُفُ بنَفسِه يُفَتِّشُ أمتِعتَهم، فبدَأَ بأمتِعَتِهم قبل مَتاعِ شَقيقِه؛ إحكامًا لِما دبَّرَه لاستبقاءِ أخيه معه، ثمَّ انتهى بوعاءِ أخيه، فاستخرجَ الإناءَ منه، كذلك يسَّرْنا لِيوسُفَ هذا التَّدبيرَ الَّذي توصَّلَ به لأخذِ أخيه، وما كان له أن يأخُذَ أخاه في حُكمِ مَلِكِ مصرَ- لأنَّه ليس مِن دينِه أن يتمَلَّكَ السَّارِقَ- إلَّا بمَشيئةِ اللَّهِ، فقد كادَ لِيوسُفَ، حتَّى تمكَّنَ مِن أخذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم.

نرفَعُ مَن نشاءُ مَنازِلَ في الدُّنيا على غيرِه، كما رفَعْنا منزلةَ يوسُفَ، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهيَ العِلمُ إلى اللَّهِ تعالى عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ.

ولَمَّا استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحلِ أخيهم قال إخوةُ يوسُفَ: إنْ سرَقَ هذا فقد سرَقَ أخٌ شقيقٌ له مِن قَبلُ- يقصِدونَ يوسُفَ عليه السَّلامُ- فأخفَى يوسُفُ في نفسِه كلمةً حدَّثَ نفسَه بها قائلًا: أنتم أسوأُ مَنزلةً ممَّن ذكَرْتُم؛ حيثُ دبَّرتُم لي ما كان منكم، واللَّهُ أعلَمُ بما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ والافتراءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ﴾.

أي: ولَمَّا دخَلَ أولادُ يعقوبَ على يوسُفَ، ضمَّ يوسُفُ إليه أخاه الشَّقيقَ⁽¹⁾.

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: قال يوسُفُ لأخيه مُخبِرًا بحقيقتِه: إنِّي أنا أخوك، فلا تحزَنْ بما كان إخوتُك يفعَلون بي وبك مِن قبلُ⁽²⁾.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ﴾.

أي: فلَمَّا أوفى يوسُفُ إخوتَه الطَّعامَ، وحمَّلَ لكلِّ واحدٍ منهم بعيرَه؛ جعَلَ الإناءَ- الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ ويُكالُ به الطَّعامُ- في مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٤، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (والسِّقايَةُ: الإناءُ الَّذي به يشرَبُ الملِكُ، وبه كان يكيلُ الطَّعامَ للنَّاسِ، هكذا نصَّ جُمهورُ المُفسِّرينَ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢٩).

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

أي: ثمَّ نادى منادٍ: يا أصحابَ القافِلَةِ المُحمَّلةِ بالطَّعامِ، إنَّكم لسارِقون(١).

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾.

أي: قال إخوةُ يوسفَ وقد أقبلوا على المُنادي ومَن معه: ما الَّذي ضاعَ منكم(٢)؟

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾.

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

قال ابنُ جريرٍ: (إنَّ قولَه: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إنَّما هو خبَرٌ مِن اللهِ عن مؤذِّنٍ أذَّن به، لا خبَرٌ عن يُوسفَ، وجائزٌ أنْ يكونَ المُؤذِّنُ أذَّنَ بذلك: أنْ فُقِدَ الصُّواعُ، ولا يعلَمُ بصنيعِ يُوسفَ، وجائزٌ أنْ يكونَ كان أذَّنَ المؤذِّنُ بذلك عن أمْرِ يُوسفَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (العيرُ: اسمٌ للحُمولةِ مِن إبلٍ وحميرٍ وما عليها مِن أحمالٍ وما معها مِن رِكابِها، فهو اسمٌ لمجموعِ هذه الثَّلاثةِ، وأُسنِدت السَّرقةُ إلى جميعِهم؛ جريًا على المُعتادِ مِن مؤاخذةِ الجماعةِ بجُرمِ الواحدِ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

وممَّنِ اختار أنَّ مرجعَ ضميرِ ﴿وَأَقْبَلُوا﴾ عائدٌ على إخوةِ يُوسفَ: ابنُ جريرٍ، والسَّعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٢).

وممَّن قال بأنَّ مرجعَ الضَّميرِ عائدٌ إلى فتيانِ يُوسفَ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨، ٢٩).

وقال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿قَالُوا﴾ هو يعني أصحابُ العيرِ، وهم إخوةُ يُوسفَ، ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: يُريدُ: أقبَلَ هذه الرُّفقةُ على غِلمانِ يُوسفَ. فعلى هذا المعنى قال إخوةُ يُوسفَ، وقد أقبَلوا على المُؤذِّنِ ومَن معه، والمُؤذِّنُ كان معه قومٌ يقولون بقولِه ويُصحِّحون دعواه. قاله أبو بكرٍ. قال: ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قال إخوةُ يُوسفَ وقد أقبَلَ المُنادي ومن معه بالدَّعوى والمُطالبةِ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكْرُ الفريقينِ، وصلَحَ صَرْفُ الإقبالِ إلى كلِّ فريقٍ منهما). ((البسيط)) (١٢/ ١٨٢).

أي: قال المُنادي ومَن معه: نفقِدُ الإناءَ الَّذي يشرَبُ فيه الملِكُ، ويكيلُ به الطَّعامَ(١).

﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ ﴾.

أي: ولمِن جاء بصُواعِ الملِكِ حِمْلُ بعيرٍ مِن الطَّعامِ(٢).

﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾.

أي: قال المُنادي لإخوةِ يوسُفَ: وأنا بأنْ أُوفيَ مَن قامَ بذلك حِمْلَ بعيرٍ مِن الطَّعامِ، ضامِنٌ وكفيلٌ(٣).

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: واللَّهِ لقد علِمْتم أنَّنا ما جئْنا لنعصِيَ اللَّهَ في أرضِكم، ولم نكُنْ سارِقينَ مِن قبْلُ قطُّ، فليستِ السَّرقةُ مِن خِصالِنا(٤).

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ ﴾.

أي: قال المُنادي ومَن معه: فما عُقوبةُ سارِقِ الصُّواعِ إنْ كنتم كاذِبينَ في تَبرئةِ أنفُسِكم، ووجَدْنا الصُّواعَ في رِحالِكم(٥)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال القرطبي: (البعيرُ هنا الجملُ في قولِ أكثرِ المفسِّرين. وقيل: إنَّه الحمارُ، وهي لغةٌ لبعضِ العربِ، قاله مجاهدٌ واختارَه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧٢)، ((تفسير =

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ: عُقوبةُ مَن وُجِدَ الصُّواعُ في مَتاعِه أنْ يكونَ هو نفْسُه رقيقًا لِصاحِبِ الصُّواعِ[١].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: كذلك نُعاقِبُ الظَّالمينَ للنَّاسِ بسَرِقةِ أمْتعتِهم؛ أنْ يكونَ السَّارِقُ مِلْكًا لصاحِبِ المالِ المَسروقِ[٢].

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾.

أي: فبدَأَ يوسُفُ بتفتيشِ أمتِعةِ إخوتِه قبلَ تفتيشِ مَتاعِ أخيه الشَّقيقِ، ثمَّ استخرَجَ الصُّواعَ[٣] مِن مَتاعِ شقيقِه؛ ليصِحَّ له بذلك إمساكُه عنده[٤].

= ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٠).

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

[٢] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال القُرطبيُّ: (وكان هذا مِن دِينِ يعقوبَ عليه السَّلامُ وحُكْمِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٤).

[٣] قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ إنْ شئْتَ رَدَدْتَ الكِنايةَ إلى السِّقايةِ، وإنْ شئْتَ إلى الصُّواعِ، على لُغةِ مَن يُؤنِّثُ. وإنْ شئْتَ على السَّرِقةِ؛ لأنَّ فيما تقدَّمَ دليلًا عليها، قاله الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ وابنُ الأنباريِّ). ((البسيط)) (١٢/ ١٨٨).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١).

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك الكيدِ العجيبِ دبَّرنا ليوسفَ؛ ليتوصلَ إلى مقصودِه بألطفِ حيلةٍ(١)؛ بأن ألهمناه أن يجعلَ السقايةَ في رحلِ أخيه؛ ليتوصَّلَ به إلى حبسِه(٢).

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ما كان يوسُفُ ليقْدِرَ على أنْ يأخُذَ أخاه الشَّقيقَ وَفقًا لشريعةِ ملِكِ مصرَ - فليس في حُكْمِه أنَّ مَن سَرَقَ يُسْتَرَقُّ - إلَّا بمشيئةِ الله(٣)؛ فقد كادَ لِيوسُفَ، حتَّى

---

(١) ينظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٤).

وقال السمعاني: (كَمَا كَادُوا فِي أَمر يُوسُف أَخَذُوهُ من أَبِيه بحيلة وألقوه فِي الْجب: ﴿كدنا ليوسف﴾ فِي أَمرهم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٥).

(٢) ينظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٤).

قال ابن تيمية: (إنَّما كادَ لِيُوسُفَ كيدًا جَزاءً منه على صَبرِه، وإحسانِه وذَكَره في مَعْرِضِ المِنَّةِ عليه فلو لم يَكُنْ ليوسُفَ - عليه السَّلامُ - اختصاصٌ بذلك الكيدِ لم يكُنْ في مجرَّدِ عملِ الإنسانِ أمرٌ مُباحٌ له ولغيرِه مِنَّةٌ عليه في مثلِ هذا المقامِ فَعُلِم أنَّ المنَّةَ كانت عليه في أنْ أُلهِم العملَ بِما كان مُباحًا قبلَ ذلك فإنَّه قد يُلهِمُ العبدَ ما لا يُلهِمُه غيرَه، ولهذا قالَ بعضُ المفسِّرينَ في قوله تعالَى: ﴿كِدْنَا﴾: صنَعْنا، وبعضُهم قَال: ألهمْنا يُوسفَ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٣٣).

(٣) قال السمينُ الحلبي: (قولُه: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه استثناءٌ منقطعٌ تقديرُه: ولكن بمشيئة اللَّه أَخَذه في دينِ غيرِ الملكِ، وهو دينُ آلِ يعقوبَ: أنَّ الاسترقاقَ جزاءُ السارقِ.

الثاني: أنَّه مفرغٌ مِن الأحوالِ العامةِ، والتقديرُ: ما كان ليأخذَه في كلِّ حالٍ إلَّا في حالِ التباسِه بمشيئةِ اللَّه، أي: إذنِه في ذلك). ((الدر المصون)) (٦/ ٥٣٣)، وينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٦).

قال ابن عاشور: (والاستثناءُ مِن عمومِ أسبابِ أخذِ أخيه المنفيةِ، وفي الكلام حرفُ جرٍّ محذوفٌ قبلَ «أن» المصدريةِ، وهو باءُ السببيةِ التي يدلُّ عليها نفيُ الأخذِ، أي أسبابِه. فالتقديرُ: إلا بأن يشاءَ الله، أي يُلهِمَ تصويرَ حالتِه، ويأذنَ ليوسفَ عليه السلامُ في عملِه باعتبارِ ما فيه مِن المصالحِ الجمةِ ليوسفَ وإخوتِه في الحالِ والاستقبالِ لهم ولذريتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٢٢). =

تمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم. فجعَلَ الحُكمَ منهم؛ ليتِمَّ له ما أرادَ(١).

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالتَّنوينِ، بمعنى: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ في العِلْمِ على غيرِه، كما رفَعْنا يوسُفَ، فيكونُ في الآيةِ تقْديمٌ وتأْخيرٌ، كأنَّه قال: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ(٢).

٢- قِراءةُ ﴿دَرَجَاتِ﴾ بالإضافةِ بلا تنوينٍ، بمعنى: نرفَعُ درجاتِ مَن نشاءُ في الدُّنيا بالعِلْمِ، كما رفَعْنا منزِلةَ يوسُفَ، فيكونُ الرَّفعُ للدَّرجاتِ(٣).

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

أي: نرفَعُ مَن نشاءُ درجاتٍ بالعلْمِ النَّافعِ، ومعرفةِ الطرقِ الموصلةِ إلى

= وقال ابنُ القيِّمِ: (قولُه: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكن إنْ شاء اللهُ أخذَه بطريقٍ آخَرَ، ويجوزُ أن يكون مُتَّصلًا، والمعنى: إلَّا أنْ يُهيِّئَ اللهُ سببًا آخَرَ يُؤخَذُ به في دِينِ الملِكِ غيرَ السَّرقةِ). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال ابنُ تيمية: (وقدْ كانَ مِن دينِ ملكِ مصرَ- فيما ذَكَره المفسِّرونَ- أنَّ السَّارقَ يُضرَبُ ويغرمُ قيمةَ المسروقِ مرَّتينِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٣١).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

المقاصِدِ الحَسَنةِ، كما رفَعْنا يوسُفَ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وفوقَ كلِّ عالِمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهِيَ العلْمُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ عالِمِ الغيبِ والشَّهادةِ(٢).

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ بعدما استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحْلِ أخيهم؛ تنصُّلًا مِن التَّشبُّهِ به، وتبرئةً لأنفُسِهم مِن هذه التُّهمةِ التي تُحرِجُهم: إنْ يسرِقْ هذا فليس بغريبٍ منه؛ فقد سرَقَ شقيقُه يوسُفُ مِن قبلُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٤٩، ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠٢٢).

واختُلف في السرقةِ التي رَمَوا بها يوسفَ عليه السلامُ على أقوالٍ ذكَرها المفسِّرون، حاصلُها أنَّه وقعَت بعضُ أمورٍ في صغرِه فُهِم منها أنَّه سرَق، بينما هو في حقيقةِ الأمرِ لم يسرِقْ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٣).

وقيل: بل كَذَبوا عليه فيما نَسَبوه إليه فليس ليُوسفَ عليه السَّلامُ سرقَةٌ مِن قبلُ. قال الشوكاني: (وهذا أولَى، فما هذه الكذبةُ بأوَّلِ كذباتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٤).

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.

أي: فأضمَرَ يوسُفُ في نفسِه كَلِمةً، ولم يُظهِرها لهم⁽¹⁾.

وهذه الكلمةُ التي أسرَّها في نفسِه، بعد أنْ وصَفَه إخوتُه بالسَّرقةِ كَذِبًا عليه؛ هي قولُه:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

أي: قال: أنتم شرٌّ منزِلةً عند اللهِ ممَّن نسبتُموه إلى السَّرقةِ؛ لِصنيعِكم الظَّالِمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

وممَّن اختار أنَّ المراد مِن الكلمةِ التي أسرَّها هي قولُه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والبغَويُّ، والزَّمخشريُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٦).

وقيل المعنى: فأضمَرَ يُوسفُ في نفْسِه اتِّهامَهم له بالسَّرقةِ، وكظَمَ غَيْظَه، ولم يُظهِرْ لإخوانِه كَذِبَهم عليه.

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: الواحديُّ، وأبو حيَّان، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٠).

قال ابنُ الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ في (هاء) الكنايةِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّها ترجِعُ إلى الكلمةِ الَّتي ذُكِرَت بعد هذا، وهي قولُه تعالى: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ روى هذا المعنى العوفيُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ. والثَّاني: أنَّها ترجِعُ إلى الكلمةِ الَّتي قالوها في حقِّه، وهي قولُهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا معنى قولِ أبي صالحٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ، فعلى هذا يكونُ المعنى: أسرَّ جوابَ الكلمةِ فلم يُجِبْهم عليها. والثَّالثُ: أنَّها ترجِعُ إلى الحُجَّةِ، والمعنى: فأسرَّ الاحتجاجَ عليهم في ادِّعائهم عليه السَّرقةَ، ذكَرَه ابن الأنباريُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٠).

بي، وعُقوقِ أبيكم، ثمَّ بعد تلك المُدَّةِ الطَّويلةِ لم يَزُلِ الحِقْدُ عن قُلوبكم، فرميتُموني بالسَّرقةِ(١).

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

أي: واللَّهُ أعلَمُ بما تذكرونَ من الكَذِبِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ تضمَّنتِ الآيةُ البَيانَ عمَّا يوجِبُه التَّلطُّفُ في بُلوغِ المُرادِ مِن إيقاعِ الأسبابِ الَّتي تُؤدِّي إليه، وتبعَثُ عليه بظاهِرٍ جميلٍ وباطِنٍ حقٍّ، ممَّا يخفَى على كثيرٍ مِن النَّاسِ موقِعُه، ويُشْكِلُ عليه وجهُه؛ لأنَّه أنفَذُ له، وأنجَحُ للمطلوبِ منه(٣).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فيه أنَّه ينبَغي لمَن أرادَ أنْ يُوهِمَ غيرَه بأمرٍ لا يُحِبُّ أنْ يطَّلِعَ عليه أنْ يستعمِلَ المعاريضَ القوليَّةَ والفِعليَّةَ المانِعةَ له مِن الكَذِبِ، كما فعَلَ يُوسفُ؛ حيث ألقى الصُّواعَ في رَحْلِ أخيه، ثمَّ استخرَجها منه مُوهِمًا أنَّه سارقٌ، وليس فيه إلَّا القَرينةُ الموهِمَةُ لإخوتِه، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ ولم يقُلْ: (مَن سرَقَ مَتاعَنا)، وكذلك لم يقُلْ: (إنَّا وجَدْنا مَتاعَنا عنده)، بل أتى بكلامٍ عامٍّ يصلُحُ له ولغيرِه، وليس في ذلك محذورٌ، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصُلَ المقصودُ الحاضِرُ، وأنَّه يبقى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٦٩).

عند أخيه، وقد زالَ عنِ الأخِ هذا الإيهامُ بعدما تبيَّنتِ الحالُ(١).

٣- العمَلُ بالشَّريعةِ فيه إصلاحُ الأرضِ والبلادِ، واستقامةُ الأمورِ، والعَملُ بالمعاصي- مِن سَرِقةٍ وغَيرِها- فيه فسادُ ذلك؛ لِقَولِهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، وكم في القُرآنِ مِن التَّصريحِ أنَّ العملَ بالمعاصي ومُخالفةَ الرُّسُلِ، فسادٌ للأرضِ، ومُتابعة الرُّسُلِ هو الصَّلاحُ المُطلَقُ؛ صَلاحُ الدِّينِ والدُّنيا(٢).

٤- قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في قِصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ تنبيهٌ على: أنَّ مَن كادَ غيرَه كيدًا مُحرَّمًا فإنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لا بُدَّ أنْ يَكيدَه، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يَكيدَ للمظلومِ إذا صبرَ على كيدِ كائدِه وتلطَّفَ به؛ فالمُؤمنُ المُتوكِّلُ على اللَّهِ إذا كادَه الخلْقُ فإنَّ اللَّهَ تعالى يَكيدُ له، وينتصِرُ له بغيرِ حولٍ منه ولا قوَّةٍ(٣).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ العلْمَ أشرَفُ المَقاماتِ وأعلى الدَّرجاتِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا هدى يوسُفَ إلى هذه الحيلةِ والفِكرةِ، مدَحَه لأجْلِ ذلك، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾(٤).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- حُذِفَ المفعولُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ليصِحَّ أنْ يُضَمَّنَ سرقتَهم ليوسُفَ، فيتِمَّ التَّعريضُ، ويكونَ الكلامُ صِدقًا، وذُكِرَ المفعولُ في قولِه: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو صادقٌ في ذلك، فصدَقَ في الجُملتينِ معًا تعريضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٨٩).

وتصريحًا(١)، هذا على القولِ بأنَّ يوسفَ عليه السلامُ هو الذي أمَرهم بالنِّداءِ.

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كيف رَضِيَ يوسُفُ أن ينسُبَ إليهم السَّرقةَ ولم يفعَلوها؟

والجوابُ عن ذلك من وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم طلَبوا السقايةَ، فلم يَجِدوها، وغلَب على ظنِّهم أنَّهم هم الذين أخَذوها، فقالوا ذلك بناءً على غلبةِ ظنِّهم، وليس في القرآنِ ما يدلُّ على أنَّهم قالوا ذلك بأمرِ يوسُفَ عليه السَّلامُ.

الثَّاني: أنَّه مِن بابِ المعاريضِ، وأنَّ يُوسفَ نَوَى بذلك أنَّهم سرَقوه مِن أبيه، حيثُ غَيَّبوه عنه بالحيلةِ الَّتي احْتالوها عليه، وخانوه فيه، والخائنُ يُسمَّى سارقًا.

الثَّالثُ: أنَّه أرادَ: أيَّتُها العيرُ حالُكم حالُ السُّرَّاقِ. فالمعنى: إنَّ شيئًا لغيرِكم صار عندكم مِن غيرِ رِضا الملِكِ ولا علْمِه.

الرابعُ: أنَّ هذا كان حِيلةً لاجتماعِ شَمْلِه بأخيه، وفصْلِه عنه إليه، وهو ضررٌ دفَعَه بأقلَّ منه، وقيل غيرُ ذلك(٢).

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ حُجَّةٌ في جوازِ المعاريضِ، بل في

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٢٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٠).

إباحةِ الكذِبِ فيما دعا إلى الصَّلاحِ والخيرِ، ودفعِ الحرَجِ فيه، وزَوالِ المأْثَمِ في تكْريرِه⁽¹⁾.

٤- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الوصولَ إلى الحُقوقِ وصَلاحِ ذاتِ البَيْنِ مُباحٌ بالحِيَلِ⁽²⁾، وأنَّ التَّوصُّلَ إلى الأغراضِ بالحِيَلِ جائزٌ إذا لم تُخالِفْ شريعةً، ولا هدَمَت أصلًا⁽³⁾.

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ لِمشروعيَّةِ الجعالةِ⁽⁴⁾.

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ في الضمانِ والكفالةِ⁽⁵⁾، ففيه جوازُ الكَفالةِ على الرَّجلِ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ الضَّامِنَ هو غيرُ يوسُفَ عليه السَّلامُ⁽⁶⁾.

٧- قولُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ استشْهَدوا بعِلْمِهم على بَراءةِ أنْفُسِهم؛ لِمَا عَرَفوا منهم في كَرَّتَيْ مَجيئِهم، ودُخولِهم أرضَهم، ممَّا يدلُّ على فَرْطِ أمانتِهم، كردِّ البضاعةِ التي جُعِلت في رحالِهم⁽⁷⁾،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٩).

والجعالة- بتثليث الجيم- لغةً: ما يُجعلُ للإنسانِ على شيءٍ يعملُه، وهو أعمُّ مِن الأجرِ والثوابِ. وشرعًا: التزامُ مالٍ معلومٍ في مقابلةِ عملٍ معلومٍ لا على وجهِ الإجارةِ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٠)، ((شمس العلوم)) للحميري (٢/ ١١٠٨)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمناوي (ص: ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١).

وأيضًا حَكَموا بعِلْمِهم ذلك؛ لأنَّ العِلْمَ بأحوالِهم الشَّاهدةِ يستلزِمُ العِلْمَ بأحوالِهم الغائبةِ(١).

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ لَمَّا كانت العِبرةُ بنَفْسِ الوِجْدانِ بَنَوا للمفعولِ قولَهم: ﴿وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾(٢).

٩- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ لِتحقُّقِهم البَراءةَ علَّقوا الحُكمَ على مُجرَّدِ الوِجْدانِ لا السَّرقةِ(٣).

١٠- قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فيه أنَّ القرائنَ يُعْمَلُ بها عند الاشتباهِ؛ لأنَّه استدلَّ بوُجودِ الصُّواعِ في رَحْلِ أخيه على الحُكمِ عليه بالسَّرقةِ مِن غيرِ بيِّنةِ شَهادةٍ ولا إقرارٍ، فعلى هذا إذا وُجِدَ المسروقُ في يَدِ السَّارقِ- خصوصًا إذا كان معروفًا بالسَّرقةِ- فإنَّه يُحكَمُ عليه بالسَّرقةِ، وهذا أبلَغُ مِن الشَّهادةِ(٤).

١١- ﴿فَبَدَأَ﴾ المُفتِّشُ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ وذلك لِتَزولَ الرِّيبةُ الَّتي يُظَنُّ أنَّها فُعِلَت بالقصْدِ، فلَمَّا لم يجِدْ في أوعيتِهم شيئًا ﴿اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾(٥).

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يُستدَلُّ به على جوازِ تسميةِ قوانينِ مِلَلِ الكُفرِ (دينًا) لها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٤).

١٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ مِن لَطيفِ الكيدِ في ذلك: أنَّه لَمَّا أرادَ أخذَ أخيه توصَّلَ إلى أخذِه بما يُقِرُّ إخوتُه أنَّه حقٌّ وعدلٌ، ولو أخَذَه بحُكمِ قُدرتِه وسُلطانِه لنُسِبَ إلى الظُّلمِ والجَورِ، ولم يكُنْ له طريقٌ في دِينِ الملِكِ يأخُذُه بها، فتوصَّلَ إلى أخذِه بطريقٍ يعترِفُ إخوتُه أنَّها ليست ظُلمًا، فوضَعَ الصُّواعَ في رَحْلِ أخيه بمُواطأةٍ منه له على ذلك، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩].

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه لم يُفَتِّشْ رِحالَهم وهم عنده، بل أمْهَلَهم حتَّى جهَّزَهم بجَهازِهم وخرَجوا، ثمَّ أرسَلَ في آثارِهم لذلك، والسِّياقُ يقتضي ذلك؛ إذ لو كان هذا وهم بحضْرَتِه لم يحتَجْ إلى الأذانِ، وإنَّما يكونُ الأذانُ نِداءً لبعيدٍ يُطلَبُ وُقوفُه وحبْسُه. فكان في هذا مِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه أبعدُ مِن التُّهمةِ للطَّالِبِ بالمُواطأةِ والمُوافقةِ، وأنَّه لا يشعُرُ بما فُقِدَ له، فكأنَّه لَمَّا خرَجَ القومُ وارتَحلوا، احتاجَ الملِكُ إلى صُواعِه لبعضِ حاجَتِه إليه، فالتمَسَه فلم يجِدْه، فسألَ عنه الحاضرين فلم يجِدُوه، فأرسَلوا في أثَرِ القومِ، فهذا أحسنُ وأبعدُ مِن التَّفطُّنِ للحِيلَةِ مِن التَّفتيشِ في الحالِ قبل انفصالِهم عنه، بل كلَّما ازدادوا بُعدًا عنه كان أبلَغَ في هذا المعنى.

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّه أذَّنَ فيهم بصوتٍ عالٍ رفيعٍ يسمَعُه جميعُهم، ولم يقُلْ لواحدٍ واحدٍ منهم؛ إعلامًا بأنَّ ذَهابَ الصُّواعِ أمْرٌ قد اشتَهَر، ولم يبْقَ فيه خَفاءٌ، وأنتم قد اشتُهِرْتُم بأخْذِه، ولم يُتَّهَمْ به سِواكم.

ومِن لَطيفِ الكيدِ: قولُ المُؤذِّنِ وأصحابِه لإخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: ما عُقوبةُ مَن ظهَرَ عليه أنَّه سرَقَه منكم ووُجِد معه؟ أي: ما عُقوبتُه عندكم وفي دِينِكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ فأخَذوهم بما حكَموا به على نُفوسِهم، لا بحُكمِ الملِكِ وقومِه

ومِن لَطيفِ الكيدِ: أنَّ الطَّالِبَ لَمَّا همَّ بتفتيشِ رَواحِلِهم بدَأَ بأَوعيتِهم يفتِّشُها قبلَ وِعاءِ مَن هو معه؛ تطمينًا لهم، وبُعدًا عن تُهمةِ المَواطأَةِ؛ فإنَّه لو بدَأَ بوعاءِ مَن هو فيه لقالوا: وما يُدْريه أنَّه في هذا الوِعاءِ دون غيرِه مِن أوعيتِنا؟ فأزالَ هذه التُّهمةَ بأنْ بدَأَ بأوعيتِهم أوَّلًا(١).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العِلْمَ الدَّقيقَ بلطيفِ الحِيَلِ المُوصلةِ إلى المقصودِ الشَّرعيِّ الَّذي يُحِبُّه اللَّهُ تعالى ورسولُه- مِن نَصْرِ دينِه وكَسْرِ أعدائِه، ونَصْرِ المُحِقِّ وقَمْعِ المُبْطِلِ- صفةُ مَدْحٍ يرفَعُ اللَّهُ تعالى بها درجةَ العبدِ، كما أنَّ العِلْمَ الَّذي يُخْصَمُ به المُبْطِلُ وتُدْحَضُ حُجَّتُه، صفةُ مَدْحٍ يرفَعُ بها درجةَ عبدِه(٢). كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقد ذكَرَ اللَّهُ أنَّه يرفَعُ دَرَجاتِ مَنْ يشاءُ في قِصَّةِ مُناظَرَةِ إبراهيمَ وفي قِصَّةِ احتِيالِ يوسُفَ، ولهذا قال السَّلفُ: بالعِلْمِ؛ فإنَّ سِياقَ الآياتِ يدُلُّ عليه، فقِصَّةُ إبراهيمَ في العِلْمِ بالحُجَّةِ والمُناظَرَةِ؛ لدَفْعِ ضَرَرِ الخَصمِ عنِ الدِّينِ، وقِصَّةُ يوسُفَ في العِلْمِ بالسِّياسةِ والتَّدبيرِ؛ لتَحصُلَ مَنفعةُ المَطلوبِ؛ فالأوَّلُ عِلْمٌ بما يدفَعُ المَضارَّ في الدِّينِ، والثَّاني عِلْمٌ بما يَجْلِبُ المَنافِعَ. أو يقال: الأوَّلُ: هو العِلْمُ الَّذي يدفَعُ المَضَرَّةَ عنِ الدِّينِ، ويجلِبُ مَنْفعَتَه، والثَّاني: عِلْمٌ بما يدفَعُ المَضَرَّةَ عنِ الدُّنيا، ويجلِبُ مَنفعَتَها. أو يقال: قِصَّةُ إبراهيمَ في عِلْمِ الأقوالِ النَّافِعَةِ عند الحاجَةِ إليها، وقِصَّةُ يوسُفَ في عِلْمِ الأفعالِ النَّافِعَةِ عند الحاجَةِ إليها؛ فالحاجَةُ في جَلْبِ المَنْفعَةِ ودَفْعِ المَضَرَّةِ قد تكونُ إلى القولِ،

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٠٩، ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٩).

وقد تكونُ إلى الفِعْلِ(١).

١٥- في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أنَّ مِن الكيدِ ما هو مشروعٌ، إلَّا أنَّه لا يجوزُ أنْ يُرادَ به الكيدُ الَّذي تُستحَلُّ به المُحرَّماتُ، أو تُسقَطُ به الواجباتُ؛ فإنَّ هذا كيدٌ للَّهِ، واللَّهُ هو المَكيدُ في مِثْلِ هذا، فمُحالٌ أنْ يَشْرَعَ اللَّهُ أنْ يُكادَ دِينُه. وأيضًا فإنَّ هذا الكيدَ لا يتِمُّ إلَّا بفعْلٍ يُقْصَدُ به غيرُ مقصودِه الشَّرعيِّ، ومُحالٌ أنْ يَشْرَعَ اللَّهُ لعبْدٍ أنْ يقصِدَ بفعْلِه ما لم يَشْرَعِ اللَّهُ ذلك الفعْلَ له(٢).

١٦- في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الكيدَ إنْ كان جزاءً للمُعتدي بمِثْلِ فِعْلِه كان عدلًا حَسَنًا(٣).

١٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ فيه شاهِدٌ لتَفاوُتِ النَّاسِ في العلْمِ المُؤْذِنِ بأنَّ علْمَ الَّذي خلَقَ لهم العلْمَ لا ينحصِرُ مداهُ، وأنَّه فوقَ كلِّ نهايةٍ مِن علْمِ النَّاسِ(٤).

١٨- قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أي: الكلمةَ، فكَنَّى عَنِ الكلمةِ، ولم يَجْرِ لها ذكرٌ متقدِّمٌ، والعربُ تفعلُ ذلكَ كثيرًا، إذا كان مفهومًا المعنَى المرادُ عندَ سامِعي الكلامِ(٥).

١٩- إن قِيل: كيفَ صبَرَ يوسفُ عليه السلامُ عن أبيه بعدَ أنْ صارَ ملِكًا، مع أنَّ البِرَّ به يَقْتَضي أن يبادرَ إليه ويَسْتدْعيه؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك كان عن أمرِ الله تعالى وبوحيٍ منه؛ ليرفعَ درجةَ يعقوبَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٥).

عليه السلامُ بالصبرِ على البلاءِ، ويَكملَ أجرُه، وتتفسَّر الرُّؤيا الأُولَى، وكان يوسفُ عليه السلامُ يُلاقي مِن الحزنِ لأجلِ حزنِ أبيه عظيمًا، ولا يقدرُ على دفعِ سببِه(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ كلَّمَه بكلمةٍ مُختَصَرةٍ بليغَةٍ؛ إذْ أفادَه أنَّه هو أخوه الَّذي ظنَّه أكَلَه الذِّئبُ؛ فأكَّد الخبرَ بـ (إنَّ)، وبالجُملةِ الاسميَّةِ، وبالقَصْرِ الَّذي أفادَه ضميرُ الفَصْلِ ﴿أَنَا﴾ أي: أنا مَقصورٌ على الكَوْنِ أخاك لا أجْنَبِيٌّ عنك؛ فهو قصرُ قَلْبٍ؛ لاعتقادِه أنَّ الَّذي كلَّمَه لا قَرابةَ بينه وبينه(٢).

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أفادَ فِعْلُ الكَوْنِ في المُضِيِّ أنَّ المُرادَ ما عَمِلوه فيما مضى، وأفادَ صَوْغُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بصيغةِ المُضارعِ أنَّه أعمالٌ مُتكرِّرةٌ مِنَ الأذى، وفي هذا تهيئةٌ لنَفْسِ أخيه لِتلقِّي حادثِ الصُّواعِ باطْمِئنانٍ؛ حتَّى لا يَخْشى أنْ يكونَ بمحَلِّ الرِّيبةِ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥٨).

قال ابن تيمية: (ولم يكنْ قصدُ يوسفَ باحتباسِ أخيه الانتقامَ مِن إخوتِه، فإنَّه كان أكرمَ مِن هذا، وكان في ذلك مِن الإيذاءِ لأبيه أعظمُ ممَّا فيه مِن إيذاءِ إخوتِه، وإنما هو أمرٌ أمَرَه الله به؛ ليبلغَ الكتابُ أجلَه، ويتمَّ البلاءُ الذي استحقَّ به يعقوبُ ويوسفُ كمالَ الجزاءِ، وتبلغَ حكمةُ الله التي قَضاها لهم نهايتَها). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٢٧).

- قولُه: ﴿أَذَّنَ﴾؛ للتَّكثيرِ، فكأنَّه نادى مِرارًا(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فيه إسنادُ السَّرِقةِ إلى جميعِهم؛ جَرْيًا على المُعْتادِ مِن مُؤاخَذةِ الجَماعةِ بجُرْمِ الواحِدِ منهم، وتأنيثُ اسمِ الإشارةِ وهو (أيَّتُها)؛ لتأويلِ العِيرِ بمعنى الجَماعةِ؛ لأنَّ الرُّكَّابَ همُ الأهمُّ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن ضميرِ قولِه: ﴿قَالُوا﴾ جيءَ بها للدَّلالةِ على انزعاجِهم ممَّا سَمِعوه؛ لمُبايَنَتِه لحالِهم(٣).

- وصيغةُ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿تَفْقِدُونَ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ(٤).

- قولُهم: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ فيه العُدولُ عمَّا يقتَضيه الظَّاهرُ مِن قولِهم: (ماذا سُرِقَ منكم)؛ لبَيانِ كَمالِ نزاهَتِهم بإظهارِ أنَّه لم يُسْرَقْ منهم شيءٌ، فَضْلًا أنْ يكونوا همُ السَّارقينَ له، وإنَّما المُمْكِنُ أنْ يضيعَ منهم شيءٌ، فيسْألونَهم أنَّه ماذا، وفيه إرشادٌ لهم إلى مُراعاةِ حُسْنِ الأدَبِ، والاحترازِ عنِ المُجازَفَةِ، ونِسْبَةِ البُرآءِ إلى ما لا خيرَ فيه، لا سيَّما بطريقِ التَّوكيدِ؛ فلذلك غيَّروا كلامَهم حيث قالوا في جوابِهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا: (سَرَقْتُموه) أو (سُرِقَ)(٥).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِهِ زَعِيمٌ﴾ فيه إضافةُ الصُّواعِ إلى الملِكِ؛ لتَشْريفِه، وتهويلِ سَرِقَتِه على وجهِ الحقيقةِ؛ لأنَّ شُؤونَ الدَّولةِ كلَّها للملِكِ. ويجوزُ أنْ يكونَ أُطْلِقَ الملِكُ على يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ تَعْظيمًا له(١).

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه مَعْنى التَّعجُّبِ ممَّا أُضيفَ إليهم؛ حيث أقْسَموا بالتَّاءِ مِن حُروفِ القَسَمِ، كأنَّهم عَجِبوا مِن رَمْيِهم بهذا الأمْرِ؛ لأنَّها تكونُ فيها التَّعجُّبُ غالبًا؛ وذلك لأنَّ المُقْسَمَ عليه بالتَّاءِ يكونُ نادِرَ الوُقوعِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُتَعَجَّبَ منه لا يكْثُرُ وُقوعُه، ومِن ثَمَّ قلَّ استعمالُ التَّاءِ إلَّا مع اسمِ الجَلالَةِ؛ لأنَّ القَسَمَ باسمِ الجَلالَةِ أقْوى القَسَمِ(٢).

- وقولُهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أكَّدوا ذلك بالقَسَمِ، ونَفَوا عن أنفُسِهم الاتِّصافَ بالسَّرِقةِ بأبْلغَ ممَّا نَفَوا به الإفسادَ عنهم، وذلك بنَفْيِ الكَوْنِ سارقينَ دون أنْ يقولوا: (وما جِئْنا لِنسرِقَ)؛ لأنَّ السَّرِقةَ وَصْفٌ يُتَعَيَّرُ به(٣).

- قولُه: ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ ونَفْيُ المَجيءِ للإفسادِ -وإنْ لم يكُنْ مُستلزِمًا لِمَا هو مُقْتَضى المَقامِ مِن نَفْيِ الإفسادِ مُطلقًا، لكنَّهم جَعَلوا المجيءَ الَّذي يترتَّبُ عليه ذلك، ولو بطَريقِ الاتِّفاقِ، مجيئًا لغَرَضِ الإفسادِ مفعولًا لأجْلِه ادِّعاءً- إظهارٌ لكَمالِ قُبْحِه عندهم، وتربيةٌ لاستحالةِ صُدورِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣، ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٩).

عنهم، فكأنَّهم قالوا: إنْ صدَرَ عنَّا إفسادٌ كان مَجيئُنا لذلك؛ مُريدينَ به تَقْبيحَ حالِه، وإظهارَ كمالِ نَزاهتِهم عنه(١).

- قولُه: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾، إنَّما لم يكْتَفوا بنَفْيِ الأمْرَينِ المَذْكورينِ، بل استَشْهدوا بعلْمِهم بذلك؛ إلزامًا للحُجَّةِ عليهم، وتحقيقًا للتَّعجُّبِ المفهومِ مِن تاءِ القَسَمِ(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ علَّقوا الحُكْمَ على وِجْدانِ الصَّاعِ لا على سَرِقتِه؛ لاعتِقادِهمُ البَراءةَ، فكأنَّهم يقولون: لا يُمكِنُ أنْ نسرِقَ(٣).

فاختاروا عنوانَ الوِجْدانِ في الرحلِ دونَ السرقةِ، معَ أنَّه المرادُ؛ لأنَّ كونَ الأخذِ والاسترقاقِ سنةٌ عندَهم، ومِن شريعةِ أبيهم عليه السلامُ إنَّما هو بالنسبةِ إلى السارقِ، دونَ مَن وُجد عندَه مالُ غيرِه كيفما كان، إشارةً إلى كمالِ نزاهتِهم، حتى كأنَّ أنفسَهم لا تطاوعُهم وألسنتُهم لا تساعدُهم على التلفُّظِ به مثبتًا لأحدِهم بأيِّ وجهٍ كان، وكأنَّهم تأكيدًا لتلك الإشارةِ عدَلوا عن: (مَن وُجِد عندَه) إلى ﴿ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾(٤).

- قولُه: ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقريرٌ لذلك الحُكْمِ، أي: فأَخْذُ السَّارقِ نفْسِه هو جزاؤه لا غيرُ(٥)؛ فجُملةُ ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ توكيدٌ لَفظيٌّ لجُملةِ ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).

وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾؛ لتقريرِ الحُكْمِ وعَدَمِ الانفلاتِ منه، وتكونُ الفاءُ للتَّفريعِ؛ تفريعِ التَّأكيدِ على المُؤَكَّدِ(١).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدٌ للحُكْمِ المَذْكورِ بعدَ تأكيدٍ، وفيه بيانٌ لقُبْحِ السَّرقةِ(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ذَكَّرَ ضميرَ الصُّواعِ مرَّاتٍ ثُمَّ أنَّثه؛ على رُجوعٍ بالتَّأنيثِ على السِّقايةِ، أو أنَّثَ الصُّواعَ؛ لأنَّه يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، ولعلَّ يوسُفَ كان يُسمِّيه سِقايةً، وعَبيدُه صُواعًا؛ فقد وقَعَ فيما يتَّصِلُ به مِن الكلامِ سِقايةً، وفيما يتَّصِلُ بهم منه صُواعًا(٣)، وهذا التَّأنيثُ في تَمامِ الرَّشاقةِ؛ إذْ كانتِ الحقيقةُ أنَّها سِقايةٌ جُعِلَت صُواعًا؛ فهو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣١).

ورَدُّ العَجُز على الصَّدر - ويُعرَف أيضًا بالتصدير - هو: أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعينِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، أو: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّل الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسام؛ الأوَّل: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلُ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

- قولُه: ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، حيث لم يقُلْ: (منه) على رَجْعِ الضَّميرِ إلى الوِعاءِ، أو (مِن وِعائِه) على رَجْعِه إلى أخيه؛ قَصْدًا إلى زيادةِ كَشْفٍ وبيانٍ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ﴾ في إدْخالِ الكافِ على اسمِ الإشارةِ (ذلك) دلالةٌ على فَخامةِ المُشارِ إليه، وكذا ما في (ذلك) مِن مَعْنى البُعدِ، أي: مثلَ ذلك الكَيدِ العَجيبِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكَيدِ وصُنْعِه، لا تفسيرٌ وبيانٌ له- كما قيل- كأنَّه قيل: لماذا فعَلَ ذلك؟ فقيل: لأنَّه لم يكُنْ ليأخُذَ أخاه بما فعَلَه في دِينِ الملِكِ في أمْرِ السَّارقِ، أي: في سُلطانِه، أو في حُكْمِه وقَضائِه⁽³⁾. وقيل: هي تفسيرٌ للكَيدِ وبيانٌ له؛ لأنَّه كان في دِينِ مِلكِ مصرَ⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ الجُملةُ مُستأْنَفَةٌ، وإيثارُ صِيغةِ الاستقبالِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك سُنَّةٌ مُستمِرَّةٌ، غيرُ مُخْتَصَّةٍ بهذه المادَّةِ⁽⁵⁾.

- وجُملةُ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ تذييلٌ لِقِصَّةِ أخْذِ يوسُفَ عليه السَّلامُ أخاه؛ لأنَّ فيها رَفْعَ درجةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ في الحالِ بالتَّدبيرِ الحَكيمِ، مِن وقتِ مُناجاتِه أخاه إلى وقتِ استخراجِ السِّقايةِ مِن رَحْلِه، ورَفْعَ درجةِ أخيه في الحالِ بإلحاقِه لِيوسُفَ عليه السَّلامُ في العَيْشِ الرَّفيهِ، والكَمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٧).

بتلقِّي الحكمةِ مِن فيه، ورَفْعَ درجاتِ إخوتِه وأبيه في الاستقبالِ؛ بسببِ رَفْعِ درجةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ، وحُنُوِّه عليهم⁽¹⁾.

- قولُه تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: نرفَعُ درجاتٍ عاليةً مِن العِلْمِ مَن نشاءُ رَفْعَه، وفوقَ كلِّ أحدٍ منهم عليمٌ هو أعلى درجةً⁽²⁾.

وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ ثانٍ لجُملةِ ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وعبَّر عن جِنْسِ المُتَفَوِّقِ في العِلْمِ بوَصْفِ ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتبارِ نِسبتِه إلى مَن هو فوقَه، إلى أنْ يبْلُغَ إلى العليمِ المُطْلَقِ سبحانه⁽³⁾.

- وظاهرُ تَنْكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ أنْ يُرادَ به الجِنْسُ، فيَعُمَّ كلَّ مَوصوفٍ بقوَّةِ العِلْمِ، إلى أنْ ينتهِيَ إلى عِلْمِ اللَّهِ تعالى، فعُمومُ هذا الحُكْمِ بالنِّسبةِ إلى المخلوقاتِ لا إشكالَ فيه، ويتعيَّنُ تخصيصُ هذا العُمومِ بالنِّسبةِ إلى اللَّهِ تعالى بدليلِ العَقْلِ؛ إذْ ليس فوقَ اللَّهِ عَليمٌ. وقد يُحمَلُ التَّنكيرُ على الوَحدةِ، ويكونُ المُرادُ: عليمٌ واحدٌ؛ فيكونُ التَّنكيرُ للوَحدةِ والتَّعظيمِ، وهو اللَّهُ تعالى، فلا يحتاجُ إلى التَّخصيصِ⁽⁴⁾.

- وفي صيغةِ المُبالَغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مع التَّنكيرِ، والالتفاتِ إلى الغَيبةِ: دلالةٌ على فَخامةِ شأْنِه عزَّ وعلا، وجَلالةِ مِقدارِ عِلْمِه المُحيطِ⁽⁵⁾. على أحدِ القولين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٢، ٣٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

٨- قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه تَنْكيرُ ﴿أَخٌ﴾؛ لأنَّ الحاضِرينَ لا عِلْمَ لهم به(١).

- جُملةُ ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ قيل: هي توكيدٌ لجُملةِ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾، وشأنُ التَّوكيدِ ألَّا يُعطَفَ، ووجهُ عَطفِها: ما فيها مِن المُغايرةِ للَّتي قبلها بزيادةِ قَيْدِ ﴿لَهُمْ﴾ المُشْعِرِ بأنَّه أَبْدَى لأخيه أنَّهم كاذِبونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: لم يُبْدِ لهم غَضَبًا ولا عِقابًا؛ مُبالغةً في كَظْمِ غَيظِه، فيكونُ في الكلامِ تقديرُ مُضافٍ مُناسِبٍ، أي: لم يُبْدِ أثَرَها(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن الإخبارِ بالإسرارِ المَذكورِ، كأنَّه قيل: فماذا قال في نفْسِه في تَضاعيفِ ذلك الإسرارِ؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾(٣)؛ وضَميرُ الغَيبةِ في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ عائدٌ إلى ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: قال في نفْسِه، وهو يُشْبِهُ ضَميرَ الشَّأنِ والقِصَّةِ، لكنَّ تأنيثَه بتأويلِ المَقولةِ أو الكلمةِ، وتكونُ جُملةُ ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ تفسيرًا للضَّميرِ في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾(٤).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ صيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾ لمُجرَّدِ المُبالَغةِ لا لِتَفضيلِ عِلْمِه عزَّ وجلَّ على عِلْمِهم، كيف لا وليس لهم بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٥).

مِن عِلْمٍ(١)؟!

- وقولُه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تذييلٌ، وهو كلامٌ جامعٌ، أي: اللَّهُ أعْلَمُ بصِدْقِكم فيما وصَفْتم أو بكَذِبِكم، والمرادُ: أنَّه يعلمُ كَذِبَهم(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٩).

والقاعدةُ: أنَّ صيغةَ التفضيلِ قد تُطلقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتصافُ، لا تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

الآيات (٧٨-٨٠)

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (٨٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾: أي: أعوذُ وأستجيرُ باللَّهِ، وأصلُ (عوذ): الْتِجاءٌ إلى الشَّيءِ(١).

﴿اسْتَيْأَسُوا﴾: أي: يَئِسوا؛ من اليأسِ: وهو القُنوطُ، وأصلُ (يئس): يدلُّ على قَطْعِ الرَّجاءِ(٢).

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾: أي: اعتزَلوا النَّاسَ، وانفرَدوا يتَناجَون ويتَشاورون ويَتَسارُّون، وأصْلُ (خلص): يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه، وأصْلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ(٣).

﴿أَبْرَحَ﴾: أي: أخرُجَ وأفارِقَ، وأصْلُ (برح): زوالٌ، وبُروزٌ، وانكشافٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨) (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥، ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾

﴿نَجِيًّا﴾: حالٌ مِن واوِ الجَماعةِ في ﴿خَلَصُوا﴾، وإنَّما أُفرِدَت الحالُ، وصاحِبُها (واو الجماعة) جمعٌ؛ لأنَّ النَّجيَّ (فعيلٌ) بمعنى (مُفاعِل)؛ كالعَشيرِ والخَليطِ، بمعنى: المُخالِط والمُعاشِرِ، وهذا في الاستعمالِ يُفرَدُ مُطلقًا؛ يقال: هم خَليطُك وعَشيرُك، أي: مُخالِطوك ومُعاشِروك. وقيل: لأنَّ ﴿نَجِيًّا﴾ مصدرٌ بمعنى التَّناجي.

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ﴾: في (ما) وَجهانِ؛ أحدهما: أنَّها زائدةٌ، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ بالفِعلِ ﴿فَرَّطْتُمْ﴾، أي: وفرَّطْتُم مِن قَبلُ في يوسُفَ. والثاني: أنَّها مَصدريَّةٌ، ومحلُّ المصدرِ ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾ النَّصبُ عَطفًا على مفعولِ ﴿تَعْلَمُوا﴾، وهو ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ﴾، أي: ألم تعلَموا أَخْذَ أبيكم الميثاقَ، وتَفريطَكم في يوسُفَ، وفُصِلَ بين حرفِ العَطفِ والمَعطوفِ بـ﴿مِنْ قَبْلُ﴾⁽¹⁾. وقيل غيرُ ذلك⁽²⁾.

---

(١) وهو جائزٌ خِلافًا لأبي علي الفارسيِّ. قال ابنُ مالك: (منع أبو عليٍّ الفَصلَ بين العاطِفِ والمعطوفِ بظَرفٍ أو جارٍّ ومجرور... وليس الأمرُ كما زعم، بل الفَصلُ بين العاطِفِ والمعطوفِ بالظَّرفِ والجارِّ والمجرورِ جائزٌ في الاختيار، إنْ لم يكُن المعطوفُ فِعلًا ولا اسمًا مَجرورًا، وهو في القرآنِ كَثيرٌ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، ففصل بـ «إذا» وما أُضيفَت إليه بين الواو، و﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾، وهو مَعطوفٌ على ﴿أَنْ تُؤَدُّوا﴾... وكقَولِه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، ففَصَلَ بـ «مِنَ الأرضِ» بين الواو و ﴿مِثْلَهُنَّ﴾). ((شرح الكافية الشافية)) (٣/ ١٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٣٨).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن إخوةِ يوسفَ أنَّهم قالوا له مُستعطفينَ؛ لِيَفُوا بعَهدِ أبيهم: يا أيُّها العَزيزُ، إنَّ له والدًا كبيرًا في السِّنِّ يحِبُّه، ولا يُطيقُ بُعدَه، فخُذْ أحَدَنا بدلًا منه؛ إنَّا نراكَ مِن المُحسنينَ. قال يوسُفُ: نَستجيرُ باللَّهِ أن نأخُذَ أحدًا غيرَ الَّذي وجَدْنا الصُّواعَ عندَه؛ فإنَّنا نكونُ في عِدادِ الظَّالمينَ إن فعَلْنا ما تطلُبونَ، فلَمَّا يَئِسوا مِن إجابتِه إيَّاهم لِمَا طَلَبوه، انفَرَدوا عن النَّاسِ، وأخَذوا يتشاوَرونَ فيما بينهم؛ قال كبيرُهم: ألم تَعلَموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم العهدَ المُؤكَّدَ؛ لَترُدُّنَّ أخاكم إلَّا أن تُغلَبوا، ومِن قبلِ هذا كان تقصيرُكم في يوسُفَ وتضييعُكم له؛ لذلك لن أُفارِقَ أرضَ مِصرَ حتَّى يأذنَ لي أبي في مُفارَقتِها، أو يقضيَ لي ربِّي بالخُروجِ منها، واللهُ خيرُ مَن حَكَمَ، وأعدَلُ مَن فَصَلَ بين النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى بيَّنَ أنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ بعد الَّذي ذكَروه مِن قولِهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] أحبُّوا موافقتَه والعدولَ إلى طريقةِ الشَّفاعةِ، فقالوا للعزيزِ ما ذكَرَه اللَّهُ تعالى هنا⁽¹⁾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩١).

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لِيوسُفَ: يا أيُّها العزيزُ(١) إنَّ لأخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه أبًا شيخًا كبيرًا(٢)، يحِبُّه حُبًّا شديدًا، ولا يصبِرُ على فِراقِه(٣).

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: فخُذْ واحدًا منَّا بدلًا مِن أخينا الَّذي تُريدُ أخْذَه؛ إنَّا نَراكَ مِنَ المحسِنينَ في أفعالِك، فأحْسِنْ إلينا وإلى أبينا بأخْذِ أحدِنا، وتَرْكِ أخينا يرجِعُ إلى أبيه(٤).

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نعوذُ باللَّهِ أنْ نأخُذَ بريئًا بدلًا ممَّن وجَدْنا الصُّواعَ لديه؛ إنَّا إذَا أخَذْنا غيرَه لظالِمونَ بوضْعِنا العُقوبةَ على مَن لا يستحِقُّها(٥).

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ

---

(١) قال ابنُ عاشورٍ: (نادَوا بوصْفِ العزيزِ؛ إمَّا لأنَّ كلَّ رئيسِ ولايةٍ مُهمَّةٍ يُدْعى بما يُرادِفُ العزيزَ، فيكونُ يُوسفُ عليه السَّلامُ عزيزًا...، وإمَّا لأنَّ يُوسفَ ضُمَّت إليه ولايةُ العزيزِ الَّذي اشتراه، فجمَعَ التَّصرُّفاتِ، وراجعوه في أخْذِ أخيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (المُرادُ بالكبيرِ: إمَّا كبيرُ عَشيرَتِه، فإساءتُه تسوءُهم جميعًا، ومِن عادةِ الوُلاةِ استجلابُ القبائلِ، وإمَّا أنْ يكونَ ﴿كَبِيرًا﴾ تأكيدًا لـ ﴿شَيْخًا﴾ أي: بلَغَ الغايةَ في الكِبَرِ مِن السِّنِّ، ولذلك فرَّعوا على ذلك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾؛ إذ كان هو أصغرَ الإخوةِ، والأصغَرُ أقربُ إلى رِقَّةِ الأبِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦، ٣٧)، ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال الزَّجَّاجُ: (أي: ممَّن يُحسِنُ ولا يُعَامِلُ بالتَّحديدِ في واجبٍ؛ لأنَّه كان أعطاهم الطَّعامَ وأعطاهم ثمَنَه في رَدِّه البِضاعةِ لهم، فطالبُوه بأنْ يُحْسِنَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ ﴾.

أي: فلَمَّا يئِسَ إخوةُ يوسُفَ مِن أنْ يُخَلِّيَ يوسُفُ سَراحَ أخيهم، ويأْخُذ واحدًا منهم مكانَه، انفَرَدوا عنِ النَّاسِ، واجتمَعوا يتسارُّونَ فيما بينهم، ويتَشاوَرونَ في شأنِ ما وقَعوا فيه(١).

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قال أكبَرُ أولادِ يعقوبَ سِنًّا لإخوتِه: ألَمْ تعلَموا أنَّ أباكم يعقوبَ قد أخَذَ عليكم عُهودَ اللَّهِ المُؤكَّدةَ بأنْ ترُدُّوا إليه ولَدَه(٢)؟!

﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾.

أي: ألَمْ تعلَموا أيضًا تَفريطَكم في يوسُفَ وإضاعتَه مِن قَبْلِ هذا؟! فاجتمَعَ عليكمُ الأمْرانِ؛ تفريطُكم في يوسُفَ، وعدَمُ إتيانِكم بأخيه(٣).

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾.

أي: فلنْ أُفارِقَ أرضَ مصرَ حتَّى يأْذَنَ لي أبي بالخُروجِ منها؛ فإنِّي أسْتَحيي منه، أو يقْضِيَ اللَّهُ لي بأمْرٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أي: واللَّهُ أفضَلُ وأعدَلُ مَن حكَمَ بين النَّاسِ بالحقِّ(١).

الفوائدُ التربويةُ:

١- تأمَّلْ قولَ يوسُفَ: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ ولم يقُلْ: (إلَّا مَن سرَقَ)، وهو أخصَرُ لفظًا؛ تحرِّيًا للصِّدْقِ، فإنَّ الأخَ لم يكُنْ سارِقًا بوجْهٍ؛ فإنَّه لم يفعَلْ في الصُّواعِ فِعْلَ السَّارقِ، ولم يقَعْ منه قبلَ ذلك ما يصِحُّ إطلاقُ الوصفِ عليه، وكان المَتاعُ عنده حقًّا؛ فالكلامُ مِن أحسَنِ المَعاريضِ وأصْدَقِها(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ دَلالةٌ على الأصلِ الكبيرِ الذي أعادَه اللهُ وأبداه في كتابِه: أنَّ لكُلِّ نفسٍ ما كسَبَت من الخيرِ والثَّوابِ، وعليها ما اكتسَبَت من الشَّرِّ والعِقابِ، وأنَّه لا تزِرُ وازِرةٌ وِزرَ أُخرَى(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا

= كثير)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قيل: المُرادُ بقولِه تعالى: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أي: بالرُّجوعِ مع أخي إلى أبي. وقيل: بخُروجي وتركِ أخي، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ لفظٌ عامٌّ لجميعِ ما يمكنُ أن يردَه مِن القدرِ كالموتِ أو النصرةِ وبلوغِ الأملِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٨).

إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ يؤخَذُ منه مسألةٌ دقيقةٌ: وهي أنَّ الإحسانَ إنَّما يكونُ إحسانًا إذا لم يتضمَّنْ فِعلَ مُحرَّمٍ أو تركَ واجِبٍ؛ فإنَّهم طلبوا من يوسُفَ أن يُحسِنَ إليهم بتَركِ هذا الأخ أن يذهبَ إلى أبيه، ويأخُذَ أحدَهم بدَلَه، فامتنَعَ وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾، فالإحسانُ إذا تضمَّنَ تركَ العَدلِ كان ظُلمًا؛ ولهذا كان تخصيصُ بعضِ الأولادِ على بعضٍ، وبعضِ الزَّوجاتِ على بعضٍ- وإن كان إحسانًا إلى المُخَصَّص والمُفضَّل- غيرَ جائزٍ؛ لأنَّه تَركٌ للعدلِ، وكذلك ما أشبهَ ذلك⁽¹⁾.

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ خاطَبوه بما يليقُ بالأكابِرِ؛ ليَرِقَّ لهم⁽²⁾.

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ دلَّ بالفاءِ على قُرْبِ زمَنِ تلك المُراجعاتِ⁽³⁾.

٣- قولُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ جعَلَ حلِفَهم باللَّهِ مَوْثِقًا منه؛ لأنَّه بإذنٍ منه وتأكيد مِن جِهَتِه⁽⁴⁾.

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾ أي: أُفارِقَ هذه ﴿الْأَرْضَ﴾ وإيصالُه الفعْلَ بدون حرفٍ دليلٌ على أنَّه صار شديدَ الالتِصاقِ بها⁽⁵⁾.

٥- الحُكْمُ المذكورُ في قولِه تعالى عنِ ابنِ يعقوبَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ١٩٢، ١٩٣).

حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ هو الحُكْمُ الكونيُّ، ويقابلُه: الحُكْمُ الدينيُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾(١) [المائدة: ١].

٦- قولُه: ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ غَيَّا ذلك بغايَتَينِ، إحدَاهُما: خاصَّةٌ؛ وهي قولُه: ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ يعني: في الانصرافِ إليه، والثَّانيةُ: عامَّةٌ؛ وهي قولُه: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾؛ لأنَّ إذنَ اللَّهِ له هو مِن حُكْمِ اللَّهِ له في مُفارقةِ أرْضِ مصرَ، وكأنَّه لَمَّا علَّقَ الأمْرَ بالغايةِ الخاصَّةِ رجَعَ إلى نفْسِه فأتى بغايةٍ عامَّةٍ؛ تَفْويضًا لحُكْمِ اللَّهِ تعالى، ورُجوعًا إلى مَن له الحُكْمُ حقيقةً(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- في قولِهم: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ وصْفٌ لأبيهم بثلاثِ صِفاتٍ تقْتَضي التَّرقيقَ عليه؛ وهي: حَنانُ الأُبوَّةِ، وصِفةُ الشَّيخوخةِ، واستِحقاقُه جَبْرَ خاطرِه؛ لأنَّه كبيرُ قومِه، أو لأنَّه انتهَى في الكِبَرِ إلى أقصاه، فالأوصافُ مَسوقةٌ للحثِّ على سَراحِ الابنِ، لا لأصلِ الفائدةِ؛ لأنَّهم قد كانوا أخْبَروا يوسُفَ عليه السَّلامُ بخَبَرِ أبيهم(٣).

- وجُملةُ ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإجابةِ المطلوبِ لا للطَّلَبِ، والتَّقديرُ: فلا تَرُدَّ سُؤالَنا؛ لأنَّا نراك مِن المُحسنينَ، فمِثلُك لا يصدُرُ منه ما

---

(١) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٦).

يسوءُ أبًا شيخًا كبيرًا(١).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾

- وضمائرُ ﴿نَأْخُذَ﴾ و﴿وَجَدْنَا﴾ و﴿مَتَاعَنَا﴾ و﴿إِنَّا﴾ و﴿لَظَالِمُونَ﴾ مُرادٌ بها المُتكلِّمُ وحدَه دون مُشارِكٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ مِن استعمالِ ضَميرِ الجَمْعِ في التَّعظيمِ حِكايةً لِعبارتِه في اللُّغةِ الَّتي تكلَّمَ بها؛ فإنَّه كان عظيمَ المدينةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استعمَلَ ضَميرَ المُتكلِّمِ المُشارِكِ تواضُعًا منه؛ تشبيهًا لنفْسِه بمَن له مُشارِكٌ في الفِعْلِ، وهو استِعمالٌ موجودٌ في الكلامِ(٢)، وقيل: للإشعارِ بأنَّ الأخذَ والإعطاءَ ليس ممَّا يُستبدُّ به، بل هو مَنوطٌ بآراءِ أُولي الحَلِّ والعَقْدِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ تعليلٌ للامتناعِ مِن أخْذِ غيرِه بأنَّه لو فَعَلَه لكانَ ذلك ظُلمًا، ودليلُ التَّعليلِ شيئانِ: وُقوعُ (إنَّ) في صدْرِ الجُملةِ، والإتيانُ بحَرْفِ الجَزاءِ وهو (إذًا)(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ استيأَسَ بمعنى: يَئِسَ، وزيادةُ السِّينِ والتَّاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٣٧، ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٧).

للمُبالَغةِ(١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ بعَدَمِ اطمئنانِ أبيهم بحِفْظِهم لابنِه(٢).

- قولُه: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ تزديدٌ بين ما رسَمَه هو لنفْسِه، وبين ما عسى أنْ يكونَ اللَّهُ قد قدَّرَه له ممَّا لا قِبَلَ له بدَفْعِه، فحَذَفَ مُتعلَّقَ ﴿يَحْكُمَ﴾ المجرورَ بالباءِ؛ لتَنْزيلِ فِعْلِ ﴿يَحْكُمَ﴾ مَنزِلةَ ما لا يطْلُبُ مُتعلَّقًا(٣).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ تذييلٌ، وإنْ كان على إرادةِ (وهو خيرُ الحاكِمينَ لي)؛ فالخبرُ مُستعمَلٌ في الثَّناءِ؛ للتَّعريضِ بالسُّؤالِ أنْ يُقدِّرَ له ما فيه رأفةٌ في رَدِّ غُرْبَتِه(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨١- ٨٧)

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٧) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَسَفَى﴾: الأسف: أشدُّ الحسرة، والحزنُ على ما فات، وأصل (أسف): يدلُّ على الفَوتِ والتلهُّف وما أشبَهَ ذلك(١).

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيء، وجَمعِه(٢).

﴿تَفْتَأُ﴾: أي: لا تزالُ(٣).

﴿حَرَضًا﴾: أي: مريضًا مُشْفيًا على الهلاكِ، وأصلُ (حرض): يدلُّ على الذَّهابِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥).

والتَّلفِ والهلاكِ(١).

﴿بَثِّي﴾: أي: همِّي، وقيل: البثُّ: الهمُّ الشديدُ، وقيل: أشدُّ الحزنِ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ صاحبَه لا يصبرُ عليه حتَّى يَبُثَّه، أي: يَشكوَه ويَنشُرَه، وأصلُ (بثَّ): يدلُّ على تفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه(٢).

﴿فَتَحَسَّسُوا﴾: التَّحسُّسُ: شِدَّةُ التطَلُّبِ والتَّعرُّفِ؛ مِن الحِسِّ: وهو الإدراكُ بالحاسَّةِ(٣).

﴿رَوْحِ اللَّهِ﴾: أي: فرَجِه ورحمتِه، وأصلُ (روح): يدلُّ على سَعَةٍ وفُسحةٍ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن قولِ أكبَرِ الإخوةِ لإخوَتِه: ارجِعُوا إلى أبيكم، وأخبِروه بما جرَى، وقُولوا له: إنَّ ابنَكَ قد سرَقَ، وما شَهِدْنا بذلك إلَّا بعدَ أنْ تَيَقَّنَّا؛ فقد رأيْنا المِكيالَ في رَحْلِه، وما كان عِندَنا عِلمُ الغَيبِ أنَّه سيَسرِقُ حين عاهَدْناكَ على رَدِّه، واسألْ- يا أبانا- أهلَ مِصرَ، ومَن كان معَنا في القافِلةِ الَّتي كنَّا فيها، وإنَّنا لصادِقونَ فيما أخبَرْناكَ به.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

ولَمَّا رجَعوا وأخبَروا أباهم، قال لهم: بل زَيَّنَتْ لكُم أنفُسُكم مَكيدةً دبَّرتُموها، كما فعَلتُم مِن قَبلُ مع يُوسُفَ، فصَبري صبرٌ جَميلٌ، لا جزَعَ فيه ولا شَكوَى معه؛ عسى اللَّهُ أنْ يرُدَّ إليَّ أبنائي جميعًا- وهُم: يوسُفُ، وشقيقُه، وأخوهمُ الكبيرُ الَّذي تخلَّفَ مِن أجْلِ أخيه- ؛ إنَّه هو العليمُ بحالي، الحَكيمُ في تدبيرِه. وأعرَضَ يَعقوبُ عنهم، وقد ضاق صَدرُه بما قالوه، وقال: يا حَسرَتي على يوسُفَ، وابيضَّتْ عيناه؛ مِن شِدَّةِ الحُزنِ، فهو مُمتلئُ القَلبِ حُزنًا، ولكِنَّه شَديدُ الكِتمانِ له. قال بَنُوه: تاللَّهِ، ما تزالُ تتذكَّرُ يوسُفَ، ويَشتدُّ حُزنُك عليه، حتَّى تُشرِفَ على الهَلاكِ أو تَهلِكَ فِعلًا، فخَفِّفْ عن نفْسِك. قال يعقوبُ مُجيبًا لهم: لا أُظهِرُ همِّي وحُزني إلَّا إلى اللَّهِ وَحْدَه؛ فهو كاشِفُ الضُّرِّ والبَلاءِ، وأعلَمُ مِن رَحمةِ اللَّهِ وفَرَجِه ما لا تَعلَمونَه. وقال لأبنائِه: عُودُوا إلى مِصرَ، فاستَقْصُوا أخبارَ يوسُفَ وأخيه، ولا تَقنَطوا مِن رَحمةِ اللَّهِ؛ إنَّه لا يَقنَطُ مِن رَحمةِ اللَّهِ إلَّا الجاحِدونَ لقُدرتِه، الكافِرونَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ ﴾.

أي: قال أكبرُ أولادِ يَعقوبَ لإخوتِه: ارجِعوا إلى أبيكم يَعقوبَ، فقولوا له: يا أبانا، إنَّ ابنَك الَّذي أرسلْتَه معنا سرَقَ صُواعَ الملِكِ، وأُخِذَ بجِنايتِه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَهم أن يُخبِروا أباهم بصُورةِ ما وقَعَ؛ حتَّى يكون عذرًا لهم عنده، ويتنصَّلوا إليه، ويَبرَؤوا ممَّا وقَعَ بقولِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

أي: وما شَهِدْنا عِندَكَ- يا أبانا- بأنَّ ابنَك سرَقَ إلَّا بما رأينا؛ مِن استخراجِ الصُّواعِ مِن رَحْلِه⁽¹⁾.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

أي: وما كنَّا لِمَا غاب عنَّا عالِمينَ؛ فلم نَدْرِ أنَّ ابنَك سيَسرِقُ الصُّواعَ، ويُسْتَرَقُّ عند الملِكِ⁽²⁾.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾.

أي: وقولوا لأبيكم: وإنْ كنتَ لا تُصَدِّقُنا فيما أخبرْناك به مِن سَرِقةِ ابنِك للصُّواعِ، فاسألْ أهلَ مِصْرَ الَّتي كنَّا فيها؛ ليَتبيَّنَ لك صِدْقُنا⁽³⁾.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾.

أي: واسألْ أصحابَ القافِلةِ الَّتي جِئْنا معها ورافَقْناها؛ فسيُصَدِّقونَنا فيما أخبرْناكَ⁽⁴⁾.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠٨).

أي: وإنَّا لصادِقونَ فيما أخْبَرناكَ به مِن سَرِقةِ ابنِك صُواعَ المَلِكِ، واستِرقاقِه بسَبَبِ سرِقَتِه، ولم نكذِبْ عليك(١).

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣) ﴾.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

أي: قال يَعقوبُ لأبنائِه: ليس الأمرُ كما ادَّعيتُم، بل زَيَّنَتْ لكم أنفُسُكم أمْرًا أردْتُموه بأخيكم غيرَ ما تقولون(٢).

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لهم: فصَبْري على فَقْدِ أبنائي صَبرٌ جميلٌ، لا جَزَعَ فيه، ولا شَكوَى إلى الخلْقِ؛ عسى اللَّهُ أنْ يَرُدَّ عليَّ أبنائي الغائبينَ جميعًا: يوسُفَ وأخويه(٣).

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بحالي، الحَكيمُ في أفعالِه وقَضائِه وتَدبيرِ خَلْقِه(٤).

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥).

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

أي: وأعرَضَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ عن أبنائِه بعدَ أنْ أخبَرَوه بما جدَّدَ حُزنَه القديمَ، وقال: يا شِدَّةَ حُزني على وَلَدِي يوسُفَ[1]!

﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾.

أي: وابيضَّتْ عَيْنَا يَعقوبَ عليه السَّلامُ مِن شدَّةِ الحُزنِ الَّذي أوْجَبَ له كثْرَةَ البُكاءِ؛ فقلبُه مملوءٌ مِن الحُزنِ، وهو كاتمٌ له لا يُظهِرُه[2].

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾.

أي: قال أبناءُ يَعقوبَ لأبيهم مُتعجِّبينَ مِن حالِه: واللَّهِ، لا تَزالُ تَذكُرُ يوسُفَ ولا تنساه[3]!

﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ أي: مِن مُلازمةِ البُكاءِ الَّذي هو ثمرَةُ الحُزنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٢).

وقال الزَّمخشريُّ: (إذا كثُرَ الاستِعْبارُ مَحقَتِ العَبرةُ سَوادَ العينِ وقَلَبَتْه إلى بياضٍ كَدِرٍ؛ قيل: قد عَمِيَ بصرُه، وقيل: كان يُدرِكُ إدراكًا ضعيفًا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٧).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّه كان عَمِيَ؛ لقولِه: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: ٩٦]). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

أي: لا تزالُ تَذكُرُ يوسُفَ دائمًا، حتَّى يَضْعُفَ جِسمُك وعقلُك، وتقاربَ الهلاكَ مِن شدَّةِ الحُزنِ عليه(١)!

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

أي: أو تكونَ ممَّن هلَكَ بالموتِ(٢)!

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قال يعقوبُ رادًّا على أبنائِه: إنَّما أشْكو همِّي وحُزني إلى اللَّهِ وحدَه، لا إلى خَلْقِه(٣).

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

قال الماورديُّ: (﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يعني: ميِّتًا مِن الميِّتين، قاله الجميعُ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (والبثُّ: الهمُّ الشَّديدُ، وهو التَّفكيرُ في الشَّيءِ المُسيءِ. والحزنُ الأسَفُ على فائتٍ. فبينَ الهمِّ والحزنِ العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ، وقد اجْتَمَعا ليعقوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه كان مهتمًّا بالتَّفكيرِ في مصيرِ يُوسفَ عليه السَّلامُ، وما يعترضُه مِن الكربِ في غُربتِه، وكان آسِفًا على فِراقِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

وقال الشوكاني: (البثُّ...: أعظمُ الحزنِ وأصعبُه، وقيلَ: البثُّ: الهمُّ، وقيلَ: هو الحاجَةُ، وعلى هذا القولِ يكونُ عطفُ الحزنِ على البثِّ واضحُ المعنَى. وأمَّا على تفسيرِ البثِّ بالحزنِ العظيمِ، فكأنَّه قال: إنَّما أشْكو حزنِي العظيمَ وما دونَه مِنَ الحزنِ إلى اللَّهِ لا إلى غيرِه مِنَ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٩).

أي: وأعلَمُ مِن عِندِ اللَّهِ عِلْمًا عَلَّمَنِيهِ لا تَعلمونَه أنتم(١).

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبرَ يَعقوبُ عليه السَّلامُ بَنِيه أنَّ عِلْمَه فوقَ عِلمِهم، أَتبَعَه استِئنافًا ما يدُلُّ عليه، فقال لهم(٢):

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾.

أي: قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ لأبنائِه: يا بَنِيَّ، اذْهَبوا إلى مِصرَ، فاجتَهِدوا في الْتِماسِ يوسُفَ وأخيه، وتَعرَّفوا خبرَهما(٣).

﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا تَقنَطُوا مِن فرَجِ اللَّهِ ورَحمتِه؛ وأنَّه سيرَوِّحُ عنَّا ما نحن فيه مِن الكَرْبِ والشِّدَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٥).

قال ابنُ عطية: (يحتملُ أنَّه أشارَ إلى حُسنِ ظنِّه باللهِ، وجميلِ عادةِ الله عندَه، ويحتملُ أنَّه أشارَ إلى الرُّؤيا المنتظرةِ [أي: الرُّؤيا التي رآها يوسفُ عليه السلامُ]). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

قال القُرطبيُّ: (قيل: إنَّ يَعقوبَ تَنبَّهَ على يُوسفَ بِرَدِّ البِضاعةِ، واحتباسِ أخيه، وإظهارِ الكَرامةِ؛ فلذلك وجَّهَهم إلى جِهةِ مصرَ دون غيرِها). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يَقنَطُ مِن فَرَجِ اللَّهِ، ويقطَعُ رَجاءَه من رَحمتِه إلَّا القومُ الَّذين يَجْحَدون قُدرتَه، ويَستبعِدُون رَحمتَه(١).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُه تعالى عن يعقوبَ في أوَّلِ ما صنَعَ أبناؤه بأخيهم يوسُفَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وقَولُه عندما اشتدَّ به الأمرُ حين احتُبِسَ الابنُ الآخَرُ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أصفياءَ الله إذا نزلت بهم الكوارِثُ والمُصيباتُ قابلوها في أوَّلِ الأمرِ بالصَّبرِ والاستعانةِ بالمَولى، وعندما ينتهي وتبلُغُ الشِّدَّةُ مُنتهاها، يُقابِلونَها بالصَّبرِ والرَّجاءِ، والطَّمَعِ في الفرَجِ، فيوفِّقُهم اللهُ للقيامِ بعُبوديَّتِه في الحالتين، ثم إذا كُشِفَ عنهم البَلاءُ قابلوا ذلك بالشُّكرِ والثَّناءِ على اللهِ، وزيادةِ المعرفةِ بلُطفِه لِقَولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٢) [يوسف: ١٠٠].

٢- قال اللَّهُ تعالى حاكيًا قولَ يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ فالواجبُ على كلِّ مسلِمٍ إذا أُصيبَ بمَكروهٍ في نفْسِه أو ولدِه أو مالِه؛ أنْ يَتلقَّى ذلك بالصَّبرِ الجميلِ، والرِّضا والتَّسليمِ لِمُجْريه عليه، وهو العَليمُ الحَكيمُ، ويَقتدِيَ بنَبيِّ اللَّهِ يعقوبَ وسائرِ النَّبيِّينَ، صلواتُ اللَّهُ

= القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٥٦).

عليهم أجمعين(١).

٣- إذا اشتكَى العبدُ إلى ربِّه ما نزَلَ به مِنَ الضُّرِّ، وسأَلَه إزالتَه؛ لم يَكُنْ مَذمُومًا على ذلك باتِّفاقِ المُسلمين؛ فالشَّكوَى إلى اللهِ لا تُنافي الصَّبْرَ، بلِ الشَّكوَى إلى الخَلْقِ هي التي قد تُنافي الصَّبْرَ؛ فإنَّ يَعقوبَ عليه السَّلامُ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾(٢)، فالصبرُ الجميلُ هو الذي لا شكوَى معه، ولا تنافيه الشَّكوى إلى الله سبحانَه وتعالى(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ شكا إلى اللهِ، ولم يشْكُ مِن اللهِ، ومَن شَكا إلى اللهِ وصَلَ، ومن شكا من اللهِ انفَصَل، ويُقال: لَمَّا شكا إلى الله وجَدَ الخَلَف من اللهِ(٤).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في هذه الكَلِماتِ يَتَجَلَّى الشُّعورُ بحَقيقةِ الأُلوهيَّةِ في هذا القلْبِ المَوصولِ، كما تَتَجَلَّى هذه الحقيقةُ ذاتُها بجَلالِها الغامِرِ، ولَألائِها الباهِرِ؛ إنَّ هذا الواقعَ الظَّاهِرَ الْمُيَئِّسَ مِن يوسُفَ، وهذا المَدَى الطَّويلَ الَّذي يَقطَعُ الرَّجاءَ مِن حياتِه فضلًا عن عَوْدَتِه إلى أبيه، واسْتِنْكارَ بَنِيه لهذا التَّطَلُّعِ بَعدَ هذا الأَمَدِ الطَّويلِ في وَجْهِ هذا الواقعِ الثَّقيلِ، إنَّ هذا كلَّه لا يُؤَثِّرُ شيئًا في شُعورِ الرَّجُلِ الصَّالحِ بِرَبِّه؛ فهو يَعْلَمُ مِن حقيقةِ رَبِّه ومِن شَأْنِه ما لا يَعلمُ هؤلاءِ المَحجوبونَ عن تلك الحقيقةِ بذلك الواقعِ الصَّغيرِ المُنْظورِ، وهذه قِيمةُ الإيمانِ باللَّهِ ومَعرفتِه سُبحانَه هذا اللَّوْنَ مِنَ المعرفةِ؛ مَعرفةِ التَّجَلِّي والشُّهودِ، ومُلابَسةِ قُدْرتِه وقَدَرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٢/ ٢٠٠).

ومُلامَسَةِ رَحمتِه ورِعايَتِه، وإدراكِ شأنِ الأُلوهيَّةِ مع العَبيدِ الصَّالحين⁽١⁾.

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إن المُؤمنينَ المَوصولةَ قُلوبُهم باللَّهِ، النَّديَّةَ أرواحُهم برَوْحِه، الشَّاعرينَ بنَفحاتِه المُحييةِ الرَّخيَّةِ- لا ييئسُونَ مِن رَوْحِ اللَّهِ ولو أحاطَ بهمُ الكربُ، واشتدَّ بهمُ الضِّيقُ، وإنَّ المؤمنَ لَفِي رَوْحٍ مِن ظِلالِ إيمانِه، وفي أُنْسٍ مِن صِلَتِه برَبِّه، وفي طُمأْنينَةٍ مِن ثِقتِه بمَولاهُ، وهو في مَضايقِ الشِّدَّةِ ومَخانِقِ الكُروبِ⁽٢⁾، إنَّ اللَّهَ تعالى إذا شاءَ تَفْريجَ كُربةٍ هيَّأَ لها أسبابَها، ومَن كان يؤمِنُ بأنَّ اللَّهَ واسعُ القُدرةِ لا يُحيلُ مثلَ ذلك، فحَقُّهُ أنْ يأخُذَ في سَببِه ويَعتمِدَ على اللَّهِ في تَيسيرِه، وأمَّا القومُ الكافِرونَ باللَّهِ فهم يَقتصِرون على الأمورِ الغالِبةِ في العادةِ، ويُنكِرون غيرَها⁽٣⁾.

٧- إذا اشْتَدَّ الكَرْبُ وعَظُمَ الخَطْبُ؛ كان الفَرَجُ حِينئذٍ قريبًا في الغالِبِ، ومِن لَطائِفِ أَسرارِ اقتِرانِ الفَرَجِ باشْتِدادِ الكَرْبِ: أنَّ الكَرْبَ إذا اشْتَدَّ وعَظُمَ وتناهَى، وُجِدَ الإياسُ مِن كشْفِه مِن جِهةِ المخلوقِ، ووقَعَ التَّعَلُّقُ بالخالِقِ وحدَه، ومَنِ انقَطَعَ عنِ التَّعَلُّقِ بالخَلائقِ، وتَعَلَّقَ بالخالقِ؛ استجاب اللَّهُ له، وكَشَفَ عنه؛ فإنَّ التَّوَكُّلَ هو قَطْعُ الاستشرافِ باليأْسِ مِنَ المخلوقينَ، وقد أخبر الله تعالى عن يعقوبَ عليه السلامُ أنَّه لم ييأسْ مِن لقاءِ يوسفَ، وقال لإخوتِه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾⁽٤⁾.

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٧٣).

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّه بحسَبِ إيمانِ العبدِ يَكونُ رَجاؤُهُ لرَحمةِ اللَّهِ ورَوْحِه⁽¹⁾.

٩- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه أنَّ اليأسَ مِن رحمةِ اللَّهِ مِنَ الكبائرِ⁽²⁾.

١٠- إيمانُ المُؤمنِ يَظهَرُ عندَ الابتِلاءِ؛ فهو يُبالِغُ في الدُّعاءِ، ولا يَرى أثرًا للإجابةِ، ولا يَتغيَّرُ أملُه ورَجاؤُه ولو قَوِيَتْ أسبابُ اليأسِ؛ لعِلْمِه أنَّ الحقَّ أعلمُ بالمصالِحِ، أو لأنَّ المرادَ مِنه الصَّبرُ أوِ الإيمانُ؛ فإنَّه لم يَحكُمْ عليه بذلك إلَّا وهو يُريدُ مِنَ القلبِ التَّسليمَ؛ ليَنظُرَ كيف صبرُه، أو يُريدُ كثرةَ اللَّجَأِ والدُّعاءِ، فأمَّا مَن يُريدُ تَعجيلَ الإجابةِ، ويَتَذمَّرُ إنْ لم تتعجَّلْ فذاك ضعيفُ الإيمانِ، ويَرى أنَّ له حقًّا في الإجابةِ، وكأنَّه يَتقاضى أُجرَةَ عَمَلِه، فيَعقوبُ عليه السَّلامُ بقِيَ سنينَ في البَلاءِ، ورجاؤُه لا يَتغيَّرُ، فلَمَّا ضُمَّ إلى فَقْدِ يوسُفَ فَقْدُ بِنْيامينَ لم يتغيَّرْ أمَلُه، وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]. وقد كَشَفَ هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ومعلومٌ أنَّ هذا لا يَصْدُرُ مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والمؤمنينَ إلَّا بعد طُولِ البَلاءِ، وقُرْبِ اليأسِ مِنَ الفرَجِ؛ فإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَستَطِيلَ زمانَ البَلاءِ، وتَضْجَرَ مِن كثْرةِ الدُّعاءِ؛ فإنَّك مُبتلًى بالبَلاءِ، مُتَعَبَّدٌ بالصَّبرِ والدُّعاءِ، ولا تَيْئَسْ مِن رَوْحِ اللَّهِ وإنْ طالَ البَلاءُ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فيه أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أنْ يَشهَدَ إلَّا بما عَلِمَه وتَحَقَّقَه؛ إمَّا بمُشاهَدَةٍ، أو خَبَرِ مَن يَثِقُ به، وتَطمئِنُّ إليه النَّفْسُ(١).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ تَضَمَّنَتْ هذه الآيةُ جوازَ الشَّهادةِ بأيِّ وَجهٍ حَصَلَ العِلْمُ بها؛ فإنَّ الشَّهادةَ مُرتبِطةٌ بالعِلْمِ عقلًا وشرعًا؛ فلا تُسْمَعُ إلَّا ممَّنْ عَلِمَ، ولا تُقْبَلُ إلَّا منهم، وهذا هو الأصلُ في الشَّهاداتِ(٢).

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فيه رَدٌّ على مَن أجازَ الشَّهادةَ على الكِتابةِ بلا عِلْمٍ ولا تَذَكُّرٍ، وعلى مَن سمعَ كلامًا مِن وراءِ حِجابٍ؛ لِعَدَمِ العِلْمِ فيه(٣).

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ استَدَلَّ به مَن أجازَ شَهادةَ الرُّفْقَةِ- وإنْ لم يكونوا عُدولًا- فيما يَختصُّ بمُعاملاتِ السَّفَرِ(٤).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في هذه الآيةِ مِنَ الفِقهِ: أنَّ على كلِّ مَن كان على حَقٍّ، وعَلِمَ أنَّه قد يُظَنُّ به أنَّه على خِلافِ ما هو عليه، أو يُتَوَهَّمُ- أنْ يَرفَعَ التُّهْمَةَ وكُلَّ رِيبةٍ عن نَفْسِه، ويُصَرِّحَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه؛ حتَّى لا يبقَى لأحدٍ مُتَكَلَّمٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٦).

٦- قال اللَّهُ تعالى حاكيًا عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ظَنَّ بهم سُوءًا، فصَدَقَ ظَنُّهُ في زَعمِهم في يوسُفَ عليه السَّلامُ، ولَمْ يتحقَّقْ ما ظَنَّهُ في أمْرِ أخيه، أي: أخطأَ في ظَنِّهِ بهم في قَضيةِ أخي يوسُفَ، ومُستَنَدُه في هذا الظَّنِّ عِلْمُه أنَّ ابنَه لا يَسرِقُ؛ فعَلِمَ أنَّ في دَعْوَى السَّرِقةِ مَكيدةً، فظَنُّهُ صادِقٌ على الجُمْلةِ لا على التَّفصيلِ، وأمَّا تُهْمَتُه أبناءَه بأنْ يَكونوا تَمالَؤُوا على أخيهم، فهو ظَنٌّ مُستَنِدٌ إلى القِياسِ على ما سبَقَ مِن أمرِهم في قَضيَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه كان قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، ويَجوزُ على النَّبيِّ الخطأُ في الظَّنِّ في أُمورِ العاداتِ⁽¹⁾.

٧- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أشرفُ أعضاءِ الإنسانِ هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ المشارِ إليها في هذِه الآيةِ، وهِي: اللِّسانُ والعينُ والقلبُ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّها كانتْ غَريقةً في الغَمِّ: فاللِّسانُ كان مَشغولًا بقولِه: ﴿يَا أَسَفَى﴾، والعَيْنُ بالبُكاءِ والبَياضِ، والقلْبُ بالغَمِّ الشَّديدِ الَّذي يُشْبِهُ الوِعاءَ المملوءَ الَّذي شُدَّ، ولا يُمكِنُ خُروجُ الماءِ منه، وفي هذا مُبالَغةٌ في وَصْفِ ذلك الغَمِّ⁽²⁾.

٨- قال سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ: (لم يَكُنْ عندَ يَعقوبَ ما في كِتابِنا مِنَ الاسْتِرْجاعِ، ولو كان عِندَه لَمَا قال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾)⁽³⁾.

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، إنْ قيل: هذا لَفظُ الشَّكْوَى فأينَ الصَّبرُ؟ فالجوابُ مِن وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنَّه شَكَا إلى اللَّهِ لا مِنه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤٨).

الثَّاني: أنَّه أرادَ به الدُّعاءَ؛ فالمعْنَى: يا رَبِّ ارْحَمْ أَسَفِي على يوسُفَ(١).

١٠- في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ المحبَّةَ والشَّوقَ يُبْلِيَانِ ويُهْلِكانِ(٢).

١١- قولُه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ ﴿تَفْتَأُ﴾ أي: لا تفتأُ، فحَذَفَ (لا)؛ لأنَّ القَسَمَ إذا لم يكُنْ معه علاماتُ الإثباتِ كان على النَّفْيِ(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ فيه احتِراسٌ مِن تَحقُّقِ كونِه سرَقَ؛ وهو إمَّا لقصْدِ التَّلطُّفِ مع أبيهم في نِسبةِ ابنِه إلى السَّرقةِ، وإمَّا لأنَّهم عَلِموا مِن أمانةِ أخيهم ما خالجَهُم به الشَّكُّ في وُقوعِ السَّرقةِ منه(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ استِئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ نَشَأَ ممَّا سبَقَ، فكأنَّه قيل: فماذا كان عندَ قَوْلِ المتَوَقِّفِ لإخوتِه ما قال؟ فقيل: قال يَعقوبُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٣)، ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٤).

قال ابن جرير: (وَحُذِفَتْ (لَا) أو (ما) مِنْ قَوْلِهِ ﴿تَفْتَأُ﴾ وهيَ مُرادَةٌ في الكَلام؛ لأنَّ اليمينَ إذا كان ما بعدها خبرًا لم يَصحَبْها الجحدُ، ولم تسقطِ اللام التي يُجاب بها الأيمان، وذلك كقول القائل: والله لآتينك، وإذا كان ما بعدها مجحودًا تلقيت بـ (ما) أو بـ (لا)، فلمَّا عُرِف موقعُها حُذفت من الكلامِ؛ لمعرفة السامع بمعنى الكلام). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٠).

السَّلامُ عِندَما رجَعوا إليه، فقالوا له ما قالوا(١)؛ فهو في صُورةِ الجَوابِ عنِ الكلامِ الَّذي لقَّنَه أخوهم على طَريقةِ الإيجازِ(٢)، والقائلُ هنا هو يعقوبُ عليه السَّلامُ؛ وإنَّما حُذِفَ للإيذانِ بأنَّ مُسارَعَتَهم إلى قَبولِه، ورُجوعَهم به إلى أبيهم أمْرٌ مُسَلَّمٌ غَنِيٌّ عنِ البَيانِ، وإنَّما المُحتاجُ إليه جوابُ أبيهم(٣).

- و﴿بَلْ﴾ للإضْرابِ؛ فيقْتَضي كلامًا مَحْذوفًا قبلَها حتَّى يَصِحَّ الإضرابُ فيها، وتقديرُه: (ليس الأمْرُ حَقيقةً كما أخْبَرتُم، بَلْ سَوَّلَتْ...)(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ إنَّما تأسَّفَ على يُوسُفَ وحْدَه دونَ أخَوَيه- بِنيامينَ والقائلِ: ﴿لَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾- والحادِثُ رُزْؤُهما؛ لأنَّ رُزْأَ يُوسُفَ كان قاعِدةَ المصيباتِ، وأصْلَ الرَّزايا عندَه؛ إذ تَرَتَّبَتْ عليه، وكان غَضًّا عندَه، وإنْ تقادَمَ عَهدُهُ، آخِذًا بمَجامِعِ قَلْبِه لا يَنْساهُ، وهو الَّذي لا يَعلَمُ أحيٌّ هو أم ميِّتٌ، بخِلافِ أخَوَيهِ؛ فقد كان واثقًا بحياتِهما دونَ حياتِه، عالِمًا بمكانِهما، طامِعًا في إيابِهما، وأمَّا يوسُفُ فلم يكُنْ في شأْنِه ما يُحرِّكُ سِلْسِلةَ رَجائِه سِوى رَحمةِ اللَّهِ تعالى وفَضْلِه، ولأنَّ يوسُفَ كان أحَبَّ أولادِه إليه، وكان دائمًا يذْكُرُه ولا ينْساهُ(٥). وقيل: إنَّما ذكَرَ القُرآنُ تَحسُّرَه على يُوسُفَ عليه السَّلامُ ولم يَذْكُرْ تَحسُّرَه على ابنَيْهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١).

الآخَرَيْنِ؛ لأنَّ ذلك التَّحسُّرَ هو الَّذي يَتعلَّقُ بهذه القِصَّةِ؛ فلا يقْتَضي ذِكْرُه أنَّ يعقوبَ عليه السَّلامُ لم يَتحسَّرْ قطُّ إلَّا على يُوسُفَ(١).

- وقولُه: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ فيه تَعْريضٌ بدُعاءِ اللَّهِ أنْ يُزيلَ أسَفَه بِرَدِّ يوسُفَ عليه السَّلامُ إليه(٢).

وفيه تَجانُسٌ بين لفظتَيِ (الأَسَفِ) و(يوسُفَ)، وهو مُسْتَمْلَحٌ وبَديعٌ؛ لأنَّه غيرُ مُسْتَعملٍ وغيرُ مُتَكلَّفٍ، ويُسمَّى هذا تَجْنيسَ التَّصريفِ؛ وهو أنْ تنفرِدَ كُلُّ كلمةٍ مِن الكَلِمتَيْنِ عنِ الأُخرى بحَرْفٍ(٣).

- قولُه: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ فيه تعليلُ الانْبِيضاضِ بالحُزْنِ، وإنَّما هو مِن البُكاءِ المتَوالي، وهو ثمرةُ الحزنِ؛ فعلَّلَ بالأصلِ الَّذي نشَأَ منه البُكاءُ وهو الحزنُ(٤)؛ فانْبِيضاضِ العَيْنَيْنِ كِنايةٌ عن عَدَمِ الإبصارِ، والحُزْنُ هو السَّببُ لعَدَمِ الإبصارِ(٥).

- قولُه: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ﴿كَظِيمٌ﴾ على وزنِ (فَعيل) بمعنى (مَفْعول)، أي: مملوءٌ مِن الغَيْظِ على أولادِه، مُمسِكٌ له في قَلْبِه لا يُظهِرُه، ولا يُظْهِرُ ما يَسوؤُهم؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، مِن: كَظَمَ السِّقاءَ؛ إذا سدَّه بعدَ مَلْئِه، أو هو مُبالغةٌ للكاظِمِ؛ (فَعيل) بمعنى (فاعل)، وهو الظَّاهرُ اللَّائقُ بحالِ يَعقوبَ، أي: شَديدُ الكَظْمِ، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولَمْ يَشْكُ يعقوبُ إلى أحدٍ، وإنَّما كان يَكْتُمُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣).

في نفْسِه، ويُمْسِكُ همَّه في صدرِه، فكانَ يكْظِمُه، أي: يرُدُّه إلى قلْبِه، ولا يرْسِلُه بالشَّكْوى والغضَبِ والضَّجَرِ(١).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ فيه فنٌّ مِن فُنونِ البَلاغةِ يُسمَّى بائتِلافِ اللَّفظِ مع المعْنَى، وهو تلاؤُمُ ألفاظِ المعْنَى الْمُرادِ بعضِها مع بعضٍ ليس فيها لفظةٌ نابيةٌ أو قَلِقَةٌ عن أخواتِها بحيثُ يُمْكِنُ استبدالُها، وفي هذا يُلاحظُ أشياءُ ثلاثةٌ؛ وهي: اختيارُ الألفاظِ الْمُفرَدةِ، ونظْمُ كلِّ كَلِمةٍ مع أُختِها الْمُشاكِلَةِ لها، والغرَضُ المَقْصودُ مِن ذلك الكلامِ على اختلافِ أنواعِه؛ فالألفاظُ تنْقَسِمُ في الاستِعمالِ إلى جَزْلَةٍ ورَقيقةٍ، ولكلٍّ منها مواضِعُ يَحْسُنُ استِعْمالُها فيه؛ فالجَزْلُ يُسْتَعْمَلُ في مواقفِ الشِّدَّةِ وقَوارعِ التَّهديدِ والتَّخويفِ، والرَّقيقُ يُسْتَعْمَلُ في وَصْفِ تَباريحِ الأشواقِ، ولَوْعةِ الفِراقِ، وهذه الآيةُ مِن أرْوعِ الأمثلةِ على ذلك؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا أتَى بأغربِ ألفاظِ القَسَم بالنِّسبةِ إلى أخواتِها وهي التَّاءُ؛ لأنَّ الواوَ والباءَ أكثرُ دَوَرانًا على الألْسِنةِ منها، أتَى سبحانه بأغربِ صِيَغِ الأفعالِ النَّاقصةِ الَّتي ترفَعُ الأسماءَ وتنصِبُ الأخبارَ بالنِّسبةِ إلى أخواتِها وهي (تفْتَأُ)، وحذَفَ منها حرْفَ النَّفْيِ؛ زِيادةً في الإغْرابِ، ولأنَّ الْمَقامَ لا يَلْتَبِسُ بالإثباتِ، وكذلك لفظةُ ﴿حَرَضًا﴾ أغربُ مِن جميعِ أخواتِها مِن ألفاظِ الهَلاكِ؛ فاقْتَضى حُسْنُ النَّظْمِ وحُسْنُ الوضْعِ فيه أنْ تُجاوَرَ كلُّ لَفظةٍ بلَفظةٍ مِن جِنْسِها في الغَرابةِ والاستعمالِ؛ تَوَخِّيًا لحُسْنِ الجِوارِ، ورَغبةً في ائتلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٣).

المعاني بالألفاظِ، ولتَتَعادلَ الألفاظُ في الوضْعِ، وتتناسَبَ في النَّظْمِ(١).

- وفي جَعْلِهم الغايةَ الحَرَضَ أوِ الهلاكَ بقولِهم: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ تَعْريضٌ بأنَّه يَذكُرُ أمْرًا لا طَمَعَ في تَدارُكِه(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ مُفيدةٌ قَصْرَ شَكْواه على التَّعلُّقِ باسمِ اللَّهِ، أي: يَشْكو إلى اللَّهِ لا إلى نفْسِه ليُجَدِّدَ الحُزْنَ(٣).

- قولُه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَعقَبَ به كلامَه؛ لِيُنَبِّهَهم إلى قُصورِ عُقولِهم عن إدراكِ المقاصِدِ العاليةِ؛ ليعْلَموا أنَّهم دُونَ مَرتبةِ أنْ يُعَلِّموه أو يَلُوموه، أي: أنا أعْلَمُ عِلْمًا مِن عند اللَّهِ علَّمَنيهِ لا تعلَمونَه، وهو عِلْمُ النُّبوَّةِ، وفي هذا تَعريضٌ برَدِّ تَعَرُّضِهم بأنَّه يَطمَعُ في المُحالِ بأنَّ ما يَحْسَبونَه مُحالًا سيقَعُ(٤).

٦- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

- جُملةُ ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ في قولِه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يُثيرُ في أنفُسِهم ترقُّبَ مُكاشَفَتِه على كَذِبِهم، وفي خِطابِهم بوَصْفِ البُنوَّةِ منه تَرْقيقٌ لهم وتلطُّفٌ؛ ليكونَ أبْعَثَ على الامتِثالِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٧- ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٤٥، ٤٦).

- قولُه: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وإنَّما خصَّهما؛ لأنَّ الثَّالثَ الَّذي أقام وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ إنَّما أقام مُختارًا؛ فكانتْ غَيبتُه اختياريَّةً لا يعسُرُ إزالتُها(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ عنِ اليأسِ بقولِه: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾؛ فموقِعُ (إنَّ) التَّعليلُ، والمَعْنَى: لا تَيئَسوا مِنَ الظَّفَرِ بيوسُفَ عليه السَّلامُ مُعْتَلِّينَ بطُولِ مُدَّةِ البُعدِ الَّتي يَبعُدُ معها اللِّقاءُ عادةً(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

الآيات (٨٨- ٩٢)

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسَّنَا﴾: أي: أصابَنا، والمسُّ يقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصلُ (مسس): يدلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ[1].

﴿مُزْجَاةٍ﴾: أي: قليلةٍ رَديئةٍ، ومَردودةٍ مَدفوعةٍ غيرِ مقبولةٍ؛ مِن الإزجاءِ: وهو الطَّردُ والسَّوقُ والدَّفعُ، وأصلُ (زجي): يدلُّ على الرَّمْيِ بالشَّيْءِ[2].

﴿آثَرَكَ﴾: أي: فَضَّلَكَ، وأَصْلُ (أثَرَ): تَقديمُ الشَّيْءِ[3].

﴿تَثْرِيبَ﴾: أي: تَعْيِيرَ وتَوْبِيخَ وتَأْنيبَ، وأصلُ التَّثْريب: يدلُّ على اللَّومِ،

---

[1] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢١).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣).

والأخذِ على الذَّنبِ⁽¹⁾.

المعنى الإجماليُّ:

يخبر الله تعالى أنَّ إخوةَ يوسُفَ لما رجَعوا إلى مِصْرَ، ودخَلوا على يوسُفَ، قالوا: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا القَحطُ والجَدْبُ، وجِئْناكَ بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ، فأعْطِنا به ما كُنتَ تُعطِينا مِن قَبلُ بالثَّمَنِ الجَيِّدِ، وتصدَّقْ علينا بقَبضِ هذه الدَّراهمِ المُزجاةِ وتَجوَّزْ فيها؛ إنَّ اللَّهَ تعالى يُثيبُ المتفَضِّلينَ بأموالِهم على المحتاجينَ، فلَمَّا سمِعَ مَقالتَهم رَقَّ لهم، وعرَّفَهم بنَفسِه، وقال: هلْ تذكُرونَ الَّذي فعَلْتُموه بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى في حالِ جَهْلِكم بعاقبةِ ما تَفعلونَ؟ قالوا: أإنَّكَ لَأنتَ يوسُفُ؟! قال: نَعَمْ، أنا يوسُفُ، وهذا شَقيقي، قد تفضَّل اللَّهُ علينا، فجَمَعَ بيْننا بعدَ الفُرقةِ؛ إنَّه مَن يتَّقِ اللَّهَ، ويَصبِرْ على المِحَنِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُذهِبُ ثوابَ إحسانِه، وإنَّما يَجْزيه أحسَنَ الجَزاءِ. قالوا: واللَّهِ، لقد فَضَّلكَ اللَّهُ علينا، وأعزَّكَ بالعِلْمِ والحِلمِ، والفَضلِ والملكِ، وقد كنَّا خاطِئينَ فيما فعَلْناه بكَ. قال لهم يوسُفُ: لا تَأنيبَ عليكمُ اليومَ، يَغفِرُ اللَّهُ لكم، وهو أرحَمُ الرَّاحمينَ لِمَن تاب مِن ذَنبِه، وأناب إلى طاعتِه، ولَمَّا سألَهم عن أبيه أخبَروه بذَهابِ بَصَرِه مِنَ البُكاءِ عليه، فقال لهم: عُودُوا إلى أبيكم ومعَكم قَميصي هذا، فاطْرَحوه على وجهِ أبي يَعُدْ إليه بَصَرُه، ثم أحضِروا إليَّ جميعَ أهلِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾.

أي: فرجَعَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصْرَ، فلَمَّا دخلوا على يوسُفَ قالوا له: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا الجوعُ والحاجةُ والشِّدَّةُ؛ بسببِ القحطِ، وقِلَّةِ الطَّعام(١).

﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾.

أي: وأتَيْنا بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ لِشِراءِ الطَّعامِ(٢).

﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾.

أي: فأَوْفِنا كَيْلَ الطَّعامِ ولا تَنْقُصْه(٣).

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾.

أي: وتَفَضَّلْ علينا، وتَسامَحْ بما بيْنَ الثَّمَنِ الجَيِّدِ للطَّعامِ والثَّمنِ الرَّديءِ الَّذي قدَّمْناه لشِرائِه، ولا تَنْقُصْنا مِنَ الطَّعامِ بسَببِ ذلك(٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦، ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

قال القُرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يُريدون: كما تَبيعُ بالدَّراهمِ الجيادِ لا تنقُصْنا بمكانِ دَراهِمِنا؛ هذا قولُ أكثَرِ المفسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

قال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذا التَّصدُّقَ معناه: المُسامَحةُ بما بين الثَّمنَينِ، وأنْ يُسعِّرَ لهم بالرَّديءِ كما يُسعِّرُ بالجيِّدِ، وعلى هذا سُمِّي ذلك تصدُّقًا؛ لأنَّ الَّذي سألوه كان مُشبهًا للتَّصدُّقِ، وليس هو تَصدُّقًا على ما يسبِقُ إليه الظَّنُّ). ((البسيط)) (١٢/ ٢٣٠).

أي: إنَّ اللَّهَ يُثيبُ في الدُّنيا والآخِرَةِ المُتفضِّلين بأموالِهم على المُحتاجِينَ(١).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه(٢): هل تَذكُرونَ ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى، حالَ جَهْلِكم بمِقدارِ ما ارتكبتُموه، وعاقبةِ ما فعلتُموه(٣)؟

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) قال الواحديُّ: (قال صاحبُ النَّظم [أبو عليٍّ الجُرجانيُّ]: هذه الآيةُ تصديقُ قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾). ((البسيط)) (١٢/ ٢٣٢).

وقال ابنُ كثيرٍ: (الظَّاهِرُ- واللهُ أعلمُ- أنَّ يُوسفَ عليه السَّلامُ إنَّما تعرَّفَ إليهم بنفسِه، بإذْنِ اللهِ له في ذلك، كما أنَّه إنَّما أخْفَى منهم نفْسَه في المرَّتينِ الأُوليينِ بأمْرِ اللهِ تعالى له في ذلك، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

وقال السعديُّ: (فلمَّا انتهى الأمْرُ، وبلَغَ أشُدَّه، رقَّ لهم يُوسفُ رِقَّةً شديدةً، وعرَّفَهم بنفْسِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يُريدُ: مِن التَّفريقِ بينهما في الصِّغَرِ والتَّمرُّسِ بهما، وإذايةِ بنيامين بعدَ مَغيبِ يُوسفَ؛ فإنَّهم كانوا يُذِلُّونه ويَشتُمونَه، ولم يُشِرْ إلى قِصَّةِ بنيامين الآخِرةِ؛ لأنَّهم لم يفعلوا هم فيها شيئًا، ونسَبَهم إمَّا إلى جهْلِ المعصيةِ، وإمَّا إلى جَهْلِ الشَّبابِ، وقلَّةِ الحُنْكَةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٦).

وقال السعديُّ: (﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهذا نوعُ اعتذارٍ لهم بجهْلِهم، أو تَوبيخٌ لهم؛ إذ فعلوا فعْلَ الجاهِلينَ، مع أنَّه لا ينبغي ولا يليقُ منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَءِنَّكَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿إِنَّكَ﴾ على لفظِ الخَبَرِ، بمعنى: أنَّهم لَمَّا عرَفوا يوسُفَ وتيَقَّنوا أنَّه هو، أَتَوْا بـ (إنَّ)؛ لِتأكيدِ ذلك(١).

٢- قِراءةُ ﴿أَءِنَّكَ﴾ على لفظِ الاستفهامِ؛ قيل: بمعنى أنَّهم ظَنُّوا ذلك ظَنًّا فاسْتَفْهَمُوه، أَهُوَ هُوَ؟ وقيل: هي بمعنَى القِراءةِ الأُولَى، أي: أثْبَتوا أنَّه يوسُفُ لا أنَّهم اسْتَخْبَروا عن أمْرٍ جَهِلوه، وإنَّما جاؤوا بلفظِ الاستفهامِ؛ لِتحقيقِ ما ثَبَتَ لديهم(٢).

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ له: أإنَّك لَأَنْتَ أخونا يوسُفُ(٣)؟

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: نَعَمْ أنا يوسُفُ، وهذا أخي الشَّقِيقُ، قد مَنَّ اللَّهُ علينا بالاجتِماعِ بعدَ الفُرْقَةِ، والعِزَّةِ بعدَ الذِّلَّة، والتَّمْكينِ في الدُّنيا(٤).

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٠)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها الباقونَ، لكنَّ ورشًا يجعلُ الهمزةَ الثَّانيةَ بين الهمزةِ والياءِ ولا يَمُدُّ، وقالون وأبو عمرٍو مثله، غيرَ أنَّهما يُدخلانِ بين الهمزتينِ ألفًا، فيَمُدَّانِ، والباقونَ يُحقِّقون الهَمزتينِ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٠)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٨، ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنَّه مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ، فيَمتَثِلْ ما أَمَرَ به، ويَجتَنِبْ ما نَهَى عنه، ويَصْبِرْ على الطَّاعاتِ وعنِ المعاصي وعلى المصائِبِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُبْطِلُ ثوابَ إحسانِه، ولا ثَوابَ كُلِّ مَن أحسَنَ بذلك(١).

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ لَمَّا ذكَرَ لإخوتِه أنَّ اللَّهَ تعالى مَنَّ عليه، وأنَّ مَنْ يَتَّقِي المعاصي ويَصبِرْ على أذَى النَّاسِ، فإنَّه لا يُضَيِّعُه اللَّهُ؛ صَدَّقوه فيه، واعتَرَفوا له بالفضلِ والمَزِيَّةِ(٢).

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ مُقْسِمينَ له: تَاللَّهِ، لقد فضَّلَك اللَّهُ علينا بالعِلْمِ والحِلْمِ، وحُسْنِ الخِلْقَةِ والخُلُقِ، والمُلْكِ(٣).

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: وما كُنَّا فيما فعَلْنا بكَ إلَّا مُذْنِبينَ مُخْطِئينَ في حقِّكَ(٤).

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨).

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: لا تَعْييرَ عليكم، ولا تَوْبيخَ بما صَنَعْتُم، ولا إفسادَ لِمَا بَيْنَنا مِنَ الأُخوَّةِ بعدَ اليوم(١).

﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أي: دعا يوسُفُ لإخوتِه فقال: يَسْتُرُ اللَّهُ لكم ذُنوبَكم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِكم بها، وهو أرحمُ الرَّاحِمين لِمَنْ تاب إليه، وأنابَ إلى طاعتِه(٢).

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾.

أي: قال يوسُفُ لإخوتِه: اذْهَبوا بقَميصي هذا فألْقُوهُ على وجْهِ أبي يعقوبَ، يَصِرْ مُبْصِرًا بَعدَ العَمَى(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩).

قال البَغويُّ: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يعُدْ مُبْصِرًا، وقيل: يأتيني بصيرًا. ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٣).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٦).

وممَّن اختار أن المُرادَ: يصيرُ مُبْصِرًا بعد العَمَى: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩).

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢). =

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: وجيئُوني بجَميعِ أهْلِكم بَني يعقوبَ(١).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أرادَ يوسُفُ عليه السَّلامُ تَعليمَهم وسائلَ التَّعَرُّضِ إلى نِعَمِ اللَّهِ تعالى، وحَثَّهُم على التَّقْوَى والتَّخَلُّقِ بالصَّبْرِ، وهذا مِن أَفانِينِ الخطابةِ: أنْ يَغْتَنِمَ الواعِظُ الفُرصةَ لإلْقاءِ الموعِظةِ، وهي فرصةُ تَأَثُّرِ السَّامعِ وانفعالِه، وظُهورِ شَواهِدِ صِدْقِ الواعِظِ في مَوْعِظَتِه(٢).

٢- قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ في الآيةِ إرشادٌ إلى أدَبٍ جليلٍ، وهو تَقديمُ الوسائلِ أمامَ المآرِبِ؛ فإنَّها أنجَحُ لها، وهكذا فعَلَ هؤلاءِ؛ قَدَّموا ما ذُكِرَ مِن رِقَّةِ الحالِ والتَّمَسْكُنِ، وتَصغيرِ العِوَضِ، ولم يَفْجَؤوه بحاجتِهم؛ لِيكونَ ذَريعةً إلى إسعافِ مَرامِهم؛ بِبَعْثِ الشَّفَقةِ، وهَزِّ العَطْفِ والرَّأفةِ، وتَحريكِ سِلسِلةِ الرَّحمةِ؛ ومِن ثَمَّ رَقَّ لهم، ومَلَكَتْهُ الرَّحمةُ عليهم، فلم يَتَمالَكْ أنْ عرَّفَهم نفْسَه(٣).

٣- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه فضيلةُ التَّقْوَى والصَّبْرِ، وأنَّ كلَّ خيرٍ

= وقيل: المُرادُ: ترجِعُ إليه قُوَّةُ بصَرِه بعد ضعفِه، وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٢).

في الدُّنيا والآخِرةِ فمِن آثارِ التَّقْوَى والصَّبْرِ، وأنَّ عاقبةَ أهْلِهما أحسنُ العواقبِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إخبارَ العبدِ مِن نَفسِه بحُصولِ التَّقوى والصَّبرِ -إذا كان صِدقًا، وفي ذلك مَصلحةٌ- مِن بابِ التحدُّث بنِعمةِ اللهِ(٢).

٥- الصَّبرُ مِن أجَلِّ مقاماتِ الإيمانِ، وأخصُّ النَّاسِ باللَّهِ وأَولاهم به أشدُّهم قِيامًا وتَحَقُّقًا به، وأنَّ الخاصَّةَ أحْوَجُ إليه مِنَ العامَّةِ، ومما يدلُّ على ذلك قولُ يوسُفَ الصِّدِّيقِ، وقد قال له إخوتُه: ﴿أَإِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ حَثٌّ على الإحسانِ، وإشارةٌ إلى أنَّ المُحْسِنَ يُجْزَى أحسَنَ جَزاءٍ منه تعالى، وإنْ لم يَجْزِه المحسَنُ إليه(٤).

٧- الصَّبْرُ والتَّقوى دَواءُ كُلِّ داءٍ مِن أَدْواءِ الدِّينِ، ولا يَسْتَغْني أحدُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيه أنَّ العِبْرَةَ في حالِ العبدِ بكَمالِ النِّهايةِ، لا بنَقْصِ البدايةِ؛ فإنَّ أولادَ يعقوبَ عليه السَّلامُ جَرَى منهم ما جرَى في أوَّلِ الأمرِ، مِمَّا هو أكبرُ أسبابِ النَّقصِ واللَّوْمِ، ثُمَّ انتهَى أمْرُهم إلى التَّوْبةِ النَّصُوحِ، والسَّماحِ التَّامِّ مِن يوسُفَ ومِن أبيهم، والدُّعاءِ لهم بالمَغفرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٨).

والرَّحمةِ، وإذا سمَحَ العَبدُ عن حقِّه؛ فاللَّهُ خيرُ الرَّاحِمين(١).

٩- قال الله تعالى حاكيًا عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ نتعلَّمُ من تجاوُزِ يوسُفَ عن ذنبِ إخوته، وإبقائِه عليهم، ومصافاتِه لهم: أن نغفِرَ لِمَن يسيءُ إلينا، ونحسِنَ إليه، ونصفِّيَ له الوُدَّ، وأن نُغضِيَ عن كلِّ إهانةٍ تلحَقُ بنا؛ فيُسبِغ الله تعالى إذ ذاك علينا نِعَمَه وخيراتِه في هذه الدنيا، كما أوسعَ على يوسُفَ، ويُورِثنا السَّعادةَ الأخرويَّةَ(٢).

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيه مِنَ العِبْرَةِ: أنَّ الظَّالِمَ الحاسِدَ قد يتوبُ اللَّهُ عليه ويَعْفُو عنه، وأنَّ المظلومَ يَنبغي له العَفْوُ عن ظالِمِه إذا قَدَرَ عليه(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ فيه جوازُ إخبارِ الإنسانِ بما يَجِدُ، وما هو فيه مِن مَرَضٍ أوْ فَقْرٍ ونحوِهما، إذا كان على غيرِ وَجْهِ التَّسَخُّطِ(٤).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ يُؤخَذُ منه جَوازُ شَكْوَى الحاجَةِ لِمَنْ يُرْجَى منه إزالتُها(٥).

٣- مَنْ تأمَّلَ ذُلَّ إخوةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ يومَ قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٦).

عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَلِ، ومَن تدبَّرَ أحوالَهم قاسَ ما بينهم وبين أخيهم مِنَ الفُروقِ، وإنْ كانَتْ توبتُهم قُبِلَتْ؛ لأنَّه ليس مَن رَقَّعَ وخاطَ كمَن ثَوْبُه صَحيحٌ(١).

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان يعقوبُ أمَرَهُم أنْ يَتَحَسَّسُوا أَمْرَ يوسُفَ وأخيه؛ فلماذا عَدَلُوا إلى الشَّكْوَى، وطَلَبوا إيفاءَ الكَيْلِ؟ **والجوابُ**: لأنَّ الْمُتَحَسِّسِينَ يَتوسَّلونَ إلى مَطْلوبهم بجميعِ الطُّرُقِ، والاعترافُ بالعَجْزِ، وضِيقِ اليَدِ، ورِقَّةِ الحالِ، وقِلَّةِ المالِ، وشِدَّةِ الحاجَةِ؛ مِمَّا يُرَقِّقُ القلْبَ، فقالوا: نُجَرِّبُه في ذِكْرِ هذه الأُمورِ، فإنْ رَقَّ قلبُه لنا ذَكَرْنا له المقصودَ، وإلَّا سَكَتْنا؛ فلهذا السَّبَبِ قَدَّمُوا ذِكْرَ هذه الواقعةِ(٢).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ استدَلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ أُجْرَةَ الكَيَّالِ على البائعِ؛ لأنَّه إذا كان عليه تَوْفِيَةُ الكَيْلِ، فعليه مَؤُونَتُه وما يَتِمُّ به(٣).

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قيل: إنَّ قولَ إخوةِ يوسفَ هذا مِنَ المَعاريضِ الَّتي هي مَنْدُوحَةٌ عنِ الكذبِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يَعتقِدونَ أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ مَلِكٌ كافِرٌ على غيرِ دِينِهم، ولو قالوا: (إنَّ اللَّهَ يَجزيك بصَدَقَتِك في الآخرةِ) كَذَبوا، فقالوا له لفظًا يُوهِمُ أنَّهم أرادُوه، وهُم يَصِحُّ لهم إخراجُه منه بالتَّأويلِ(٤).

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ صَرَّحَ بالاِسْمِ؛ تعظيمًا لِمَا نَزَلَ به مِن

---

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٢)، ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٨).

ظُلْمِ إخوتِه وما عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنَ الظَّفَرِ والنَّصْرِ، فكأنَّه قال: أنا الَّذي ظَلَمْتُموني على أعظمِ الوُجوهِ، واللَّهُ تعالى أوْصَلَني إلى أعظمِ المناصِبِ، أنا ذلك العاجِزُ الَّذي قَصَدْتُم قَتْلَه، وإلقاءَه في البِئْرِ، ثُمَّ صِرْتُ كما تَرَوْنَ؛ ولهذا قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ مع أنَّهم كانوا يَعرِفونَه؛ لأنَّ مَقصودَه أنْ يقولَ: وهذا أيضًا كان مَظلومًا كما كنتُ، ثُمَّ إنَّه صارَ مُنعَمًا عليه مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تعالى، كما تَرَوْنَ⁽¹⁾.

٨- لَمَّا استَفْهَمُوه بقولِهم: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أجابَهم فقال: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ أجابَهم عن نفسِه وعن أخيه؛ فكشَفَ لهم أمْرَه، وزادَهم في الجوابِ قولَه: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ مع أنَّهم قد سألوه عن نفْسِه فقط؛ لأنَّه سَبَقَ قولُه: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، وكان في ذِكْرِ أخيه بَيانٌ لِما سألوا عنه، وإنْ كان معلومًا عِندَهم، وتوطِئةٌ لِما ذَكَرَ بَعدُ مِن قولِه: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾⁽²⁾.

٩- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ احتَجَّ به مَن قال: إنَّ إخوةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ ما كانوا أنبياءَ؛ لأنَّ جميعَ المَناصِبِ الَّتي تكونُ مُغايِرةً لمنصبِ النُّبوَّةِ كالعَدَمِ بالنِّسْبةِ إليه، فلو شارَكوه في مَنصِبِ النُّبُوَّةِ لَمَا قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾⁽³⁾.

١٠- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيه بيانُ ما مَنَّ اللَّهُ به على يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مِنَ العِلْمِ والحِلْمِ، ومكارِمِ الأخلاقِ، وعَفْوِه عن إخوتِه الخاطِئِينَ عَفْوًا بادَرَهم به، وتَمَّمَ ذلك بألَّا يُثَرِّبَ عليهم، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٥).

يُعَيِّرَهم به(١).

١١- كَمَّل يوسفُ صلواتُ اللهِ عليه مراتِبَ الصَّبرِ؛ الصَّبرُ الاضطراريُّ: وهو صَبرُه على أذيَّةِ إخوَتِه، وما ترتَّبَ عليها مِن بُعدِه عن أبوَيه، وصَبرُه في السِّجنِ بِضعَ سِنينَ. والصَّبرُ الاختياريُّ: صَبرُه على مراودةِ سَيِّدتِه امرأةِ العزيزِ. وكَمَّل مراتِبَ العَدلِ والإحسانِ للرعيَّةِ حين تولَّى خزائِنَ البلادِ المِصريَّة، وكَمَّل مراتِبَ العَفوِ والكرَمِ حين قال له إخوتُه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فارتقى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أعلَى مقاماتِ الفَضلِ والخيرِ، والصِّدقِ والكَمالِ، ونشَرَ اللهُ له الثَّناءَ بين العالَمينَ(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ شِفاءُ الأمراضِ كما يكونُ بالأدويةِ الحسِّيَّةِ يكونُ بأسبابٍ ربَّانيَّةٍ، بل يحصُلُ بهذا النَّوعِ مِن أنواعِ الشِّفاءِ ما لا يحصُلُ بغيرِه؛ فيعقوبُ عليه السَّلامُ قد ابيضَّت عيناه من الحُزنِ وذهب بصَرُه، فجعل اللهُ شفاءَه وإبصارَه بقميصِ يوسُفَ، حين ألقاه على وَجهِه فارتدَّ بصيرًا؛ لِمَا كان فيه من رائحةِ يوسُفَ الذي كان داءُ عينيه مِن حُزنِه عليه، فصار شِفاؤُه الوحيدُ- مع لُطفِ اللهِ- في قميصِ جَسَدِه، واللهُ قادرٌ على أن يَشفيَه من دون سبَبٍ، ولكنَّه حكيمٌ؛ جعل الأمورَ تجري بأسبابٍ ونِظاماتٍ قد تهتدي العُقولُ إلى مَعرفتِها، وقد لا تهتدي؛ فهو تعالى يشفي العبادَ بأدويةٍ وأسبابٍ حِسِّيَّةٍ، وبأسبابٍ ربَّانيَّةٍ معنويَّةٍ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، كما أنَّه تعالى يُوجِدُ الأشياءَ بأسبابٍ حِسِّيَّةٍ معلومةٍ، وبأسبابٍ ربَّانيَّةٍ لا تهتدي العقولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٢٦).

إليها، كما في مُعجزاتِ الأنبياءِ وكراماتِ الأولياءِ، وآياتِه النفسيَّةِ والكونيَّةِ، وهو المحمودُ على هذا، وعلى هذا⁽¹⁾.

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في الكلام حذفٌ، تقديرُه: (فذَهَبوا مِن الشَّامِ إلى مِصْرَ ودخَلوها، فلَمَّا دخَلوا عليه)، أو: (فلَمَّا دخَلوا على يُوسُفَ بعدَما رجَعوا إلى مصرَ بموجِبِ أمْرِ أبيهم)؛ فإنَّه يُحذَفُ ما يدلُّ ظاهِرُ القولِ عليه إيجازًا؛ وإنَّما لم يذكُرْ ذلك؛ إيذانًا بمُسارَعَتِهم إلى ما أُمِروا به، وإشعارًا بأنَّ ذلك أمْرٌ مُحقَّقٌ لا يفتَقِرُ إلى الذِّكْرِ والبَيانِ⁽²⁾؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾ عاطِفةٌ على كَلامٍ مُقدَّرٍ دَلَّ عليه المقامُ، أي: فارتَحَلوا إلى مِصرَ بقصْدِ استِطْلاقِ بنيامينَ مِن عَزيزِ مِصرَ، ثُمَّ بالتَّعرُّضِ إلى التَّحسُّسِ مِن يوسُفَ عليه السَّلامُ، فوَصَلوا مصرَ، فدَخلوا على يُوسفَ، فلَمَّا دخلوا عليه... إلخ⁽³⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ...﴾ استِفهامٌ معناهُ التَّقْريعُ والتَّوبيخُ، والمُرادُ بهذا الاستِفهامِ تَعْظيمُ الواقِعةِ، وتَعظيمُ القِصَّةِ، وتَلخيصُه: ما أعظَمَ ما ارتكبتُم مِن يوسُفَ، وما أسمجَ ما أتيتُم مِن قَطيعةِ رَحِمِه، وتَضييعِ حَقِّه! كما تقولُ: هل تَدري مَن عصيتَ؟! هل تَعرِفُ مَن عاديتَ؟! وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٦).

(قَدْ)؛ لأنَّهم كانوا عالِمينَ؛ فالاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، و﴿هَلْ﴾ مُفيدةٌ للتَّحقيقِ؛ لأنَّها بمعنى (قد) في الاستِفهام؛ فهو تَوبيخٌ على ما يعْلَمونَه مُحَقَّقًا مِن أفعالِهم مع يوسُفَ عليه السَّلامُ وأخيه، أي: أفعالهم الذَّميمة، بقَرينةِ التَّوبيخ(١).

- وفي قولِه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كان الظَّاهِرُ أنْ يتعرَّضَ لِما فعَلوا بأخيه فقط، وإنَّما تعرَّضَ لِما فعَلوا بيوسُفَ؛ لاشتراكِهما في وُقوعِ الفِعْلِ عليهما؛ فإنَّ المرادَ بذلك إفرادُهم له عن يوسُفَ وإذْلالُه بذلك، حتَّى كان لا يَستطيعُ أنْ يكلِّمَهم إلَّا بعَجْزٍ وذِلَّةٍ، أي: هل تُبتُم عن ذلك بعد عِلْمِكم بقُبْحِه؟ فهو سُؤالٌ عنِ الْمَلزوم والمرادُ لازِمُه(٢)، ولم يَذكُرْ لهم ماذا واجَهَ أباهم؛ تَعْظيمًا لقدْرِه، وتفْخيمًا لشأْنِه أنْ يَذكُرَه مع نفْسِه وأخيه(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فيه تأْكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ، وضَميرِ الفصْلِ (أنت)؛ لشِدَّةِ تحقُّقِهم أنَّه يوسُفُ عليه السَّلامُ(٤).

- الاستفهام في قولهم: ﴿أَإِنَّكَ﴾ تقريريٌّ؛ ولذلك حُقِّقَ بـ(إنَّ) ودُخولِ اللَّامِ عليه، وأُدْخِلَ على الجُملةِ الْمُؤكَّدةِ؛ لأنَّهم تَطَلَّبوا تأْييدَه لعِلْمِهم به، وكانوا عَرَفوه بِتلك العَلاماتِ الَّتي سَبَقَ ذِكرُها، وقيل: هو استفهامُ استِخْبارٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) =

- قولُه: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾، أي: وهذا أخِي مِن أبَوَيَّ؛ تَعْريفًا لنفْسِه به، ومُبالَغةً في تَعْريفِ نفْسِه، وتَفْخيمًا لشأنِ أخيه، وإدْخالًا له في قولِه: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وتكمِلةً لِما أفادَه قولُه: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ حسْبَما يُفيدُه قولُه: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ فكأنَّه قال: هل عَلِمْتُم ما فعَلْتُم بِنَا مِن التَّفريقِ والإذْلالِ، فأنا يوسُفُ وهذا أخي، قدْ مَنَّ اللَّهُ علينا بالخَلاصِ عمَّا ابْتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفُرقةِ، والعزَّةِ بعد الذِّلَّةِ، والأُنسِ بعْد الوَحْشَةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ فيه إشارةٌ إلى الجوابِ عن طلَبِهم لِرَدِّ أخيه بـ(إنَّه أخي لا أخوكم)؛ فلا وجهَ لطَلَبِكم⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ هذا الجَوابُ مُجرَّدٌ عنِ التَّأكيدِ؛ لأنَّهم كانوا مُتحقِّقينَ ذلك؛ فلم يَبْقَ إلَّا تأييدُه لذلك، وقولُه: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ خبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن جَمْعِ اللَّهِ بينهما بعدَ طولِ الفُرقَةِ؛ فجُملةُ ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بَيانٌ للمَقْصودِ مِن جُملةِ ﴿وَهَذَا أَخِي﴾⁽²⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تَعليلٌ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّعليليِّ لجُملةِ ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، وفيه تَعريضٌ بأنَّهم لم يتَّقوا اللَّهَ فيه وفي أخيه⁽³⁾.

- قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ذِكْرُ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وَضْعٌ للظَّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذْ مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يقالَ: (فإنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجْرَهم)، فعَدَلَ عنه إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، ووُضِعَ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ

= (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

الضَّميرِ؛ لاشتمالِ المحسنينَ على المتَّقين والصَّابرين، فـ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ عامٌّ يندرِجُ فيه مَن تقدَّمَ. أو وُضِعَ المظْهَرُ موضِعَ المضمَرِ؛ تنبيهًا على أنَّ المنْعوتينَ بالتَّقوى والصَّبرِ مَوصوفونَ بالإحسانِ، وعلى أنَّ المحسِنَ مَن جمَعَ بين التَّقوى والصَّبرِ، وللدِّلالةِ على أنَّ ذلك مِنَ الإحسانِ، وللتَّعميمِ في الحُكْمِ؛ ليكونَ كالتَّذييلِ، ويَدْخلَ في عُمومِه هو وأخوه⁽¹⁾.

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: الظَّاهرُ أنَّ مُنتهى الجُملةِ هو قولُه: ﴿عَلَيْكُمُ﴾؛ لأنَّ مثلَ هذا القولِ ممَّا يجري مَجْرى المثَلِ، فيُبْنَى على الاختصارِ، فيُكتفى بـ ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ مثلَ قولِهم: لا بأسَ. وزيادةُ ﴿عَلَيْكُمُ﴾؛ للتَّأكيدِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في هذا الخِتامِ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ؛ وذلك أنَّه لَمَّا دعا لهم بالمغفِرةِ أخبَرَ عنِ اللَّهِ بالصِّفةِ الَّتي هي سَببُ الغُفرانِ؛ وهو أنَّه تعالى أرحَمُ الرُّحماءِ؛ فهو يرجو منه قَبولَ دُعائِه لهم بالمَغفِرةِ⁽³⁾.

- قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه إدماجُ الأمْرِ بالإتيانِ بأبيه في ضِمْنِ تبشيرِه بوُجودِه إدماجًا بليغًا⁽⁴⁾؛ إذ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٢).

(٤) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ =

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لِقَصْدِ صِلَةِ أرحامِ عَشيرتِه[1].

- قولُه: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فيه إفرادُ أبيه يَعقوبَ عليه السَّلامُ بالذِّكْرِ؛ تَعظيمًا له، على أحدِ وجْهيِ التفسيرِ، بَيْنَما قال في الباقينَ: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

* * *

= المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى - مِن مَدحٍ أو غيرِه - مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غَرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ - وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه - مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥١).

[2] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٧).

الآيات (٩٤- ٩٨)

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٩٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ (٩٧) قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَصَلَتِ﴾: أي: خرجَتْ وفارَقَتْ؛ مِن قَولِهم: فصل من البلدِ فُصولًا: إذا انفصل منه، وجاوزَ حِيطانَه، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[١].

﴿تُفَنِّدُونِ﴾: أي: تُسَفِّهوني، وتَنسُبوني إلى الفَنَدِ: وهو الخَرَفُ، وضَعفُ الرَّأيِ والعَقلِ مِن كِبَرِ السِّنِّ، وأصلُ (فند): يدلُّ على ثِقَلٍ وشِدَّةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَني يَعقوبَ من مِصرَ مُتَّجِهةً إلى الشَّام، قال يعقوبُ لِمَنْ حَضَرَ عندَه: إنِّي لَأشَمُّ رائحةَ يوسُفَ، لولا أن تُكَذِّبوني وتَنسُبوني إلى الهَرَمِ والخَرَفِ، فقال له الحاضِرونَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطَئِك

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٢٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٢٢).

[٢] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥١).

الَّذي كنتَ عليه قديمًا، فلَمَّا أنْ جاء يعقوبَ ولدُه المبَشِّرُ برسالةِ يوسُفَ، ألْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجْهِ أبيه، فعاد مُبْصِرًا بعَيْنَيهِ كما كان. قال يعقوبُ لأولادِه: ألَمْ أقُلْ لكم: إنِّي أعلمُ مِنَ اللَّهِ تعالى ما لا تَعلمونَه؟ قال أولادُ يعقوبَ لأبيهم: يا أبانا، اطلُبْ مِنَ اللَّهِ أنْ يَغفِرَ لنا ذُنوبَنا؛ إنَّا نَعترِفُ بأنَّنا كُنَّا خاطِئينَ، فقال لهم أبوهم: سوف أطلُبُ مِن ربِّي أنْ يَغفِرَ لكم؛ إنَّ ربِّي هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾.

أي: ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَني يعقوبَ مِن مصرَ إلى الشَّامِ، قال يعقوبُ عليه السَّلامُ لِمَنْ حضرَ عِندَه: إنِّي لأَشَمُّ رائحةَ ابْني يوسُفَ(١)!

﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

أي: لولا أنْ تَنْسُبوني إلى الهَرَمِ وضَعْفِ العَقلِ والخَرَفِ، لَتَحَقَّقْتُم ذلك وصَدَّقْتُموني(٢).

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قال الحاضِرونَ(٣) ليعقوبَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطئِك الَّذي كنتَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٣٦، ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

(٣) قال ابنُ عاشورٍ: (والذين قالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ هم الحاضرونَ مِن أهلِه، ولم يَسبِقْ ذكرُهم؛ لظهورِ المرادِ منهم، وليسوا أبناءَه؛ لأنَّهم كانوا سائِرينَ في طريقِهم إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

قديمًا، قد ذهبتَ عن العلمِ بحقيقةِ أمرِ يوسفَ، ومِن أجلِ ذلك تطمعُ في رجوعِه إليك⁽¹⁾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

أي: فلَمَّا أنْ جاءَ يَعقوبَ ولَدُه المبَشِّرُ برِسالةِ يوسُفَ، ألْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجهِ يعقوبَ، فعاد مُبْصِرًا بعَينيهِ كما كان⁽²⁾!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال يعقوبُ لأولادِه: ألم أقُلْ لكم: إنِّي أعلَمُ مِنَ اللَّهِ أنَّه سيَرُدُّ عليَّ يوسُفَ، ويَجمَعُ بيني وبينَه⁽³⁾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: قال إخوةُ يوسُفَ لأبيهم: يا أبانا، اسأَلِ اللَّهَ أنْ يَسْتُرَ علينا ذُنوبَنا الَّتي أذْنَبْناها في حقِّك وحقِّ يوسُفَ، ويَتجاوزَ عن مُؤاخَذَتِنا بها؛ إنَّا كُنَّا مُذْنِبِينَ مُتَعَمِّدين للإثمِ بمَا فعَلْنا⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٣، ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أي: قال يَعقوبُ لهم: سوف أسأَلُ ربِّي أنْ يَغفِرَ ذُنوبَكم؛ إنَّ ربِّي هو السَّاترُ لِذُنوبِ التَّائِبين المُتجاوِزُ عن المُؤاخَذةِ بها، الرَّحيمُ بهم؛ فلا يُعَذِّبُهم بعدَ تَوْبَتِهِم(١).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوْصَل اللَّهُ تعالى إلى يَعقوبَ رِيحَ يوسُفَ عليه السَّلامُ عندَ انقِضاءِ مُدَّةِ المِحنةِ، ومَجيءِ وقتِ الرَّوْحِ والفرَحِ مِنَ المكانِ البَعيدِ، ومَنَعَ مِن وُصولِ خَبَرِه إليه مع قُرْبِ إحدى البلدتَيْنِ مِنَ الأُخرى طوالَ سنواتِ هذه المحنةِ، وذلك يدلُّ على أنَّ كلَّ سَهْلٍ فهو في زَمانِ المِحنَةِ صَعْبٌ، وكلَّ صعبٍ فهو في زمانِ الإقبالِ سَهْلٌ(٢).

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ لَمَّا سأَلَ إخوةُ يوسُفَ أباهمُ الاستغفارَ لِذُنوبِهم، عَلَّلُوه بالاعترافِ بالذَّنْبِ؛ لأنَّ الاعترافَ شَرْطُ التَّوْبةِ(٣).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ عَجَّلوا إليه بَشيرًا، فأسرَعَ بعدَ خُروجِ العِيرِ مِن مِصرَ إلى الشَّامِ؛ ولذلك عبَّرَ بالفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٦، ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٤).

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على جوازِ التَّبشيرِ ببشائرِ الدُّنيا واستحبابِه، وجوازِ السُّرورِ بحُصولِ النِّعَم الحاصلةِ في الدُّنيا(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ إنَّما سألوه المغفرةَ؛ لأنَّهم أدخلوا عليه مِن ألمِ الحُزنِ ما لا يسقُط المأثمُ عنه إلَّا بإحلالِه، وهذا الحكمُ ثابتٌ فيمن آذى مُسلِمًا في نفسِه أو مالِه أو غيرِ ذلك ظالِمًا له، فإنَّه يجِبُ عليه أن يتحلَّلَ منه(٢).

٤- قال الله تعالى عن إخوةِ يُوسفَ بعدَ ندامتِهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف: ٩٧] ولم يقولوا: كفرنَا، ولا رَدَّ اللهُ عليهم ولا أبوهم قولَهم، مع كلِّ ما ذكرَهم به مِن الغَدْرِ بأخيهم وإلقائِه في الجُبِّ، وكَذِبِهم بعد رجوعِهم إلى أبيهم، ففي ذلك رَدٌّ على الخوارجِ فيما يزعمونَ أنَّ الذنوبَ كُفْرٌ(٣).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، ثم عَلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فعَلَ كلَّ ذلك؛ تسكينًا لقلوبِهم، وتَصحيحًا لرَجائِهم؛ ليَقْوَى أملُهم؛ فيكونَ تعالى عند ظنِّهم بتحقيقِ الإجابةِ، وتنجيزًا لِطَلَبِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢١٥، ٢١٦).

قال المراغي: (الفارِقُ بين جَوابِ يعقوبَ، [أي: قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾] وجَوابِ يوسُفَ، [أي: قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾] من وُجوهٍ كثيرةٍ اقتَضَتها الحِكمةُ:

الأوَّل: أنَّ حالَ أبيهم معهم حالُ المُربِّي المُرشِدِ للمُذنِبِ، لا حالُ المُنتقِمِ الذي يُخشَى أذاه، وليس مِن حُسنِ التَّربية ولا مِن طُرُقِ التَّهذيبِ أن يُرِيَهم أنَّ ذَنبَهم هيِّنٌ لديه، حتى يُعجِّلَ بإجابةِ مَطلَبِهم بالاستغفارِ لهم.

الثاني: أنَّ ذَنبَهم لم يكُنْ مُوجَّهًا إليه مباشرةً، بل مُوجَّهٌ إلى يوسُفَ وأخيه، ثمَّ إليه بالتَّبَعِ واللُّزومِ، إلَّا أنَّه ليس من العدلِ أن يستغفِرَ لهم إلَّا بعد أن يَعلمَ حالَهم مع يوسُفَ وأخيه، ولم يكُنْ =

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فيه تأكيدُ هذا الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الإنكارِ؛ ولذلك أعقبَه بـ ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾(١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ﴿أَنْ﴾ مَزيدةٌ؛ للتَّأكيدِ، وفائدةُ التَّأكيدِ في هذه الآيةِ تَحقيقُ هذه الكَرامَةِ الحاصِلةِ ليعقوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّها خارِقُ عادةٍ؛ ولذلك لم يُؤْتَ بـ (أنْ) في نظائرِ هذه الآيةِ

= يعقوبُ قد علِمَ بعفوِ يوسُفَ عنهم، واستغفارِه لهم.

الثالث: أنَّ هذا ذنبٌ كبيرٌ، وإثمٌ عظيمٌ طال عليه الأمَدُ، وحَدَثَت منه أضرارٌ نفسيَّةٌ وخُلُقيَّة، وأعمالٌ كان لها خَطَرُها، فلا يَمَّحِي إلَّا بتوبةٍ نَصوحٍ، فلا يَحسُنُ بعدَئذٍ مِن المرَبِّي الحكيم أن يسارِعَ إلى الاستغفارِ لِمُقتَرِفِها عَقِبَ طَلَبِه، حتى كأنَّها مِن هَيِّناتِ الأمورِ التي تُغفَرُ ببادرةٍ مِن النَّدَم! ومِن ثَمَّ تلبَّثَ في الاستغفارِ لهم إلى أجَلٍ، لِيُعلِمَهم عظيمَ جُرمِهم، ويُعلِمَهم بأنَّه سوف يتوجَّهُ إلى ربِّه، ويطلُبَ لهم الغُفرانَ منه بفَضلِه ورَحمتِه.

الرابع: أنَّ حالَ يوسُفَ معهم كان حالَ القادِرِ، بل المالِكِ القاهِرِ، مع مُسيءٍ ضَعيفٍ لديه، عظُمَ جُرمُه عليه، فلم يشَأْ أن يكونَ الغُفرانُ بشَفاعتِه ودُعائِه، فآمَنَهم مِن خَوفِ الانتقام؛ تعجيلًا للسُّرورِ بالنِّعمةِ الجديدةِ التي جعل اللهُ أمْرَها بين يَدَيه، ولِيَرَوا ويرى النَّاسُ فَضلَ العَفوِ عند القُدرةِ، ولِيَكونَ لهم في ذلك أحسَنُ الأُسوةِ، وفى هذا مِن ضُروبِ التَّربيةِ أكبَرُ العِظَةِ، ولو أخَّرَ المَغفِرةَ لكانوا في وجَلٍ ممَّا سيحُلُّ بهم، ولَخافوا شَرَّ الانتقامِ، فكانوا في قلقٍ دائمٍ، وتبلبُلِ بالٍ، واضطِرابِ نفسٍ، فكان توجُّسُهم له عذابًا فوقَ العذابِ الذي هم فيه، ولكِنْ شاءت رحمتُه بهم أن يجعَلَ السُّرورَ عامًّا، والحياةَ الجديدةَ حافِلةً بالاطمِئنانِ، وقُرَّةِ العينِ، وهكذا شاء اللهُ أن يكونَ ذلك، وهو العليمُ الحكيمُ). ((تفسير المراغي)) (١٣/ ٤٠) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٢).

ممَّا لم يَكُنْ فيه داعٍ للتَّأكيدِ(١)؛ ففيه مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ مِن هذا الوجْهِ.

وقيل: إنَّه قال هنا: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وفي سورةِ (العنكبوتِ) آخِرًا قال: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بذِكْرِ (أنْ)، وقال في (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، وفي (العنكبوتِ) أوَّلًا قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بحَذْفِ (أنْ)؛ للتَّنبيهِ على جوازِ الأمْرينِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فيه الاقتِصارُ على استِدْعاءِ الاستغفارِ، وعدَمِ طَلَبِ صَفْحِ أبيهم عنهم، ومِنْ حقِّ مَنِ اعترَفَ بذَنْبِه أنْ يُصْفَحَ عنه، ويُسْتَغْفَرَ له؛ فكأنَّهم كانوا على ثِقَةٍ مِن عَفوِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولذلك اقتَصَروا على استدْعاءِ الاستغفارِ، وأدْرَجوا ذلك في الاستغفارِ(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ فيه التَّعبيرُ عن عِدَتِه لهم بالاستغفارِ بـ(سَوْفَ)، وهي أبلَغُ في التَّنفيسِ مِن السِّينِ(٤)، وإنَّما وعَدَهم بالاستغفارِ في الْمُستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه يُلازِمُ الاستغفارَ لهم في أزمنةِ المستقبَلِ. ويُعْلَمُ منه أنَّه استغفرَ لهم في الحالِ بدَلالةِ الفَحْوى، ولكنَّه أرادَ أنْ يُنبِّهَهم إلى عِظَمِ الذَّنْبِ وعَظَمَةِ اللَّهِ تعالى، وأنَّه سيُكرِّرُ الاستغفارَ لهم في أزمنةٍ مُستقبَلةٍ(٥).

وقيل: إنَّ يَعقوبَ أخَّرَ الدُّعاءَ والاستغفارَ لهم إلى وقْتِ السَّحَرِ؛ لأنَّه أشرَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٤).

الأوقاتِ، وهو الوقتُ الَّذي يقولُ اللَّهُ فيه: هلْ مِن داعٍ، فأستجيبَ له(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في موضِعِ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، وفيه التَّأكيدُ بضَميرِ الفصْلِ (هو)؛ لِتَقْويةِ الخبَرِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٥٥) ونسَبه إلى أكثرِ المفسِّرين. ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٤).

الآيات (٩٩- ١٠١)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ
مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ
مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿الْعَرْشِ﴾: أي: سريرِ الملِكِ، أو سريرِ المملَكةِ، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، أو شيءٍ مُسقَّفٍ[1].

﴿وَخَرُّوا﴾: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إلَى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خَرَّ): هو اضطِرابٌ، وسُقوطٌ معَ صوتٍ[2].

﴿الْبَدْوِ﴾: أي: الباديةِ، وهي كلُّ مكانٍ يبدو ما يَعِنُّ فيه، أي: يعرِضُ، أو خلافُ الحضَرِ، وأصلُ (بدو): هو ظُهورُ الشَّيءِ[3].

﴿نَزَغَ﴾: أي: أفسَدَ وأغرى، وحمَلَ بعضَنا على بعضٍ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ على

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٦).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

[3] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

إفسادٍ بين اثنين⁽¹⁾.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتدِئَهما، وأصلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتحِ شيءٍ، وإبرازِه⁽²⁾.

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: فلَمَّا دخَلَ يعقوبُ وأهلُه على يوسُفَ ضمَّ إليه أبويْه، وقال لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مصرَ آمنينَ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأجلَسَ أباه وأمَّه على العَرشِ الَّذي يجلِسُ عليه، وخرَّ الجميعُ له سُجودًا؛ تحيةً وتعظيمًا ليوسُفَ، وقال لأبيه: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم لي هو تَفسيرُ رُؤيايَ الَّتي رأيتُها في صِغَري، قد حقَّقَها ربِّي، وقد أحسَنَ بي جلَّ وعلا حين أخرَجني مِن السِّجنِ، وجاء بكم مِن الباديةِ مِن بَعدِ أنْ أفسَدَ الشَّيطانُ بَيني وبين إخوتي؛ إنَّ ربِّي لطيفٌ لِمَا يُريدُه، إنَّه هو العليمُ الحَكيمُ.

وقال يوسُفُ داعيًا ربَّه: ربِّي قد آتيتَني مِن مُلْكِ مصرَ، وعلَّمتَني مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ، يا خالقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا والآخِرَةِ، تَوفَّني وأنا على الإسلامِ، وألْحِقْني في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾.

أي: فرحَلَ يعقوبُ بأهلِه جميعًا إلى مصرَ، فلَمَّا دخَلوا على يوسُفَ ضمَّ يوسُفُ إليه أبويْه، واختصَّهما بقُربِه⁽¹⁾.

﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

أي: وقال يوسُفُ لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مِصرَ آمنينَ - إنْ شاءَ اللَّهُ - مِن المَكارِه والمَخاوِفِ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال ابنُ الجوزيِّ: (في قولِه تعالى: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قولانِ: أحدُهما: أبوه وخالتُه؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتتْ؛ قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ. والثَّاني: أبوه وأمُّه؛ قاله الحسنُ وابنُ إسحاقَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى القَولينِ في ذلك بالصَّوابِ ما قاله ابنُ إسحاقَ؛ لأنَّ ذلك هو الأغلبُ في استِعمالِ النَّاسِ والمُتعارَفُ بينهم في «أبوين»، إلَّا أنْ يصِحَّ ما يُقال مِن أنَّ أمَّ يُوسفَ كانت قد ماتت قبل ذلك بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، فيُسَلَّمُ حينئذٍ لها). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢).

قال ابنُ كثيرٍ بعد ذكرِه قولَ ابنِ جريرٍ: (وهذا الَّذي نصَرَه هو المنصورُ الَّذي يدلُّ عليه السِّياقُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١، ٤١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال الشَّوكانيُّ: (ظاهِرُ النَّظمِ القُرآنيِّ: أنَّ يُوسفَ قال لهم هذه المَقالةَ - أي: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ - قبلَ دُخولِهم، وقد قيل في توجيهِ ذلك: إنَّه تلقَّاهم إلى خارجِ مصرَ، فوقَفَ مُنتظِرًا لهم في مكانٍ أو خيمةٍ، فدخلوا عليه فـ ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، فلمَّا دخلوا مصرَ، ودخلوا عليه دخولًا آخَرَ في المكانِ الَّذي له بمصرَ ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٤٩).

وقيل: المُرادُ بدُخولِ مصرَ: السَّكنُ والاستقرارُ فيها، وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١١).

وقيل: إنَّ في هذا التركيبِ ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ معنَى الدُّعاءِ، فكأنه قيل: =

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

أي: وأجلَسَ يوسُفُ أباه وأمَّه على السَّريرِ الَّذي يجلِسُ عليه[1].

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾.

أي: وخرَّ أبو يوسُفَ وأمُّه وإخوتُه الأحدَ عشَرَ ساجِدينَ لِيوسُفَ؛ تَحيَّةً له وتعظيمًا[2].

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾.

= اسْلَموا وأْمَنوا في دخولِكم إن شاء الله، والتقديرُ: ادخُلوا مصرَ آمِنينَ، إن شاء الله دخَلْتُم آمِنينَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٥٥).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

قال القُرطبيُّ: (أجمَعَ المُفسِّرون أنَّ ذلك السُّجودَ على أيِّ وجهٍ كان، فإنَّما كان تحيَّةً لا عِبادةً). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقد كان هذا سائغًا في شَرائعِهم؛ إذا سلَّموا على الكبيرِ يَسجُدونَ له، ولم يزَلْ هذا جائزًا مِن لدُنْ آدمَ إلى شريعةِ عيسى عليه السَّلامُ، فحُرِّمَ هذا في هذه المِلَّةِ، وجُعِلَ السُّجودُ مُختصًّا بجَنابِ الرَّبِّ سبحانه وتعالى؛ هذا مضمونُ قولِ قتادةَ وغيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (كان السُّجودُ تَحيةَ المُلوكِ وأضرابِهم، ولم يكُنْ يومئذٍ ممنوعًا في الشَّرائعِ، وإنَّما منَعَه الإسلامُ لغيرِ اللَّهِ؛ تحقيقًا لمعنى مُساواةِ النَّاسِ في العُبوديَّةِ والمَخلوقيَّةِ؛ ولذلك فلا يُعَدُّ قَبولُه السُّجودَ مِن أبيه عُقوقًا؛ لأنَّه لا غَضاضةَ عليهما منه؛ إذ هو عادَتُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٧٧).

أي: وقال يوسُفُ لأبيه يعقوبَ: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم هو ما آلَتْ إليه رُؤيايَ الَّتي رأيْتُها في مَنامي مِن قبلُ- وذلك حينَ رأى أنَّ الشَّمسَ والقمَرَ وأحدَ عشَرَ كوكبًا له ساجِدينَ- قد حقَّقَ ربِّي وُقوعَها، وجعَلَها صادِقةً(١).

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

أي: وقد أحسَنَ ربِّي(٢) إليَّ حينَ أخرَجَني مِن السِّجنِ، وجاءَ بكم مِن باديةِ الشَّامِ(٣) إلى حاضِرةِ مصرَ(٤).

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾.

أي: مِن بعدِ أنْ دخَلَ الشَّيطانُ بيني وبين إخوتي، فأفسَدَ ما بَيننا بالحسَدِ، وأغرى بعضَنا ببعضٍ(٥).

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

أي: إنَّ ربِّي لطيفٌ لِما يُريدُه بعبادِه مِن البِرِّ والرَّحمةِ؛ فيُيسِّرُ لهم الخيرَ بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، مِن حيثُ لا يَعلمونَ، ولا يَحتسِبونَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (معنى ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ أحسَنَ إليَّ؛ يقال: أحسَنَ به، وأحسَنَ إليه، مِن غيرِ تضمينِ معنى فعْلٍ آخَرَ. وقيل: هو بتَضمينِ «أحسَنَ» معنى «لطَفَ». و(باءُ) ﴿بِي﴾ للمَلابسةِ، أي: جعَلَ إحسانَه مُلابِسًا لي). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(٣) قال ابنُ جريرٍ: (مَسكنُ يعقوبَ وولدِه- فيما ذُكِرَ- كان ببادية فلسطينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٧)، ((شفاء العليل)) =

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ هو العَليمُ بمصالِحِ خَلْقِه وغيرِ ذلك، لا يَخفَى عليه ظواهِرُ الأمورِ وبواطنُها، ولا مَبادئُها وعَواقِبُها، الحكيمُ في أفعالِه وأقوالِه وتَدبيرِه؛ فيضَعُ كلَّ شيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ويَسوقُ الأمورَ إلى أوقاتِها المُقدَّرةِ لها⁽¹⁾.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا جمَعَ اللَّهُ شمْلَ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، علِمَ أنَّ نعيمَ الدُّنيا لا يَدومُ، فسألَ اللَّهَ حُسْنَ العاقِبةِ⁽²⁾.

وأيضًا أنَّه لَمَّا أتمَّ اللَّهُ لِيوسُفَ ما أتمَّ مِن التَّمكينِ في الأرضِ والمُلْكِ، وأقرَّ عينَه بأبوَيْه وإخوتِه، وبعدَ العِلْمِ العَظيمِ الَّذي أعطاه اللَّهُ إيَّاه؛ قال مُقرًّا بنِعمةِ اللَّهِ، شاكرًا لها، داعيًا بالثَّباتِ على الإسلامِ⁽³⁾، فقال:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

أي: قال يوسُفُ: يا ربِّ، قد آتيتَني مِن⁽⁴⁾ مُلْكِ مصرَ بالتَّصرُّفِ في شُؤونِ

= لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

(٤) ممَّن ذهَبَ إلى أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾، وفي قولِه سبحانه: ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ للتَّبعيضِ: الزَّمخشريُّ، والرَّازيُّ، والقُرطبيُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧). =

خَزائِنِها(١).

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

أي: وعلَّمتَني - يا ربِّ - مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ(٢).

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

أي: يا خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا وفي الآخرةِ(٣).

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: اقبِضْني إليك - يا ربِّ - إذا جاء أَجَلي وأنا ثابِتٌ على الإسلامِ، وألْحِقْني

= قال الخازِنُ: (﴿مِنْ﴾ هنا للتَّبعيضِ؛ لأنَّه لم يُؤتَ مُلْكَ مصرَ كلِّه، بل كان فوقَه مبكٌ آخَرُ، والمُلْكُ عِبارةٌ عنِ الاتِّساعِ في المَقدورِ لِمَن له السِّياسةُ والتَّدبيرُ). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٥٨).

وقال أبو حيَّان: (و«من» في قَوْلِهِ ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾، وفي ﴿مِنْ تَأْوِيلِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّه لم يُؤْتِه إلَّا بعضَ مُلْكِ الدُّنيا، ولا علَّمه إلَّا بعضَ التَّأويلِ. ويبعُدُ قولُ مَن جعَلَ «مِن» زائدةً، أو جعَلَها لِبَيانِ الجنسِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٩).

وقال الزَّجَّاجُ: (فيها قولانِ، أعني في دُخولِ «مِن»: جائزٌ أنْ يكون أراد: علَّمتَني بعضَ التَّأويلِ، وآتيتَني بعضَ المُلْكِ، وجائزٌ أنْ يكون دُخولُ «مِن»؛ لِتُبيِّنَ هذا الجِنسَ مِن سائرِ الأجناسِ، ويكونَ المعنى: ربِّ فد آتيتَني المُلْكَ، وعلَّمتَني تأويلَ الأحاديثِ، مِثلُ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، يدلُّ على أنَّ «مِن» هاهنا إنَّما هي لِتَبيينِ الجنسِ، ومثلُه قولُه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ولم يُؤمَروا باجتنابِ بعضِ الأوثانِ، ولكنِ المعنى: واجتَنِبوا الرِّجسَ الَّذي هو الأوثانُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالِحين مِن آبائي؛ إبراهيمَ وإسحاقَ وغيرِهما مِن الأنبياءِ والمُرسَلينَ[١].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قال يوسُفُ عليه السلامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لم يقُلْ: (أخرَجَني مِن الجُبِّ)؛ حفظًا للأدبِ مع إخوتِه، وتَفَتِّيًا[٢] عليهم ألَّا يُخجِلَهم بما جَرى في الجُبِّ، وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ ولم يقُلْ: جاءَ بكم مِن الجوعِ والنَّصبِ، أو: رفَعَ عنكم جُهْدَ الجُوعِ والحاجةِ؛ أدبًا معهم، وأضافَ ما جَرى إلى السَّببِ ولم يُضِفه إلى المُباشِرِ الَّذي هو أقرَبُ إليه منه، فقال: ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ولم يقُلْ: (نزَغَ الشَّيطانُ إخوتي)، بل كأنَّ الذَّنْبَ والجهْلَ صدَرَ مِن الطَّرفينِ؛ فأعطى الفُتُوَّةَ والكرَمَ والأدبَ حَقَّه؛ ولهذا لم يكُنْ كَمالُ هذا الخُلُقِ إلَّا للرُّسلِ والأنبياءِ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم[٣].

٢- قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ مِن لُطْفِ يوسُفَ وحُسْنِ خِطابِه عليه السَّلامُ؛ حيثُ قال: (إنَّ إتيانَكم مِن الباديةِ مِن إحسانِ اللَّهِ إليَّ)، فلم يقُلْ: (أحسَنَ بكم)، بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾؛ فجعَلَ الإحسانَ عائدًا إليه[٤].

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

قال القُرطبيُّ: (قيل: إنَّ يُوسفَ لم يتمَنَّ الموتَ، وإنَّما تمَنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاء أجلي تَوفَّني مُسلمًا، وهذا قولُ الجُمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦٩).

[٢] الفتَى: السخيُّ الكريمُ، يُقال: هو فتًى بيِّنُ الفُتوَّةِ. وقد تَفَتَّى وتَفاتى، والفُتُوَّةُ: الكرمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٥٢)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٣٢٠).

[٣] يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

[٤] يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

٣- في قولِ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي على العبدِ أن يتذكَّرَ في حالِ الرَّخاءِ والسُّرورِ حالةَ الحُزنِ والشِّدَّةِ؛ ليزدادَ شُكرُه وثناؤُه على اللهِ(١).

٤- قولُ يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالَى يُوصِلُ بِرَّه وإحسانَه إلى العبدِ من حيث لا يَشعُرُ، ويُوصِلُه إلى المَنازِلِ الرَّفيعةِ مِن أمورٍ يكرَهُها(٢).

٥- قولُ يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فيه أنَّه ينبَغي للعبدِ أنْ يَتملَّقَ إلى اللَّهِ دائمًا في تَثبيتِ إيمانِه، ويَعمَلَ الأسبابَ الموجِبةَ لذلك، ويسألَ اللَّهَ حُسْنَ الخاتِمةِ، وتَمامَ النِّعمةِ(٣).

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ مَن أرادَ الدُّعاءَ فلا بُدَّ أنْ يُقدِّمَ عليه ذِكْرَ الثَّناءِ على اللَّهِ؛ فهاهنا يوسُفُ عليه السَّلامُ لَمَّا أرادَ أنْ يذكُرَ الدُّعاءَ، قدَّمَ عليه الثَّناءَ، ثمَّ ذكَرَ عُقَيْبَه الدُّعاءَ(٤).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللَّهُ تعالى حِكايةً عن يوسُفَ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ خَصَّ مِن إحسانِ اللَّهِ إليه إحسانَينِ؛ هما: يومَ أخرَجَه مِن السِّجنِ، ومَجيءَ عَشيرتِه مِن الباديةِ؛ فإنَّ (إذْ) ظرفُ زمانٍ لفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)) للسعدي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٥، ٥١٦).

﴿أَحْسَنَ﴾؛ فهي بإضافتِها إلى ذلك الفعْلِ اقتَضَت وُقوعَ إحسانٍ غيرِ معدودٍ؛ فإنَّ ذلك الوقتَ كان زمَنَ ثُبوتِ بَراءتِه مِن الإثمِ الَّذي رمَتْه به امرأةُ العزيزِ، وتلك مِنَّةٌ، وزمَنَ خَلاصِه مِن السِّجنِ؛ فإنَّ السِّجنَ عذابُ النَّفْسِ بالانفصالِ عنِ الأصدقاءِ والأحِبَّةِ، وبخِلْطَةِ مَن لا يُشاكِلونه، وبشُغْلِه عن خُلْوَةِ نفسِه بتلقِّي الآدابِ الإلهيَّةِ، وكان أيضًا زمَنَ إقبالِ الملِكِ عليه. وأمَّا مجيءُ أهلِه فزوالُ ألَمٍ نفسانيٍّ بوَحشتِه في الانفرادِ عن قَرابتِه، وشوقِه إلى لقائِهم؛ فأفصَحَ بذكْرِ خُروجِه مِن السِّجنِ ومجيءِ أهلِه مِن البدْوِ إلى حيثُ هو مَكينٌ قويٌّ⁽¹⁾.

٢- قَولُه: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ الانتقالَ من البدوِ نِعمةٌ، وذلك لِما يلحقُ أهلَ الباديةِ مِن الجَفاءِ، والبُعدِ عن مواردِ العُلومِ، وعن رَفاهةِ المدنيَّةِ، ولُطفِ المُعاشرة، والكمالاتِ الإنسانيَّة⁽²⁾.

٣- قولُه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لم يَذكُرْ يوسُفُ عليه السَّلامُ إخراجَه مِن البئرِ؛ لوُجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه قال لإخوتِه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ولو ذَكَرَ واقِعةَ البئرِ لكان ذلك تَثريبًا لهم؛ فكان إهمالُه جاريًا مَجْرى الكرَمِ.

الثَّاني: أنَّه لَمَّا خرَجَ مِن البئرِ لم يَصِرْ ملِكًا بل صيَّروه عبدًا، أمَّا لَمَّا خرَجَ مِن السِّجنِ صيَّروه ملِكًا؛ فكان هذا الإخراجُ أقرَبَ مِن أنْ يكونَ إنعامًا كاملًا.

الثَّالثُ: أنَّه لَمَّا أُخرِجَ مِن البئرِ وقَعَ في المضارِّ الحاصلةِ بسبَبِ تُهمةِ المرأةِ، ولَمَّا أُخرِجَ مِن السِّجنِ وصَلَ إلى أبيه وإخوتِه، وزالَتِ التُّهمةُ؛ فكان هذا أقرَبَ إلى المَنْفعةِ⁽³⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

(2) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٢٢).

(3) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٢).

الرابع: أنَّ مُصيبةَ السِّجنِ كانتْ عند يوسُفَ أعظَمَ؛ لطولِ مُدَّتِها، ولمُصاحَبتِه الأوباشَ وأعداءَ الدِّينِ فيه، بخِلافِ مُصيبةِ الجُبِّ؛ لقِصَرِ مُدَّتِها⁽¹⁾.

الخامس: لأنَّ السِّجْنَ كان باختيارِه، فكانَ الخُروجُ منه أعظَمَ بخلافِ الجُبِّ⁽²⁾.

٤- قولُه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ فِعْلَ العبدِ خلْقُ اللَّهِ تعالى؛ لأنَّه أضافَ إخراجَه مِن السِّجنِ إلى اللَّهِ تعالى، ومجيئَهم مِن البدْوِ إليه⁽³⁾.

٥- قال يوسُفُ الصِّدِّيقُ: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فأخبَرَ أنَّه تعالى يلطُفُ لِما يُريدُه؛ فيأتي به بطُرُقٍ خَفِيَّةٍ لا يعلَمُها النَّاسُ، واسمُه جلَّ وعلا (اللَّطيفُ) يتضمَّنُ عِلْمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ، وإيصالَه الرَّحمةَ بالطُّرقِ الخَفِيَّةِ؛ فكان ظاهِرُ ما امتحَنَ به يوسُفَ مِن مُفارقةِ أبيه وإلقائِه في السِّجنِ، وبيعِه رقيقًا، ثمَّ مُراودةِ الَّتي هو في بيتِها عن نَفْسِه، وكذِبِها عليه وسَجْنِه- مِحَنًا ومصائبَ، وباطِنُها نِعَمًا وفتحًا، جعَلَها اللَّهُ سببًا لِسعادتِه في الدُّنيا والآخرةِ⁽⁴⁾.

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال يوسُفُ عليه السَّلامُ ذلك، مع عِلْمِه بأنَّ كلَّ نبيٍّ لا يموتُ إلَّا مُسلمًا؟

الجوابُ: قاله إظهارًا للعُبوديَّةِ والافتقارِ، وشِدَّةِ الرَّغبةِ في طلَبِ سعادةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤).

الخاتِمةِ، وتَعليمًا للأُمَّةِ، وطلبًا للثَّوابِ⁽¹⁾. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه إنَّما قال يوسُفُ ذلك؛ لأنَّ كَمالَ حالِ المُسلمِ أنْ يَستسلِمَ لحُكمِ اللَّهِ تعالى على وجهٍ يستقِرُّ قلْبُه على ذلك الإسلامِ، ويَرْضَى بقضاءِ اللَّهِ وقدَرِه، ويكونَ مُطمئِنَّ النَّفْسِ، مُنشرِحَ الصَّدرِ، مُنفسِحَ القَلْبِ في هذا البابِ، وهذه الحالةُ زائدةٌ على الإسلامِ الَّذي هو ضِدُّ الكُفرِ؛ فالمطلوبُ هاهنا هو الإسلامُ بهذا المعنى⁽²⁾.

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ يوسُفَ عليه السَّلامُ كان مِن أكابِرِ الأنبياءِ، والصَّلاحُ أوَّلُ دَرجاتِ المُؤمنينَ؛ فالواصِلُ إلى الغايةِ كيف يَليقُ به أنْ يطلُبَ البِدايةَ؟

والجوابُ: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّه عنهما وغيرُه مِن المُفسِّرين: يعني بآبائِه إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، والمعنى: ألحِقْني بهم في ثَوابِهم ومَراتِبِهم ودَرجاتِهم⁽³⁾.

٨- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ جمَعَت هذه الدَّعوةُ: الإقرارَ بالتَّوحيدِ، والاستسلامَ للرَّبِّ، وإظهارَ الافتِقارِ إليه، والبَراءةَ مِن مُوالاةِ غيرِه سبحانه، وكونَ الوَفاةِ على الإسلامِ أجلَّ غاياتِ العبدِ، وأنَّ ذلك بيَدِ اللَّهِ لا بيَدِ العبْدِ، والاعترافَ بالمعادِ، وطلبَ مُرافقةِ السُّعداءِ⁽⁴⁾.

٩- قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قرأْتُ سُورةَ يوسُفَ عليه السَّلامُ، فتعَجَّبْتُ مِن مَدْحِه عليه السَّلامُ على صَبْرِه، وشَرْحِ قِصَّتِه للنَّاسِ، ورَفْعِ قدْرِه بتَرْكِ ما تَرَك، فتأمَّلْتُ

---

(1) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

(2) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥١٨).

(3) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(4) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠١).

خَبِيئَةَ الأمْرِ فإذا هي مُخالفةٌ للْهَوى المَكْروهِ، فقلْتُ: واعَجَبًا! لو وافَقَ هواهُ مَن كان يكونُ؟! ولَمَّا خالَفَه لقدْ صارَ أمرًا عَظيمًا؛ تُضرَبُ الأمْثالُ بصَبْرِه، ويُفتَخَرُ على الخلْقِ باجْتهادِه، وكلُّ ذلك قد كان بصَبْرِ ساعةٍ، فيا له عِزًّا وفَخْرًا أنْ تَمْلِكَ نفْسَك ساعةَ الصَّبرِ عنِ المحْبوبِ وهو قريبٌ!))(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ فيه إيجازٌ، حيثُ طَوى ذِكْرَ سفَرِهم مِن بِلادِهم إلى دُخولِهم على يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ إذ ليس فيه مِن العِبَرِ شيءٌ(٢).

- وإعادةُ اسمِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لأجْلِ بُعدِ المَعادِ(٣).

- وقولُه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ جُملةٌ دُعائيَّةٌ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؛ لكونِهم قد دخلوا مصرَ حينئذٍ- وذلك على أحدِ الأوجُهِ في التفسيرِ- فالأمرُ في ﴿ادْخُلُوا﴾ للدُّعاءِ، وجُملةُ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿ادْخُلُوا﴾ والحالِ مِن ضميرِها ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وفيها تأدُّبٌ مع اللهِ؛ كالاحتراسِ في الدُّعاءِ الواردِ بصِيغةِ الأمْرِ، وهو لمُجرَّدِ التَّيمُّنِ؛ فوُقوعُه في الوعْدِ والعزْمِ والدُّعاءِ بمَنزلةِ وُقوعِ التَّسميةِ في أوَّلِ الكلامِ، وليس هو مِن الاستثناءِ الواردِ النَّهْيُ عنه في الحديثِ: ((ألَا يقولَ: اغفِرْ لي إنْ شئْتَ؛ فإنَّه لا مُكْرِهَ له))(٤)؛ لأنَّ ذلك في الدُّعاءِ المُخاطَبِ به اللهُ صَراحةً(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا

---

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٥، ٥٦).

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فيه تقديمُ الرَّفعِ لفظًا على الخُرورِ مع أنَّ الرَّفعَ مُؤخَّرٌ عن الخُرورِ - وإنْ قُدِّم لفظًا - ؛ للاهتمامِ بتَعظيمِه لهما⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ ذِكْرُ ﴿مِّنَ الْبَدْوِ﴾ فيه إظهارٌ لتَمامِ النِّعمةِ؛ لأنَّ انتقالَ أهلِ الباديةِ إلى المدينةِ ارْتقاءٌ في الحضارةِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ فيه إسنادُ النَّزْغِ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه المُوَسْوِسُ، كما قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، وذكَرَ هذا القَدْرَ مِن أمْرِ إخوتِه؛ لأنَّ النِّعمةَ إذا جاءتْ إثْرَ شِدَّةٍ وبلاءٍ كانتْ أحسنَ مَوقِعًا⁽³⁾، وهذا مِن مُبالَغتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الإحسانِ؛ حيثُ أسنَدَ ذلك إلى الشَّيطانِ⁽⁴⁾. وقد أشارَ إلى مَصائبِه السَّابقةِ مِن الإبقاءِ في الجُبِّ ومُشاهدةِ مَكْرِ إخوتِه به بقولِه: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾؛ فكلمةُ ﴿بعد﴾ اقتَضَتْ أنَّ ذلك شيءٌ انقَضَى أثرُه، وقد ألَمَّ به إجْمالًا؛ اقتصارًا على شُكْرِ النِّعمةِ، وإعراضًا عنِ التَّذكيرِ بتِلك الحوادثِ المُكَدِّرَةِ للصِّلةِ بينه وبين إخوتِه؛ فمرَّ بها مَرَّ الكِرامِ، وباعَدَها عنهم بقدْرِ الإمكانِ؛ إذ ناطَها بنَزْغِ الشَّيطانِ⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لقصْدِ

---

(1) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).

(3) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(4) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٧).

(5) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٧).

الاهتمامِ بها، وتعليمِ مَضمونِها(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ مُستَأنَفةٌ أيضًا، أو تعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾، وحرفُ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ (هو) للتَّقويةِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ جعَلَ الَّذي أُوتِيَهُ بعضًا مِن المُلْكِ ومِن التَّأويلِ؛ لأنَّ ما أُوتِيَهُ بَعضٌ مِن جِنْسِ المُلْكِ، وبعضٌ مِن التَّأويلِ؛ إشعارًا بأنَّ ذلك في جانِبِ مُلْكِ اللهِ وفي جانِبِ عِلْمِه شيءٌ قليلٌ(٣)، وذلك بناءً على أنَّ (مِن) للتبعيضِ.

- قولُه: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نُصِبَ ﴿فَاطِرَ﴾ على أنَّه صِفَةٌ للمُنادى، أو مُنادًى آخرُ، وصَفَه تعالى به بعدَ وصْفِه بالرُّبوبيَّةِ؛ مُبالَغةً في تَرتيبِ مَبادِي ما يعقُبُه مِن قولِه: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾(٤).

- وجُملةُ ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مِن قَبيلِ الخبَرِ في إنْشاءِ الدُّعاءِ، وإنْ أمْكَنَ حمْلُه على الإخبارِ بالنِّسبةِ لولايةِ الدُّنيا، قيل: لإثباتِه ذلك الشَّيءَ لولايةِ الآخِرةِ؛ فالمعنى: كُنْ وَلِيِّيَ في الدُّنيا والآخرةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٩).

الآيات (١٠٢- ١٠٧)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَاشِيَةٌ﴾: أي: عُقوبةٌ تَغشاهم وتَشملُهم، وأصْلُ (غشي): يدلُّ على تغْطيةِ شيءٍ بشيءٍ(١).

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذا أتاه فجأةً، وأصْلُ (بغت): مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيث لا يحتسِبُ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ذلك الَّذي قصَصْناه عليك- يا مُحمَّدُ- مِن أمْرِ يوسُفَ وغيرِه هو مِن أخبارِ الغَيبِ، نُوحيه إليك، وما كنتَ حاضرًا مع إخوةِ يوسُفَ إذِ اتَّفقوا على إلْقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ، وهم يَمكرون.

وما أكثَرُ النَّاسِ ولو حرصْتَ على هِدايتِهم- يا مُحمَّدُ- بمُؤمنِينَ بما جئْتَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

به، وما تطلُبُ منهم مُقابِلَ دعوتِهم وتَبليغِ ما كُلِّفتَ به أجرًا، إنَّ الَّذي أُرسِلْتَ به مِن القُرآنِ ما هو إلَّا تذكِرَةٌ، وعِظَةٌ للعالَمين.

وكمْ مِن آيةٍ منتشِرَةٍ في السَّمواتِ والأرضِ دالَّةٍ على أنَّ اللَّهَ وحدَه هو المُستحِقُّ للعِبادةِ، ومع ذلك يمُرُّ عليها النَّاسُ وهم مُعرِضون عنِ التَّفكُّرِ فيها، والاعتِبارِ بها، وما يُقِرُّ أكثرُهم بأنَّ اللَّهَ ربُّهم إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في العِبادةِ. أفأمِنَ هؤلاءِ أنْ تأتِيَهم عُقوبةٌ مِن اللَّهِ تُحيطُ بهم؛ بسبَبِ شِرْكِهم، أو تأتِيَهم القيامةُ فجأةً وهم لا يشعُرون بمَجيئِها؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: ذلك الَّذي قَصَصْنا في هذه السُّورةِ- مِن خبَرِ يوسُفَ وغيرِه ممَّا غاب عنك عِلْمُه- نُوحيه إليك- يا مُحمَّدُ- ونُعْلِمُكَ به؛ لنُثبِّتَ به فؤادَك، ولِتَصبِرَ على ما أصابَكَ⁽¹⁾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: وما كنتَ حاضرًا- يا مُحمَّدُ- عند إخوةِ يوسُفَ حين اتَّفقَتْ آراؤُهم، وصحَّتْ عَزائمُهم على إلْقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ، والحالُ أنَّهم يَمكُرون به في هذا الفعْلِ، ويبْغونَ له الغَوائلَ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨). =

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن سَوْقِ هذه القِصَّةِ إلى العِبرةِ بتَصميمِ المُشركين على التَّكذيبِ بعدَ هذه الدَّلائلِ البيِّنةِ(١).

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

أي: وما أكثَرُ النَّاسِ(٢)- يا محمَّدُ- ولو حرصْتَ على هِدايتِهم بمُؤمنينَ باللَّهِ، وبما جئتَهم به مِن عِندِه سُبحانَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

= وقال ابنُ عاشورٍ: (ضمائرُ ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ عائدةٌ إلى كلِّ مَن صدَرَ منه ذلك في هذه القِصَّةِ، مِن الرِّجالِ والنِّساءِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ يشمَلُ إخوةَ يُوسفَ عليه السَّلامُ، والسَّيارةَ، وامرأةَ العزيزِ، ونِسوتَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لم يُبيِّنْ هنا هذا الَّذي أجمعوا أمْرَهم عليه، ولم يُبيِّنْ هنا أيضًا المُرادُ بمكْرِهم، ولكنَّه بيَّنَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ أنَّ الَّذي أجمَعوا أمْرَهم عليه هو جعْلُه في غَيابةِ الجُبِّ، وأنَّ مكْرَهم هو ما فعَلوه بأبيهم يعقوبَ وأخيهم يُوسفَ، وذلك في قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٨). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦١).

(٢) قال الشَّوكانيُّ: (أي: وما أكثرُ النَّاسِ المُعاصرينَ لك- يا محمَّدُ- أو: ما أكثرُ النَّاسِ على العُمومِ، ولو حرَصْتَ على هِدايتِهم، وبالَغْتَ في ذلك، بمؤمنينَ باللَّهَ؛ لِتصميمِهم على الكُفرِ الَّذي هو دِينُ آبائِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: وما تطلُبُ منهم- يا محمَّدُ- على تَذكيرِهم بالقُرآنِ، ونُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى الإيمانِ أُجْرةً(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما القُرآنُ إلَّا عِظَةٌ وتذكِرةٌ للعالَمينَ، يَتذكَّرون به، ويهتَدون(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾.

أي: وكمْ مِن علاماتٍ كثيرةٍ في السَّمواتِ والأرضِ دالَّةٍ على أنَّ اللهَ هو المستحِقُّ للعِبادةِ وحْدَه، يمُرُّ عليها النَّاسُ ويرَونَها، وهم عن التَّفكُّرِ فيها والاعتِبارِ بها مُعرِضون(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: وما يُقِرُّ أكثرُ النَّاسِ(١) بأنَّ اللَّهَ ربُّهم إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه(٢)!

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّهُ عنهما، قال: ((كان المُشرِكون يقولون: لبَّيكَ لا شَريكَ لك، قال: فيقولُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ويْلَكُم، قدْ قدْ(٣)!!، فيقولونَ: إلَّا شَريكًا هو لك، تملِكُه وما ملَكَ؛ يقولونَ هذا وهم يَطوفونَ بالبيتِ))(٤)!

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، قال: ((انطلقْتُ مع أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللَّهُ عنه إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا أبا بكرٍ، لَلشِّرْكُ فيكم أَخفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ، فقال أبو بكرٍ: وهل الشِّرْكُ إلَّا مَن جعَلَ مع اللَّهِ إلهًا آخَرَ؟ فقال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: والَّذي نفْسي بيَدِه، لَلشِّرْكُ أَخفَى مِن دَبيبِ النَّمْلِ! ألَا أدُلُّك على شيءٍ إذا قُلْتَه ذهَبَ عنك قليلُه وكثيرُه؟، قال: قل: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (يقول تعالى ذِكْرُه: وما يقِرُّ أكثرُ هؤلاءِ الَّذين وصَفَ عزَّ وجلَّ صِفتَهم بقولِه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ باللَّهِ أنَّه خالِقُه ورازِقُه وخالِقُ كلِّ شيءٍ، إلَّا وهم به مشركونَ...). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٢).
وقال الشِّنقيطيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومُجاهدٌ، وعامرٌ الشَّعبيُّ، وأكثرُ المُفسِّرينَ: إنَّ معنى هذه الآيةِ: أنَّ أكثرَ النَّاسِ- وهم الكُفَّارُ- ما كانوا يُؤمنونَ باللَّهِ بتَوحيدِهم له في رُبوبيَّتِه إلَّا وهم مُشرِكون به غيرَه في عِبادتِه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٢)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨).

(٣) قَدْ قَدْ: أي: كفاكم هذا الكلامُ، فاقتَصِروا عليه، ولا تَزيدُوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٩٠).

(٤) رواه مسلم (١١٨٥).

أنْ أُشْرِكَ بكَ وأنا أعلَمُ، وأستغفِرُكَ لِمَا لا أعلَمُ))⁽¹⁾.

وعن سَعدِ بنِ عُبَيدةَ، ((أنَّ ابنَ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما سمِعَ رجلًا يقولُ: لا والكَعبةِ، فقال ابنُ عمَرَ: لا يُحْلَفُ بغيرِ اللَّهِ؛ فإنِّي سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: مَن حلِفَ بغيرِ اللَّهِ فقد كفَرَ، أو أشْرَكَ))⁽²⁾.

وعن مَحمودِ بنِ لبيدٍ رضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغَرُ، قالوا: وما الشِّرْكُ الأصغَرُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالِهم: اذْهَبوا إلى الَّذين كنتُم تُراؤونَ في الدُّنيا، فانظُروا هل تجِدونَ عندهم جزاءً؟!))⁽³⁾.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ ﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٧١٦) واللفظ له، وأبو يعلى (٦٠)، وابن بطة في ((الإبانة الكبرى)) (٩٨٢).

قال ابنُ القيِّمِ في ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٤٢): مشهورٌ، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) واللفظ له، وأحمد (٦٠٧٢).

حسَّنَه التِّرمذيُّ، وصحَّحَه على شرْطِ الشَّيخينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤/ ٣٣٠)، وصحَّحه ابنُ المُلقِّنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ٤٥٨)، وابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٤٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٥٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦٨٣١)، والبغوي في ((شرح السنة)) (٤١٣٥).

جوَّدَ إسنادَه المُنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٥٢)، ووثَّقَ رِجالَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٦١)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٠٧): رِجالُه رِجالُ الصَّحيحِ. وحسَّنَ إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((بلوغ المرام)) (٤٤٠)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٢٩)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٥٥٥).

أي: أفأمِنَ أولئك الَّذين لا يُؤمِنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم عُقوبةٌ مِن اللَّهِ تغشاهم وتُحيطُ بهم؛ بسبَبِ شِرْكِهم باللَّهِ⁽¹⁾؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: أو أَمِنَ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللَّهِ إلَّا وهم مُشرِكون أنْ تأتِيَهم القِيامةُ فجأةً وهم لا يَدْرونَ بمَجيئِها؟! فلْيَتوبوا إلى اللَّهِ إذًا⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

أشارَ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ إلى صِحَّةِ نُبوَّةِ نبيِّنا صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أنْزَلَ عليه هذا القُرآنَ، وفصَّلَ له هذه القِصَّةَ، مع أنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لم يكُنْ حاضرًا لدَى أولادِ يعقوبَ حين أجْمَعوا أمْرَهم على المَكْرِ به، وجَعْلِه في غَيابةِ الجُبِّ، إلى غيرِ ذلك؛ فلولا أنَّ اللَّهَ أوْحَى إليه ذلك ما عرَفَه مِن تِلقاءِ نفْسِه. والآياتُ المُشيرةُ لإثباتِ رِسالتِه- بدَليلِ إخبارِه بالقِصَصِ الماضيةِ، الَّتي لا يمكِنُه علْمُ حَقائقِها إلَّا عن طريقِ الوحيِ- كثيرةٌ، كقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ [القصص: ٤٦]، وقولِه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٩- ٧٠]، وقولِه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؛ فهذه الآياتُ مِن أوضَحِ الأدلَّةِ على أنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ رَسولٌ كريمٌ، وإنْ كانتِ المُعجزاتُ الباهِرةُ الدَّالَّةُ على ذلك أكثَرَ مِن الحصْرِ(١).

٢- إنْ قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أفاد تقييدَ إيمانِهم بكونِهم مشركينَ، وهو مشكلٌ لما بينَ الإيمانِ والشركِ مِن المنافاةِ.

فالجوابُ: أنَّ هذا الإيمانَ المُقيَّدَ بحالِ الشِّركِ إنَّما هو إيمانٌ لُغويٌّ لا شرعيٌّ؛ لأنَّ مَن يعبُدُ مع اللَّهِ غيرَه لا يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ البتَّةَ شرعًا. أمَّا الإيمانُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٨).

اللُّغويُّ فهو يَشملُ كلَّ تصديقٍ؛ فتَصديقُ الكافرِ بأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرَّازقُ يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ لُغةً مع كُفرِه باللَّهِ، ولا يَصدُقُ عليه اسمُ الإيمانِ شرعًا، وإذا حقَّقْتَ ذلك علِمْتَ أنَّ الإيمانَ اللُّغويَّ يُجامِعُ الشِّركَ؛ فلا إشكالَ في تَقييدِه به(١)، وقيل: وما يؤمِنُ أكثَرُهم بأنَّ اللَّهَ خالِقُه ورازِقُه وخالِقُ كلِّ شيءٍ قولًا، إلَّا وهو مُشرِكٌ بعِبادةِ الأصنامِ فِعلًا. وقيل: إنَّ المُرادَ به المنافِقونَ؛ يُؤمِنونَ بألسنَتِهم قولًا، ويُشرِكون بقُلوبِهم اعتقادًا(٢).

٣- قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ سمَّاه اللَّهُ تعالى إيمانًا مع التَّقييدِ، وإلَّا فالمُشرِكُ الَّذي جعَلَ مع اللَّهِ إلهًا آخَرَ لا يَدخُلُ في مُسمَّى الإيمانِ عند الإطلاقِ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** في هذه الآيةِ ما يُسَمَّى في عِلْمِ البَيانِ بـ(الاحتجاجِ النَّظريِّ)، وبعضُهم يُسَمِّيه (المَذهبَ الكَلاميَّ)؛ وهو في الأساسِ مُصطلَحٌ جدَليٌّ(٤)، وهو أنْ يُلْزِمَ الخَصْمَ ما هو لازمٌ لهذا الاحتِجاجِ، وفيه هنا تَهكُّمٌ مَريرٌ بقُريشٍ وبمَن كذَّبَ محمَّدًا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؛ لأنَّه لا يَخفى على أحدٍ أنَّه لم يكُنْ مِن حَمَلَةِ هذا الحَديثِ وأشباهِه، ولا لَقِيَ فيها أحدًا ولا سمِعَ منه، ولم يكُنْ مِن عِلْمِ قومِه؛ فإذا أخبَرَ به وقصَّه هذا القَصَصَ البديعَ الَّذي أعجَزَ حَمَلَتَه

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٣).

(٤) وقد أطْلَق عليه الزركشيُّ «إلجام الخَصْمِ بالحُجَّة» وعرَّفَه بأنَّه: الاحتِجاجُ على المعنى المقصودِ بحُجَّةٍ عقليَّةٍ تَقطَعُ المعاندَ له فيه، وهو مِن أساليبِ القُرآن، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦٨- ٤٧٠).

ورُواتِه، لم تقَعْ شُبهةٌ في أنَّه ليس منه، وإنَّما هو مِن جِهَةِ القُرون الخاليةِ، ونحوُه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]؛ فقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ هنا تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّه قد عَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ما كان معهم(١).

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن نبَأِ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لتَمْييزِ الأنباءِ أكْمَلَ تمييزٍ؛ لِتتمكَّنَ مِن عُقولِ السَّامعينَ لِما فيها مِن المواعِظِ(٢).

- قولُه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ المُضارعِ ﴿نُوحِيهِ﴾؛ تصويرًا لحالِ الإيحاءِ الشَّريفِ، وإشارةً إلى أنَّه لا يزالُ معه يكشِفُ له ما يُريدُ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ تَذْكيرُ ضميرِ ﴿نُوحِيهِ﴾؛ لأجلِ مُراعاةِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾(٤).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ هذه الجُملةُ استخلاصٌ لمَواضِعِ العِبْرةِ مِن القِصَّةِ، وفيها مِنَّةٌ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَعريضٌ للمُشركينَ بتَنْبيهِهم لإعجازِ القُرآنِ مِن الجانبِ العِلْميِّ؛ فإنَّ صُدورَ ذلك مِن النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الأُمِّيِّ آيةٌ كُبْرَى على أنَّه وحيٌ مِن اللَّهِ تعالى؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وجُملةُ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ في موضِعِ الحالِ؛ إذ هي تَمامُ التَّعجُّبِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦١).

- وليس المُرادُ بقولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ مُجَرَّدَ نَفْيِ حُضورِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَشْهَدِ إجماعِهم ومَكْرِهم فقط، بلْ في سائرِ المَشاهِدِ أيضًا، وإنَّما تَخصيصُه بالذِّكْرِ هنا؛ لكونِه مَطْلَعَ القِصَّةِ، وأَخْفَى أحوالِها، كما يُنْبِئُ عنه قولُه: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾(١).

- قولُه: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن مَكْرِهم بصِيغةِ المُضارعِ ﴿يَمْكُرُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضٌ، وهذه الآيةِ مِن الاعتراضِ الَّذي لا يأتي في الكلامِ إلَّا لفائدةٍ، وهو جارٍ مَجرَى التَّوكيدِ، وفائدةُ هذا الاعتراضِ هنا أمْرانِ؛ أوَّلُهما: تصويرُ حِرْصِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم على إيمانِ قَومِه وهدايتِهم، وتهالُكِه على رَدْعِهم عن غَيِّهم، وحَزْفِهم عن مَظانِّ الخطأِ، ومواطِنِ الضَّلالِ، واستهدافِه للأذَى في سبيلِ هذا الحِرْصِ، مع عِلْمِه بعدَمِ جَدْوى ذلك، واستِحالةِ إقلاعِهم عمَّا هم فيه. والثَّاني: تَصويرُ لَجاجَتِهم، وجُحودِ عَقليَّتِهم، وإصرارِهم على الغَيِّ الَّذي هم فيه شارِعونَ، وبه آخِذون، وعِنادِهم ومُكابَرَتِهم فيما لا تُجْدي معه الحُجَجُ والبَراهينُ الثَّابِتَةُ المُنيرةُ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ فيه قَصْرٌ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: ما هو إلَّا ذِكْرٌ للعالَمينَ، لا لِتحصيلِ أجْرِ تَبْليغه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٦٢- ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا تَشْنيعُ حالِهم، وهذا مِن قَبيلِ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ على وجْهِ التَّهَكُّمِ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ...﴾ اعتِراضٌ بالتَّفريعِ على ما دلَّتْ عليه الجُملتانِ قبْلَه مِن تفْظيعِ حالِهم، وجُزأَتِهم على خالِقِهم، والاستِمرارِ على ذلك دون إقْلاعٍ، والاستفهامُ بقولِه: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ فيه تَوبيخٌ وتَهْديدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤).

الآيات (١٠٨- ١١١)

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿بَصِيرَةٍ﴾: أي: يقينٍ، والبصيرةُ كذلك: الحُجَّةُ والبَيانُ، وأصْلُ (بصر): وُضُوحُ الشَّيءِ[١].

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

قال الشنقيطي: (والبصيرةُ أشهرُ معانيها في لغةِ العربِ أنَّها تُطلقُ إطلاقينِ، يرجعُ إليهما غالبُ استعمالِ البصيرةِ في القرآنِ:

أحدُهما: أنَّ البصيرةَ هي الحُجَّةُ والدليلُ القاطعُ، وإنما قيل للدليلِ القاطعِ والحجةِ والبرهانِ: «بصيرةٌ»؛ لأنه يُنَوِّرُ البصيرةَ التي هي نورُ العقلِ، يُنَوِّرُها حتَّى ترَى الحقَّ حقًّا، والباطلَ باطلًا، والنافعَ نافعًا، والضارَّ ضارًّا، والحَسَنَ حَسَنًا، والقبيحَ قَبيحًا، ومِن إطلاقِ البصيرةِ على الدليلِ القاطعِ: قولُه جل وعلا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: على عِلْمٍ ودليلٍ واضحٍ وبرهانٍ قاطعٍ لا يَتْرُكُ في الحقِّ لَبْسًا.

المعنَى الثاني للبصيرةِ: وهو الاستبصارُ، والعلمُ بالقلبِ بحقائقِ الأشياءِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٦١) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة =

﴿عِبْرَةٌ﴾: أي: اعتِبارٌ وموعظةٌ، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ(١).

﴿يُفْتَرَى﴾: أي: يُكْذَبُ ويُخْتَلَقُ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، أو العظيمُ مِن الكذِبِ، وأصلُه مِن (الفَرْيِ): وهو قطعُ الشيءِ(٢).

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالَى: قلْ- يا محمَّدُ-: هذه طريقَتي؛ أدْعو إلى تَوحيدِ اللَّهِ تعالى على عِلْمٍ ويقينٍ منِّي بصحَّةِ ذلك، أنا ومَن اتَّبعَني، وأُنَزِّه اللَّهَ تعالى عن كلِّ نقصٍ، وما أنا مِن المُشرِكين.

ثمَّ يُبيِّنُ اللَّهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أنَّ الرُّسلَ الَّذين أرسَلَهم مِن قبْلِه ما كانوا إلَّا رجالًا يُوحِي إليهم، وهم مِن أهلِ المُدُنِ، وليسوا مِن أهلِ البَوادي. أفلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكون في الأرض، فيَرَوا كيف كان إهلاكُ اللَّهِ للأُمَمِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ مِن قبْلِهم، فيعتَبِروا؟! ولَدارُ الآخِرةِ خيرٌ مِن دارِ الدُّنيا للَّذين اتَّقَوا.

حتَّى إذا يَئِس الرسلُ، وظنوا أنهم أُخلِفوا فيما وعَدَهم اللَّهُ به مِن النَّصرِ، جاءَهم نصرُ اللَّهِ فجأَةً، فنجَّاهم وأتْباعَهم المُؤمنينَ، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يرُدَّ عذابَه عزَّ وجلَّ عنِ القومِ المُجرِمين.

لقد كان في قَصَصِ يوسُفَ مع إخوتِه وقَصَصِ المُرسَلينَ مع أُمَمِهم عِظَةٌ

= ((الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

لأهلِ العُقولِ السَّليمةِ، ما كان القُرآنُ وما فيه مِن القَصصِ حديثًا يُكذَبُ ويُختلَقُ، ولكنْ يُصدِّقُ ما سبَقَه مِن الكتُبِ المُنزَّلَةِ على أنبياءِ اللَّهِ، وهو تفصيلٌ لكلِّ ما يَحتاجُ العِبادُ إلى بَيانِه، وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يُؤْمِنون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا وصَفَ اللَّهُ سبحانه لرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أكثَرَ النَّاسِ بما وصَفَ، مِن سُوءِ الطَّريقةِ للتَّقليدِ الَّذي منشَؤُه الإعراضُ عنِ الأدلَّةِ الموجِبةِ للعِلْمِ؛ أمَرَ أنْ يَذكُرَ طريقَ الخُلَّصِ، فقال⁽¹⁾:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: هذه طريقَتي؛ أدْعو إلى تَوحيدِ اللَّهِ على بيِّنةٍ وعِلْمٍ، ويَقينٍ منِّي بصحَّةِ ذلك مِن غيرِ شكٍّ، أنا وكلُّ مَن اتَّبعَني كذلك ندْعو إلى عِبادةِ اللَّهِ وحْدَه على بيِّنةٍ وعِلْمٍ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).

قال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وسواءٌ كان المعنى: أنا ومَن اتَّبعني يَدعو إلى اللَّهِ على بصيرةٍ، أو كان الوقفُ عند قولِه: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، ثمَّ يبتدئُ ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فالقولانِ مُتلازمانِ؛ فإنَّه أمَرَه سبحانه أنْ يخبِرَ أنَّ سبيلَه الدَّعوةُ إلى اللَّهِ، فمَن دعا إلى اللَّهِ تعالى فهو على سَبيلِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وهو على بَصيرةٍ، وهو مِن أتباعِه، ومَن دعا إلى غيرِ ذلك فليس على سبيلِه، ولا هو على بصيرةٍ، ولا هو مِن أتباعِه؛ فالدَّعوةُ إلى اللَّهِ تعالى هي وظيفةُ المُرسَلينَ وأتباعِهم، وهم =

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: وقلْ- يا محمَّدُ- تَعظيمًا للَّهِ: أُنزِّه اللَّهَ عن جَميعِ النقائصِ؛ كأنْ يكونَ له شريكٌ في المُلْكِ أو العِبادةِ، أو يكونَ له مثيلٌ أو ولَدٌ أو صاحبةٌ أو مُعِينٌ، وأتبرَّأُ مِن الَّذين يَعبُدون غيرَه، ولا أعبُدُ إلَّا اللَّهَ وحْدَه⁽¹⁾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قبْلِك- يا مُحمَّدُ- إلَّا رجالًا- لا مَلائكةً ولا نِساءً- نُوحِي إليهم أنْ يأمُروا النَّاسَ بتوحيدي، وإفرادِ العِبادةِ لي، ويَدْعُوهم إلى طاعتِي، وهم مِن أهلِ المُدُنِ لا مِن أهلِ البَوادي⁽²⁾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

= خُلفاءُ الرُّسلِ في أُمَمِهم، والنَّاسُ تبَعٌ لهم). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٦).
قال ابنُ تيميةَ: (حَكَى الإجماعَ على أنَّه لم يكُنْ في النِّساءِ نبيَّةٌ غيرُ واحدٍ؛ كالقاضي أبي بكرِ بنِ الطيبِ، والقاضي أبي يَعلَى، وأبي المعالي الجُوينيِّ، وخِلافُ ابنِ حزمٍ شاذٌّ مَسبوقٌ بالإجماعِ؛ فإنَّ دعواه أنَّ أمَّ موسى كانتْ نبيَّةً هي ومريمُ قولٌ لا يُعْرَفُ عن أحدٍ مِن السَّلفِ والأئمةِ). ((الصفدية)) (١/ ١٩٨).
وقال ابنُ كثيرٍ: (يخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما أرسَلَ رُسلَه مِن الرِّجالِ لا مِن النِّساءِ. وهذا قولُ جُمهورِ العلماءِ، كما دلَّ عليه سِياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللَّهَ تعالى لم يُوحِ إلى امرأةٍ مِن بناتِ بني آدمَ وَحْيَ تشريعٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٢).

أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المُشرِكون المُكذِّبون لك- يا محمَّدُ- في الأرضِ، فينظُروا كيف أهلَكَ اللَّهُ الأُمَمَ الَّذين كذَّبوا رسلَهم مِن قبلِهم، فيَعتَبِروا[1]؟!

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾.

أي: وكما أنْجَينا المُتَّقين في الدُّنيا عندَ نزولِ العُقوبةِ بالمُشرِكين والعُصاةِ، كذلك كتَبْنا لهم النَّجاةَ في الدَّارِ الآخِرةِ أيضًا، والجنَّةُ خَيرٌ لهم مِن الدُّنيا وأحسَنُ[2].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تعقِلون حَقيقةَ ما أخبَرْناكم به في القُرآنِ مِن سُوءِ عاقِبةِ الكُفْرِ، وخيريَّةِ الدَّارِ الآخرةِ، فتُؤمِنوا باللَّهِ، وتتَّقوا الإشراكَ به[3]؟!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

قال ابن جرير: وقولُه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا فِعْلُنا في الدُّنيا بأهلِ ولايتِنا وطاعَتِنا، إنَّ عقوبَتَنا إذا نَزلَتْ بأهلِ معاصينا والشِّرْكِ بنا أنْجَيْناهم منها، وما في الدَّارِ الآخرةِ لهم خيرٌ، وتَرَكَ ذكرَ ما ذَكَرْنا اكتِفاءً بدلالةِ قولِه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨١).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١٠).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿كُذِبُوا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿كُذِبُوا﴾ بتَخفيفِ الذَّالِ، على جعلِ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا﴾ للرسلِ، فالمعنى: ظنَّ الرسلُ أنَّهم قد أُخلِفوا، والمرادُ ما يَرِدُ على القلبِ، ويهْجِسُ فيه مِن حديثِ النفسِ، وعوارضِ الوساوسِ، الذي لا يسلمُ منه أحدٌ مِن البشرِ، وَقِيلَ: المعنَى: وظنَّ الرُّسلُ أنَّها قَدْ كَذَبَتْهم أنفسُهم حينَ حَدَّثَتْهم بأنَّهم يُنْصَرُونَ عليهم، أو: كَذَبَهم رَجاؤُهم لِلنَّصْرِ.

وعلى جعلِ الضميرِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا﴾ للمرسَلِ إليهم، لما في ذكرِ الرسل مِن دلالةٍ عليهم، فالمعنى: وظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كُذِبوا فيما وُعِدوا به مِن النَّصرِ. وقيل: ظنَّ المرسلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ قد كَذَبوهم فيما أخبَرُوهم به مِن نُزولِ العذابِ بهم إنْ لم يؤمِنوا؛ لِمَا شاهَدوا مِن إمهالِ اللَّهِ لهم⁽¹⁾.

٢- قِراءةُ ﴿كُذِّبُوا﴾ بتَشْديدِ الذَّالِ، بجَعْلِ الظَّنِّ للأنبياءِ بمعنى العِلْمِ، والمعنى: ولَمَّا أيقَنَ الأنبياءُ أنَّ قومَهم قد كَذَّبوهم فلن يُصدِّقوهم، جاء الرُّسلَ نصْرُنا. وقيل: ظنَّ الأنبياءُ أنَّ المُؤمنينَ بهم يُكذِّبونهم، وخافوا أنْ يدخُلَ قُلوبَ أتباعِهم شكٌّ⁽²⁾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾.

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٦٦، ٣٦٧)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٥).

أي: حتَّى(١) إذا يئِس رُسلُ اللَّهِ(٢)، وخطَر بقلوبِهم، وحدَّثتْهم أنفسُهم أنَّهم قد أُخلِفوا فيما وعَدَهم اللَّهُ به مِن النَّصرِ؛ لطولِ البلاءِ عليهم، وإبطاءِ النصرِ- أتاهم نصْرُنا فجأةً، فنَجَّيْناهم وأتْباعَهم(٣) المُؤمنينَ(٤).

---

(١) قال ابن حجر: (واختُلِفَ فيما تعَلَّقَت به الغايةُ مِن قَولِه: ﴿حَتَّى﴾ فاتَّفقوا على أنَّه محذوفٌ، فقيل التقدير: وما أرسَلْنا من قبلك إلَّا رِجالًا يُوحَى إليهم، فتراخى النَّصرُ عنهم حتى إذا... وقيل: التقديرُ: فلم تُعاقَبْ أمَمُهم حتى إذا... وقيل: فدَعَوا قَومَهم فكَذَّبوهم فطال ذلك حتى إذا...). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٦٧).

(٢) قال ابن الجوزي: (﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾، وفيه قولانِ: أحدُهما: اسْتَيأسوا مِن تصديقِ قومِهم، قاله ابنُ عباسٍ. والثاني: مِن أن نعذِّبَ قومَهم، قاله مجاهدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٧٢).

قال ابنُ القيِّم: (قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فلمَّا ذَكَرَ أنَّ الرُّسُلَ هم الذين استيأسُوا، كان فيه دليلٌ على أنَّهم دخل قلوبَهم يأسٌ مِن غيرِ يَقينٍ استيقَنوه؛ لأنَّ اليقينَ في ذلك إنَّما يأتيهم مِن عندِ الله). ((زاد المعاد)) (٥/ ٥٨٦).

(٣) قال الرسعني: (والمرادُ بـ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾: المؤمنونَ؛ لأنَّهم أهلُ النجاةِ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٥٥).

قال الرسعني بعد أن ذكَرَ قَولَ ابنِ عبَّاسٍ: (كانوا بَشرًا، فضَعُفوا ويَئِسوا، وظَنُّوا أنَّهم أُخلِفوا)، قال: (وهذا التأويلُ مَزلَّةُ الأقدام، ومَدحَضةُ الأفهام، وفيه سِرٌّ لا يفهَمُه إلا غوَّاصٌ على المعاني، بحَّاثٌ عنها؛ فإنه لا يجوزُ أن يُظَنَّ بابنِ عبَّاسٍ أنَّه أراد بتأويلِه تطريقَ الشَّكِّ الذي هو تغليبُ أحد الجانبَينِ على الآخرِ، أو تساويَهما على رُسُلِ اللهِ المعصومينَ عن مثلِ ذلك! بل أراد ما يَرِدُ على القَلبِ، ويهجِسُ فيه من حديثِ النَّفسِ، وعوارِضِ الوَساوسِ، الذي لا يَسلَمُ منه أحَدٌ مِن البشَرِ، فتفَهَّمْ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٢٩).

قال السَّعدي تحتَ قاعدةِ: (الأمورُ العارِضةُ التي لا قرارَ لها بسَبَبِ المُزعِجاتِ أو الشُّبُهاتِ، قد تَرِدُ على الحَقِّ وعلى الأمورِ اليقينيَّةِ، ولكِنْ سُرعانَ ما تضمَحِلُّ وتزولُ)- قال: (الرُّسُلُ- صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- أكمَلُ الخَلقِ إيمانًا ويَقينًا، وتصديقًا بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه، وهذا أمرٌ يجِبُ على الأُمَمِ: أن يعتَقِدوا في الرُّسُلِ من أنَّهم قد بَلَغوا الذُّروةَ فيه، وأنَّهم معصومونَ مِن ضِدِّه، ولكِنْ ذَكَر اللهُ في بعض الآياتِ أنَّه قد يَعرِضُ لهم بعضُ الأمورِ المُزعِجةِ المُنافيةِ حِسًّا لِما عُلِمَ يَقينًا، ما يوجِبُ لهؤلاء الكُمَّلِ أن يَستبطِئوا معه النَّصرَ، ويقولون: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

= [البقرة: ٢١٤]، وقد يَخطُرُ في هذه الحالةِ على القُلوبِ شَيءٌ مِن عوارِضِ اليأسِ بحَسَبِ قُوَّةِ الوارداتِ، وتأثيرِها في القلوبِ، ثمَّ في أسرعِ وَقتٍ تنجلي هذه الحالُ، وتنفَرِجُ الأزمةُ، ويأتي النَّصرُ مِن قَريبٍ ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فعندئذٍ يصيرُ لِنَصرِ الله وصِدقِ مَوعودِه مِن الوقعِ والبِشارةِ والآثارِ العَجيبةِ أمرٌ كبيرٌ، لا يَحصُلُ بدونِ هذه الحالةِ؛ وبهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾؛ فلهذا الواردِ الذي لا قرارَ له، وعندما حقَّت الحقائقُ اضمحَلَّ وتلاشى، لا يُنكَرُ ويُطلَب للآياتِ تأويلاتٌ مخالِفةٌ لظاهِرِها). ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) (ص: ١٥٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لا يمتَنِعُ على الأنبياءِ أن يظُنُّوا شيئًا فيكون الأمرُ بخلافِ ما ظَنُّوه؛ فقد يظُنُّون فيما وُعِدوه تعيينًا وصفاتٍ، ولا يكونُ كما ظَنُّوه، فييأسون مِمَّا ظنوه في الوعدِ، لا من تعيينِ الوعدِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٨٦).

وقال الخطَّابي: (يحتَمِلُ أن يقال: إنَّهم عند تطاوُلِ مُدَّةِ البلاء عليهم وإبطاءِ نجزِ العِدَةِ عنهم وشِدَّةِ مُطالبةِ القَومِ إيَّاهم بما كانوا يَعِدونَهم من النُّصرة؛ دخَلَتْهم الرِّيبةُ حتى توهَّموا أن الذي جاءهم من الوحيِ لعلَّه كان حُسبانًا منهم ووَهمًا، فارتابوا بأنفُسِهم وظنُّوا عليها الغلَطَ في تلقِّي ما ورد عليهم من القَولِ، فيكون معنى الكَذِب في هذا متأوَّلًا على الغَلَطِ... ومَرجِعُ الأمر في هذا الباب: أن الذي عَرَض من الريبةِ إنَّما ينصرف إلى الوسائِطِ التي هي مُقَدِّمات الوحيِ، لا إلى نفسِ الوحيِ وأصلِه بعد حصولِ العلم به، والله أعلم). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٨١٣)، وينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وأما ما رواه البخاري (٤٥٢٥) بسنده عن ابنِ أبي مُلَيكَةَ، قال: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللَّهُ عنهما: (﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ خفيفةً، ذهَبَ بها هناك، وتلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فلقِيتُ عُروةَ ابنَ الزُّبيرِ فذكَرْتُ له ذلك، فقال: قالت عائشةُ: مَعاذَ اللَّهِ! واللَّهِ ما وعَدَ اللَّهُ رسولَه مِن شيءٍ قطُّ إلَّا علِمَ أنَّه كائنٌ قبلَ أنْ يموتَ، ولكنْ لم يَزَلِ البَلاءُ بالرُّسلِ، حتَّى خافوا أنْ يكونَ مَن معهم يُكذِّبونهم، فكانت تقرَؤُها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُثقَّلةً).

وكذلك ما رواه البخاري أيضًا (٤٦٩٥) بسندِه عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ، عن عائشةَ رضِيَ اللَّهُ عنها، (قالتْ له وهو يسألُها عن قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ قال: قلْتُ: أ ﴿كُذِبُوا﴾ أم ﴿كُذِّبُوا﴾؟ قالت عائشةُ: ﴿كُذِّبُوا﴾. قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم؛ فما هو بالظَّنِّ؟ قالت: أجلْ! لَعَمْري لقد استيقَنوا بذلك. فقلتُ لها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قالت: مَعاذَ اللَّهِ! لم تكُنِ الرُّسلُ تظُنُّ ذلك بربِّها. قلْتُ: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتباعُ الرُّسلِ الَّذين آمَنوا =

قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى

= بربِّهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ واستأْخَرَ عنهم النَّصرُ، حتَّى إذا استيئَسَ الرُّسلُ ممَّن كذَّبَهم مِن قَومِهم، وظنَّتِ الرُّسلُ أنَّ أتباعَهم قد كذَّبوهم؛ جاءَهم نصْرُ اللَّهِ عند ذلك).

فقد قال ابنُ حجرٍ: (قال الخطَّابيُّ: لا شكَّ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ لا يُجيزُ على الرُّسلِ أنَّها تُكذِّبُ بالوحيِ، ولا يشكُّ في صِدْقِ المُخْبِرِ،... والمُرادُ بالكذِبِ الغَلطُ لا حقيقةُ الكذِبِ، كما يقول القائلُ: كذَبَتْك نفسُك، قلتُ: ويؤيِّدُه قِراءةُ مُجاهِدٍ: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) بفتحِ أوَّلِه مع التَّخفيفِ، أي: غَلِطوا، ويكونُ فاعلُ ﴿وَظَنُّوا﴾ الرُّسلَ، ويَحتمِلُ أنْ يكون أتباعَهم، ويُؤيِّدُه ما رواه الطَّبريُّ بأسانيدَ مُتنوِّعةٍ مِن طريقِ عمرانَ بنِ الحارثِ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ وأبي الضُّحى وعليِّ بنِ أبي طلحةَ والعوفيِّ، كلُّهم عنِ ابنِ عبَّاسٍ في هذه الآيةِ، قال: أيِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ قَومِهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا، وقال الزَّمخشريُّ: إنْ صحَّ هذا عنِ ابنِ عبَّاسٍ فقد أراد بالظَّنِّ ما يَخطِرُ بالبالِ، ويهجِسُ في النَّفسِ مِن الوسوسةِ وحديثِ النَّفسِ على ما عليه البشريَّةُ، وأمَّا الظَّنُّ- وهو ترجيحُ أحدِ الطَّرفينِ- فلا يُظَنُّ بالمُسلمِ فضلًا عنِ الرَّسولِ. وقال أبو نصرٍ القُشَيريُّ: ولا يبعُدُ أنَّ المُرادَ: خطَرَ بقلْبِ الرُّسلِ، فصرَفوه عن أنفُسِهم، أو المعنى: قَرُبوا مِن الظَّنِّ، كما يُقال: بلغْتُ المنزِلَ؛ إذا قَرُبْتَ منه. وقال التِّرمذيُّ الحكيمُ: وجْهُه: أنَّ الرُّسلَ كانت تخافُ بعد أنْ وعَدَهم اللَّهُ النَّصرَ أنْ يتخلَّفَ النَّصرُ لا مِن تُهمةٍ بوعْدِ اللَّهِ، بل لتُهْمةِ النُّفوسِ أنْ تكونَ قد أحدثت حدَثًا ينقُضُ ذلك الشَّرطَ، فكان الأمْرُ إذا طال واشتدَّ البلاءُ عليهم، دخَلَهم الظَّنُّ مِن هذه الجهةِ، .. الضَّميرُ في ﴿وَظَنُّوا﴾ عائدٌ على المُرسَلِ إليهم، وفي ﴿كُذِبُوا﴾ عائدٌ على الرُّسلِ، أي: وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوا. أو الضَّمائرُ للرُّسلِ، والمعنى: يئِسَ الرُّسلُ مِن النَّصرِ، وتوهَّموا أنَّ أنفُسَهم كذَبَتْهم حين حدَّثَتْهم بقُربِ النَّصرِ، أو كذَبَهم رَجاؤهم. أو الضَّمائرُ كلُّها للمُرسَلِ إليهم، أي: يئِسَ الرُّسلُ مِن إيمانِ مَن أُرسلوا إليه، وظنَّ المُرسَلُ إليهم أنَّ الرُّسلَ كذَبوهم في جَميعِ ما ادَّعوه مِن النُّبوَّةِ، والوعْدِ بالنَّصرِ لمَن أطاعهم، والوعيدِ بالعذابِ لِمَن لم يُجِبْهم). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٦٨، ٣٦٩).

وقال ابنُ تيميةَ: (فعائشةُ جعَلَت استيآسَ الرُّسُلِ مِن الكُفَّارِ المُكذِّبين، وظنَّهم التَّكذيبَ مِن المؤمنين بهم، ولكنِ القراءةُ الأخرى ثابتةٌ لا يُمكِنُ إنكارُها، وقد تأوَّلَها ابنُ عبَّاسٍ، وظاهِرُ الكلامِ معه، والآيةُ الَّتي تَليها إنَّما فيها استبطاءُ النَّصرِ، وهو قولُهم: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ فإنَّ هذه كَلِمةُ تَبطِيءٍ لطَلَبِ التَّعجيلِ. وقولُه: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قد يكونُ مثلَ قولَه: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢]، والظَّنُّ لا يُرادُ به في الكتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ من أهلِ الكلامِ في العِلْمِ، ويُسمُّون الاعتقادَ المرجوحَ وهمًا، بل قد قال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: «إيَّاكم =

نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

أي: ولا يقدِرُ أحدٌ أنْ يرُدَّ عذابَنا عنِ القومِ المُشرِكينَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ[1].

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

أي: لقد كان في قَصَصِ يوسُفَ وإخوتِه وقَصَصِ المُرسَلين مع أُمَمِهم، وكيف نجَّى اللَّهُ المؤمنِينَ وأهلَكَ الكافرين؛ عِظَةٌ لأهْلِ العُقولِ السَّليمةِ يعتَبِرون بها[2].

﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾.

= والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ»، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] ... وأيضًا فقولُه: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قد يكونون ظنُّوا في الموعودِ به ما ليس هو فيه بطريقِ الاجتهادِ منهم، فتبيَّنَ الأمْرُ بخِلافِه؛ فهذا جائزٌ عليهم، فإذا ظَنَّ بالموعودِ به ما ليس هو فيه، ثمَّ تبيَّنَ الأمْرُ بخلافِه؛ ظَنَّ أنَّ ذلك كذِبٌ، وكان كذِبًا مِن جهةِ ظَنٍّ في الخبَرِ ما لا يجِبُ أنْ يكون فيه، فأمَّا الشَّكُّ فيما يَعلَمُ أنَّه أخبَرَ به؛ فهذا لا يكونُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٧٦، ١٨٠).

[1] يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٠).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٠).

قال ابنُ جريرٍ: (قال جلَّ ثناؤه للمُشرِكين مِن قُريشٍ مِن قومِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: لقد كان لكم- أيُّها القومُ- في قَصصِهم عِبرةٌ لو اعتبَرْتم به؛ أنَّ الَّذي فعَلَ ذلك بيُوسفَ وإخوتِه لا يَتعذَّرُ عليه أنْ يفعَلَ مثلَه بمحمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فيُخرِجَه مِن بين أظهُرِكم، ثم يُظهِرَه عليكم، ويُمَكِّنَ له في البِلادِ، ويُؤيِّدَه بالجُنْدِ والرِّجالِ مِن الأتباعِ والأصحابِ، وإنْ مرَّتْ به شدائدُ، وأتَتْ دونَه الأيَّامُ واللَّيالي، والدُّهورُ والأزمانُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠١- ٤٠٢).

أي: ما كان القُرآنُ وما فيه مِن الأخبارِ والقَصصِ حديثًا يُكذَبُ ويُختلَقُ(١).

﴿ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾.

أي: ولكنِ القُرآنُ يُصدِّقُ الكُتُبَ الَّتي أنزَلَها اللَّهُ مِن قَبْلُ على الأنبياءِ، ويَشهَدُ لِما فيها مِن الصَّحيحِ الَّذي لم يُحرَّفْ أنَّه حَقٌّ مِن عند اللَّهِ(٢).

﴿ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾.

أي: والقُرآنُ يُبيِّنُ كلَّ ما يَحتاجُ العِبادُ إلى بَيانِه مِن العَقائدِ، والشَّرائعِ والأحكامِ، والأخبارِ(٣).

﴿ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: والقُرآنُ هدًى مِن كلِّ ضلالةٍ لِمَنِ اتَّبعَه، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُصدِّقينَ به، العامِلينَ بما فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (الهُدى الَّذي في القَصصِ: العِبرُ الباعِثةُ على الإيمانِ والتَّقوى، بمُشاهدةِ ما جاء مِن الأدلَّةِ في أثناءِ القَصصِ على أنَّ المُتَصرِّفَ هو اللَّهُ تعالى، وعلى أنَّ التَّقوى هي أساسُ الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ، وكذلك الرَّحمة؛ فإنَّ في قَصصِ أهلِ الفضلِ دَلالةً على رحمةِ اللَّهِ لهم وعنايتِه بهم، وذلك رحمةٌ للمؤمنينَ؛ لأنَّهم باعتبارِهم بها يأتونَ ويذَرونَ، فتصلُحُ أحوالُهم، ويكونونَ في اطْمئنانِ بالٍ، وذلك رحمةٌ مِن اللَّهِ بهم في حياتِهم، وسببٌ لرحمتِه =

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه التنبيهُ على الإخلاصِ؛ لأنَّ كثيرًا لو دعا إلى الحقِّ فهو يَدْعو إلى نفسِه⁽¹⁾.

٢- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمنينَ الَّذين آمَنوا به مأمورونَ بأنْ يَدْعوا إلى الإيمانِ بما يَستطيعونَ⁽²⁾، وأنَّ الدعوةَ إلى الله طريقُ مَن اتَّبع النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم⁽³⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لَمْ يكُنْ على بَصيرةٍ فليس مِن أتْباعِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ أتْباعَه هم أولو البَصائرِ⁽⁴⁾.

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يدلُّ على أنَّ الدُّعاءَ إلى اللَّهِ تعالى إنَّما يحسُنُ ويجوزُ مع هذا الشَّرطِ؛ وهو أنْ يكونَ على بصيرةٍ ممَّا يقولُ، وعلى هدًى ويقينٍ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهو محْضُ الغُرورِ⁽⁵⁾.

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا ظاهِرَ الشِّركِ ولا خافيَه، هذه طريقي؛

= إيَّاهم في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧٢، ٧٣).

(١) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لمحمد بن عبد الوهاب (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لمحمد بن عبد الوهاب (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٠).

فمَن شاءَ فلْيُتابِعْ، ومَن لم يشَأْ فأنا سائرٌ في طريقي المستقيم. وأصحابُ الدَّعوةِ إلى اللَّهِ لا بُدَّ لهم مِن هذا التَّميُّزِ؛ لا بُدَّ لهم أنْ يُعلِنوا أنَّهم أُمَّةٌ وحدَهم، يفتَرِقون عمَّن لا يَعتقِدُ عَقيدتَهم، ولا يسلُكُ مسلَكَهم، ولا يَدينُ لقيادَتِهم، ويَتميَّزون ولا يَختلِطون⁽¹⁾.

٦- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فيه حَضٌّ على العمَلِ لِدارِ الآخِرةِ والاستعدادِ لها، واتِّقاءِ المُهلِكاتِ⁽²⁾.

٧- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تِلك سُنَّةُ اللَّهِ في الدَّعواتِ؛ لا بُدَّ مِن الشَّدائدِ، ولا بُدَّ مِن الكُروبِ، حتَّى لا تَبْقى بقيَّةٌ مِن جُهْدٍ، ولا بقيَّةٌ مِن طاقةٍ، ثمَّ يجيءُ النَّصرُ بعدَ اليأسِ مِن كلِّ أسبابِه الظَّاهرةِ الَّتي يَتعلَّقُ بها النَّاسُ، يجيءُ النَّصرُ مِن عِندِ اللَّهِ، فيَنْجو الَّذين يَستحِقُّون النَّجاةَ؛ يَنْجُون مِن الهَلاكِ الَّذي يأخُذُ المُكذِّبين، ويَنْجُون مِن البَطْشِ والعَسْفِ الَّذي يُسلِّطُه عليهم المُتجبِّرون، ويَحِلُّ بأسُ اللَّهِ بالمُجرمين، مُدمِّرًا ماحِقًا، لا يقِفُونَ له، ولا يَصدُّه عنهم وليٌّ ولا نصيرٌ؛ ذلك كي لا يكونَ النَّصرُ رخيصًا، فتكونُ الدَّعواتُ هَزْلًا، فلو كان النَّصرُ رخيصًا لقامَ في كلِّ يومٍ دَعِيٌّ بدَعوةٍ لا تكلِّفُه شيئًا، أو تكلِّفُه القليلَ⁽³⁾.

٨- قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مَن تأمَّلَ قِصَّةَ يوسُفَ ظهَرَ أنَّ في غرائبِها، وامتحانِ اللَّهِ فيها لقومٍ في مواضِعَ، ولُطفِه لقومٍ في مواضِعَ، وإحسانِه لقومٍ في مواضِعَ: مُعتَبَرًا لِمَن له لُبٌّ وأجادَ النَّظرَ؛ حتَّى يعلَمَ أنَّ كلَّ أمرٍ مِن عند اللَّهِ وإليه⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٠٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨٩).

٩- قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقد قَصَّ اللَّهُ علينا في القرآنِ أخبارَ الأنبياءِ وما أصابَهم وما أصابَ أتباعَهم المؤمنينَ مِن الأذَى في اللَّه، ثُمَّ إنَّ تعالَى نَصَرهم، وجَعَل العاقبةَ لهم؛ لنعتبِرَ، ولِيتيقَّنَ المُرتابُ، ويتوبَ المُذْنِبُ، ويَقوى إيمانُ المُؤمنينَ⁽¹⁾.

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ فيه أنَّ البصيرةَ مِن الفرائضِ، ووجهُ ذلك أنَّه لا بدَّ للداعيةِ مِن العلمِ بما يَدْعو إليه، والدعوةُ فريضةٌ؛ فيكونُ العلمُ بذلك فريضةً⁽²⁾.

٢- يُشتَرَطُ في الآمِرِ بالمعروفِ أنْ يكونَ له عِلْمٌ يَعلَمُ به أنَّ ما يأمُرُ به معروفٌ، وأنَّ ما يُنهى عنه مُنْكَرٌ؛ لأنَّه إذا كان جاهلًا بذلك فقد يأمُرُ بمُنْكَرٍ ويَنهى عن معروفٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽³⁾.

٣- في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ بيانُ أنَّ مقصودَ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ، بل المقصودَ بخَلْقِ الخَلْقِ، وإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسلِ: أنْ يكونَ الدِّينُ كلُّه للَّه، وهو دعوةُ الخلائقِ إلى خالقِهم⁽⁴⁾.

٤- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللَّهَ ما بعَثَ رسولًا إلى الحقِّ مِن النِّسوانِ، وأيضًا لم

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٨)، (٣٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٦٤).

يبعَثْ رسولًا مِن أهلِ الباديةِ(١).

٥- قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: الأماكنِ المَبْنيَّةِ بالمَدَرِ والحجَرِ ونحوِه؛ لأنَّها مُتهيِّئةٌ للإقامةِ والاجتِماعِ، وانتيابِ أهلِ الفضائلِ، وذلك أجدَرُ بغَزارَةِ العقْلِ، وأصالةِ الرأْيِ، وحِدَّةِ الذِّهنِ، وتوليدِ المعارفِ مِن البَوادي(٢)، فالله تعالى لم يبعَثْ نبيًّا مِن أهلِ الباديةِ؛ لغَلَبَةِ الجَفاءِ والقَسوةِ على أهلِ البَدْوِ، ولأنَّ أهلَ الأمصارِ أعقَلُ وأحلَمُ وأفضَلُ وأعلَمُ(٣).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيه التَّذكيرُ باستواءِ أحوالِ الرُّسلِ عليهمُ السَّلامُ وما لَقَوه مِن أقوامِهم؛ فهو وعيدٌ باستواءِ العاقِبةِ للفريقينِ(٤).

٧- ذكَرَ اللَّهُ تعالى في أوَّلِ السُّورةِ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، ثمَّ ذكَرَ في آخِرِها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ حُسْنَ هذه القِصَّةِ إنَّما كان بسبَبِ أنَّه يحصُلُ منها العِبرةُ، ومعرِفةُ الحِكمةِ والقُدرةِ(٥).

٨- ذكَرَ اللَّهُ سُبحانَه في غيرِ مَوضِعٍ مِن كِتابِه أنَّ الرَّحمةَ تَحصُلُ بالقُرآنِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٠/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٥٢٢).

(٦) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٩٦).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن الاعتبارِ بدَلالةِ نُزولِ هذه القِصَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الأُمِّيِّ على صِدْقِ نُبوَّتِه وصِدْقِه فيما جاءَ به مِن التَّوحيدِ، إلى الاعتبارِ بجَميعِ ما جاء به مِن هذِه الشَّريعةِ عنِ اللَّهِ تعالى، وهو المُعَبَّرُ عنه بالسَّبيلِ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ فيه الإشارةُ إلى الشَّريعةِ بتَنْزيلِ المعقولِ مَنْزلةَ المحسوسِ؛ لبُلوغِه مِن الوضوحِ للعُقولِ حدًّا لا يَخفَى فيه إلَّا عمَّن لا يُعَدُّ مُدرِكًا⁽²⁾.

- قولُه: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ الضَّميرُ الظَّاهِرُ ﴿أَنَا﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ المُستَتِرِ في ﴿أَدْعُو﴾⁽³⁾.

- وجُملةُ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَا قبلَها؛ لأنَّها تعُمُّ ما تضمَّنتْه⁽⁴⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٤، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٦).

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ فإنَّ مَجموعَ المُتَحدَّثِ عنهم سارُوا في الأرضِ فرَأَوْا عاقِبةَ المُكَذِّبينَ، كعادٍ وثمودَ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ (يوسُفَ): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكذلك في سُورةِ (الحجِّ)، وفي آخِرِ سُورةِ (غافرٍ)، وسُورةِ (مُحمَّد) بالفاءِ ﴿أَفَلَمْ﴾، بينَما قال في (الرُّوم): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وكذلك في سُورةِ (فاطرٍ)، وأوَّلِ (غافرٍ) بالواوِ ﴿أَوَلَمْ﴾؛ فتكرَّرَ هذا في عِدَّةِ مواضِعَ؛ منها ما ورَدَ فيه بعدَ همزةِ التَّقريرِ وفاءِ التَّعقيبِ، ومنها ما ورَدَ بواوِ العطفِ؛ فأمَّا تقديمُ الهمزةِ قَبلها فلأنَّ لها الصَّدارةَ في الكلامِ، ولَمَّا جَرَتْ في هذه الآياتِ مِن تَخصيصِ بَعضِ هذه المواضعِ بالفاءِ المُقْتَضيةِ مع التَّشريكِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وبعضِها بالواوِ المُقْتَضيةِ مُجَرَّدَ التَّشريكِ والجَمْعِ؛ فخُصِّصَ كلٌّ واحدٍ مِن هذه المواضِعِ بما اختُصَّ به في عَطْفِه على ما قبلَه؛ فمِن الوارِدِ بالفاءِ آيةُ (يوسُفَ) المَذكورةُ آنفًا، وفي سورةِ (الحجِّ): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وفي آخِرِ سورةِ (غافرٍ): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢]، وفي سورةِ (محمَّد): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]؛ فهذه أربعُ آياتٍ ممَّا ورَدَ بالفاءِ. ومِن الوارِدِ بالواوِ قولُه في سورةِ (الرُّوم): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٨).

وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وفي سورةِ (فاطر): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤]، وفي سورةِ (غافر): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]، فهذه ثلاثُ آياتٍ، ووجْهُ ذلك:

أنَّ ما في الثَّلاثةِ الأُوَلِ تقدَّمَه التَّعبيرُ في الإنكارِ بالفاءِ في قولِه هنا: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ [يوسف: ١٠٧]، وفي الحجِّ: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥]، وفي آخِرِ (غافر): ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]. وأمَّا في الثَّلاثةِ الأخيرةِ؛ تَقدَّمَه التَّعبيرُ بالواوِ في قولِه في (الرُّوم): ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وفي (فاطر): ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، وفي أوَّلِ (غافر): ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾(١) [غافر: ٢٠]، وقيل غير ذلك(٢).

- وجُملةُ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تعريضٌ بسلامةِ عاقِبةِ المُتَّقينَ في الدُّنيا، وتعريضٌ أيضًا بأنَّ دارَ الآخرةِ أشدُّ أيضًا على الَّذين مِن قَبلِهم مِن العاقِبةِ الَّتي كانتْ في الدُّنيا؛ فحصَلَ إيجازٌ بحذْفِ جُملتينِ(٣).

- وأيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ قال تعالى في سورةِ (الأعرافِ): ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٩، ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٨).

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فقال في سورةِ (الأعرافِ): ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ فوصَفَ الدَّارَ بالآخِرةِ، وفي الآيةِ الَّتي في سُورةِ (يوسُفَ) أضافَ الدَّارَ إلى الآخِرةِ؛ ووجه ذلك: أنْ قَبلَه في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فقولُه: ﴿هَذَا الْأَدْنَى﴾ إنَّما يعني هذا المَنزِلَ الأدنى، وهو والدَّارُ الدُّنيا بمعنًى واحدٍ؛ فلَمَّا جعَلَ الأَدْنى وصْفًا للمَنْزِلِ ذكَرَ الدَّارَ الآخِرةَ بعدَه، فجعَلَ الدَّارَ مَوصوفةً والآخِرةَ صِفَةً لها، وكلٌّ يُؤَدِّي معنًى واحدًا، إلَّا أنَّه يَختصُّ ببَعضِ اللَّفظِ دون بعضٍ؛ لمُشاكَلةِ ما قَبلَه ومُوافَقتِه له. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ في (يوسُفَ) فإنَّ قبلَه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [يوسف: ١٠٧]، والسَّاعةُ هي السَّاعةُ الآخِرةُ، وهي القيامةُ؛ فلَمَّا ذُكِرَت الدَّارُ أُضيفَتْ إليها، فكأنَّه قال: ولَدارُ السَّاعةِ الآخِرةِ خيرٌ؛ فتقدَّمَ كُلَّ آيةٍ ما كان المَذْكورُ بعدَه ألْيقَ به(١).

- وأيضًا من المُناسَبةِ الحَسَنةِ قولُه هنا في سُورةِ (يُوسُفَ): ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بَينما قال في (الأعرافِ): ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ووجهُ هذا الاختلافِ: أنَّه في سُورةِ (يوسف) دُعِيَ القومُ إلى الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الَّذين أُهْلِكوا في أزْمِنةِ أنبيائِهم بالنَّظَرِ إلى مَنازِلِهم وهي خاويةٌ على عُروشِها؛ ليعْلَموا أنَّ الدَّارَ الآخِرةَ خيرٌ لِمَن اتَّقى منهم. وأمَّا قولُه في سورةِ (الأعرافِ) فهو تَرْهيبٌ لليهودِ الَّذين في عَصْرِ النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وارتشائهم على كِتْمانِ أمْرِه، وتَرغيبٌ لهم فيما عِندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إذا صدَّقوا ما في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، والتَّرغيبُ والتَّرهيبُ لا يَتعلَّقانِ إلَّا بالآنِفِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٠).

المُستقبَلِ؛ فلذلك قال: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١) [الأعراف: ١٦٩].

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلك: إدخالُ اللَّامِ على (دار الآخِرةِ) في سورةِ (يُوسفَ)، وإخلاؤها منها في سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قولَه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] جاء بعد قولِه: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعناه: فيَعْلَموا كيف كان حالُ مَن قَبلَهم، وأنَّ الدَّارَ الآخرةَ خيرٌ لهم؛ فاللَّامُ هي الَّتي تَدخُلُ على المُبتدَأِ فتُعلِّقُ الفِعْلَ، والفِعْلُ هو: فيَعْلَموا الدَّارُ خيرٌ، كما تقول: علِمْتُ لَزَيدٌ أفضلُ مِن عمرٍو. وأمَّا قولُه: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩] في سورةِ (الأعرافِ) فلم يَتقدَّمْه اللَّامُ، بل قولُه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] مِن غيرِ أنْ يَتقدَّمَه ما يَجْري مَجْرى التَّوكيدِ والقَسَمِ الَّذي يُتَلَقَّى باللَّامِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿حَتَّى﴾ مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ لأنَّ (حتَّى) غايةٌ لِما قبلَها، وليس في اللَّفظِ ما يكونُ له غايةٌ؛ فاحْتِيجَ إلى تَقْديرٍ؛ فكأنَّه قيل: (وما أرسَلْنا مِن قَبلِك إلَّا رجالًا، فتَراخى نصْرُهم، حتَّى استَيْئَسوا عنِ النَّصْرِ وظنُّوا أنَّهم قد كُذبوا)؛ فآذَنَ حرْفُ الغايةِ (حتَّى) بمعنًى مَحذوفٍ دلَّ عليه جُملةُ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ بما قُصِدَ بها مِن معنى قَصْدِ الأُسوةِ بسَلَفِه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، أي: فدامَ تكْذيبُهم وإعراضُهم، وتأخَّرَ تَحقيقُ ما أنْذَروهم به مِن العذابِ، حتَّى اطمأنوا

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨١٠، ٨١١).

بالسَّلامةِ وسَخِروا بالرُّسلِ، وأَيِسَ الرُّسلُ عليهم السَّلامُ مِن إيمانِ قومِهم. والمعنى: أنَّ مُدَّةَ التَّكذيبِ والعَداوةِ مِن الكفَّارِ، وانتِظارِ النَّصرِ مِن اللَّهِ، وتأميلِه قد تطاوَلَتْ عليهم وتمادَتْ، حتَّى استَشْعَروا القُنوطَ، وتوهَّموا أنْ لا نَصْرَ لهم في الدُّنيا، فجاءَهم نصْرُنا فجأَةً مِن غيرِ احتِسابٍ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ ﴿اسْتَيْئَسَ﴾ مُبالغةٌ في (يَئِسَ)، والتَّعريفُ في ﴿الرُّسُلُ﴾ عليهم السَّلامُ تَعريفُ العَهْدِ الذِّكْريِّ، وهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإعطاءِ الكَلامِ استقلالًا بالدَّلالةِ؛ اهتمامًا بالجُملةِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ الجَمْعُ بين الماضي (نُجِّيَ) والمُضارعِ (نَشاءُ) احتِباكٌ، تقديرُه: فنُجِّيَ مَن شِئْنا ممَّن نَجا في القُرونِ السَّالفةِ، ونُنَجِّي مَن نَشاءُ في المُستقبَلِ⁽³⁾.

٤- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه مِن مَحاسِنِ البَلاغةِ: ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ؛ فهذه الآيةُ مُرتبطةٌ بجُملةِ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وهي تتنزَّلُ منها مَنْزِلةَ البَيانِ لِما تَضمَّنَه معنى الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ مِن التَّعجُّبِ، وما تَضمَّنَه معنى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ مِن الاستِدلالِ على أنَّه وَحيٌ مِن اللَّهِ مع دَلالةِ الأُمِّيَّةِ، وهي أيضًا تتنزَّلُ مَنزِلةَ التَّذييلِ للجُمَلِ المُستَطْرَدِ بها؛ لقصْدِ الاعتِبارِ بالقِصَّةِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٧٠).

[يوسف: ١٠٣]؛ فلها مواقعُ ثلاثةٌ عَجيبةٌ مِن النَّظْمِ المُعْجِزِ(١).

– وقولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ...﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ (قد) واللَّامِ؛ للتَّحقيقِ(٢).

– قولُه: ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فيه تَخصيصُ أُولي الألبابِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بالعِبَرِ، وكذلك في قولِه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المُؤمنون بذلك؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بذلك(٣).

– وقولُه: ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فيه ما يُعرَفُ باختِلافِ صيغةِ اللَّفظةِ؛ وهو نقلُها مِن هيئةٍ إلى هيئةٍ- كنقْلِها مِن وزْنٍ إلى وزْنٍ آخَرَ، أو نقْلِها مِن صِيغةِ الاسمِ إلى صيغةِ الفِعْلِ، أو بالعكس، أو كنقْلِها مِن الماضي إلى المُستقبَلِ، أو بالعكس، أو مِن الواحدِ إلى التَّثْنيةِ أو الجَمْعِ، إلى غير ذلك- وقولُه تعالى: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مثالٌ للنَّقْلِ مِن الإفرادِ إلى التَّثْنيةِ والجَمْعِ؛ وذلك أنَّ لفظةَ (اللُّبِّ) الَّذي هو العَقْلُ لا لفظةُ (اللُّبِّ) الَّذي تَحتَ القِشْرِ؛ فإنَّها لا تَحْسُنُ في الاستِعمالِ إلَّا مجموعةً (الألْباب)، وكذلك ورَدَتْ هنا وفي أكثرِ مِن مَوضعٍ مِن القُرآنِ الكريمِ(٤).

– وفي سُورةِ (يوسُفَ) نَفْحَةٌ مِنَ القَصصِ الرَّائعِ الَّذي استَوْفى شَرائطَ القِصَّةِ، وقدِ امتازَتْ هذه القِصَّةُ- على تَسَلْسُلِ حَوادِثِها، وكثرةِ فُنونِها، وتَنَوُّعِ فُصولِها- بالإيجازِ؛ الطَّويلِ منه والقَصيرِ، كما جاءتْ قَصَصُ القُرآنِ كلُّها، وأحسنُ ما جاء منها في هذا البابِ قِصَّةُ يوسُفَ عليه السَّلامِ؛ فإنَّها جاءتْ على الطَّريقَتَينِ في سُورةٍ واحدةٍ مِن قولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٧٣).

أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ إلى قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، وجاءتْ على الطَّريقَةِ المُخْتصرَةِ في قولِه على لِسانِ يوسُفَ: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾؛ فذكَرَ تعالى القِصَّةَ أوَّلًا على طَريقِ البَسْطِ مُفصَّلةً لِمَن لم يُشارِكْ في طَريقِ عِلْمِها، وذكَرَها تعالى أخيرًا مُخْتصَرةً؛ لِيعْلَمَها مُفَصَّلَةً مَن لَم يكُنْ يَعْلَمُها، حتَّى إذا جاءتْ مُجْمَلَةً عَلِمَ الإشاراتِ فيها، وابتدَأَها بقولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، ثم أنْهاها بقولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ ووجْهُ الاعتبارِ بقَصَصِهم هو: أنَّ هذه القَصَصَ إنَّما سُجِّلَتْ لِحُصولِ العِبْرةِ منها، ومَعْرفةِ الحِكْمةِ والمَغْزى⁽¹⁾.

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي عشرَ
ويَليهِ المجلدُ الثَّاني عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرَّعْدِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٧٠، ٧١).

الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

9786038154496